الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة علي لونيسي البليدة 2

قسم اللّغة والأدب العربي

كلية الآداب واللغات

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللّغة والأدب العربيLMD

تخصص: أدب عربي حديث ومعاصر

بعنوان:

خطاب الآخر في شعر أيمن العتّوم
مقاربة تداولية

إعداد الـــطالب:
محفوظ زاوش

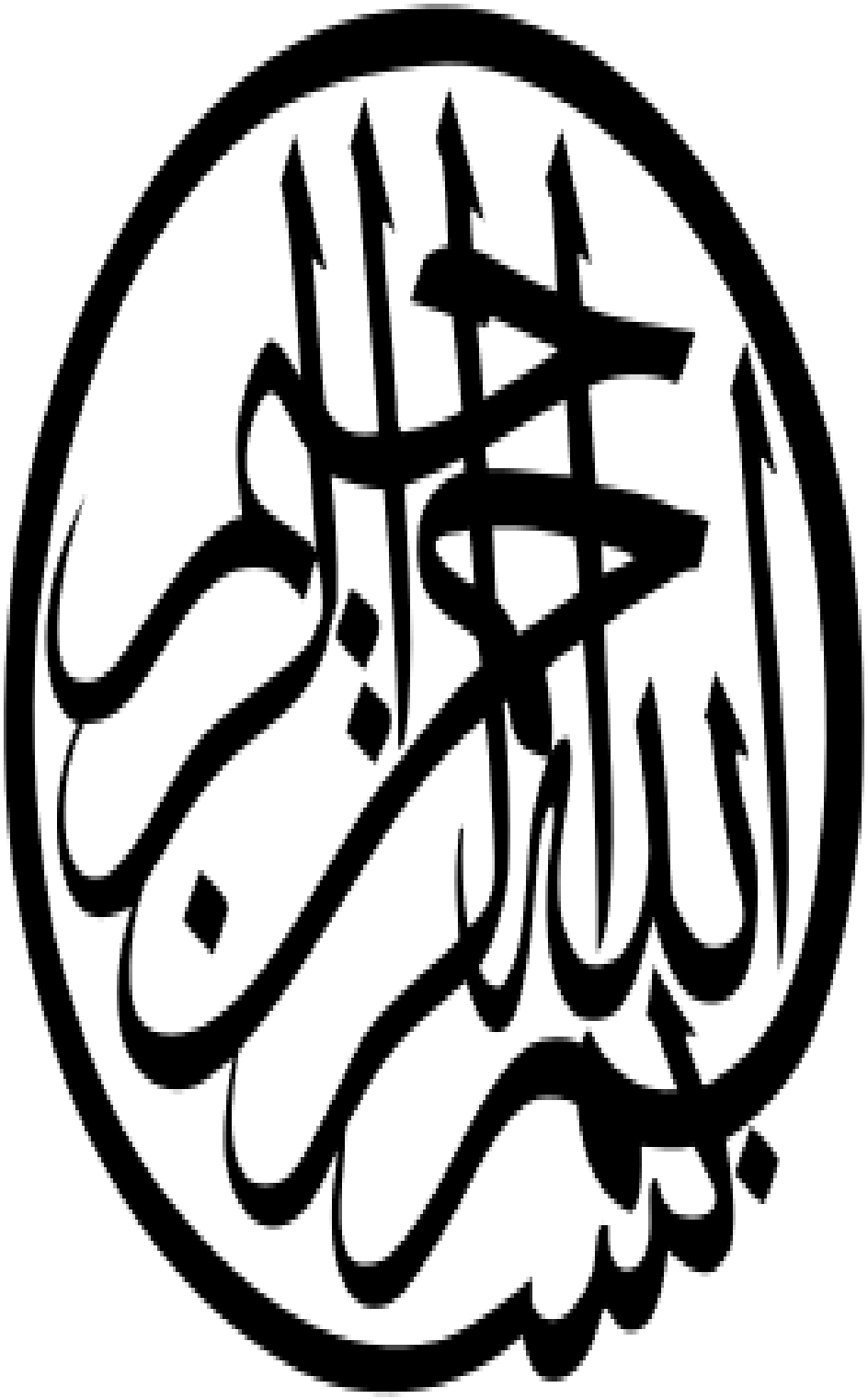
إشراف الدكتور:
عمـــر برداوي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الصفة	الرتبة	الجامعة
سليمة مدلفاف	رئيسا	أستاذ التعليم العالي	علي لونيسي البليدة2
عمر برداوي	مشرفا مقررا	أستاذ محاضر أ	علي لونيسي البليدة2
عمر عاشور	عضوا مناقشا	أستاذ التعليم العالي	المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة
أحمد زعزاع	عضوا مناقشا	أستاذ محاضر أ	على لونيسي البليدة 2
بن عودة دولات سروري	عضوا مناقشا	أستاذ محاضر أ	علي لونيسي البليدة 2
عيسى بكوش	عضوا مناقشا	أستاذ محاضر أ	جامعة الشّلف

السنة الجامعية: 2023-2024م الموافق لـ : 1445-1446هـ

تاريخ المناقشة: 19-02-2024م


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

لا يُزيل عناء رحلة البحث الشّاقة إلا مشرف حكيم،

يهوّن الصّعب ويفتح الآفاق

ويبشّر بتحقيق الأهداف.

د. عمر برداوي يستحق الثّناء والتّكريم والاعتراف بجميل

صنيعه طيلة الرّحلة البحثية الشّائقة.

ولا يفوتني الاعتراف بفضل كلية الآداب واللّغات

ممثّلة في أساتذتها وإداريها الذين

وقفوا إلى جانبنا طيلة مدّة التّكوين.

وإلى رئيسة فرقة التّكوين د بوزيدي نعيمة وكل

الأساتذة الأكارم المشرفين على التّكوين.

إهـــــــداء

إلى ...

ــ والديَّ الكريميْن أمدَّ الله في عمْريْهما

ـ عائلتي الكريمة (زوجتي وابني) رزقهما الله الصّحة والعافية

ـ لجنة التّكوين في الدكتوراه (2020-2021) وطلبة الدفعة

ـ كلّ طالب علم وباحث شغوف

أهدي ثمرة هذا الجهد

الملخص

تبنّتِ الدّراسةُ البحثَ في خطاب الآخر في الشّعر العربي المعاصر، لاستقراء تمثّلات الآخر التي تأثّرت بالانفتاح الذي فرضته الحداثةُ على مختلف مناحي الحياة؛ إذْ هدَمت كثيرا من الحدود، ودعت إلى تجاوز الفلسفات التي عمّرت ردحا من الزّمن؛ فلم تحقّق للإنسانية طموحاتها المنشودة، ومع المدّ الحداثي المتنامي تغيّرَت خارطة الإبداع وأساليبه وأشكاله، وإذِ انْفتحتِ الذّاتُ العربية على عوالم الآخر؛ فإنَّها قد تأثّرت كثيرا بتلك الفلسفات والتّيارات الفكرية الوافدة، فانعكس ذلك على الأدب العربي إبداعا وتنظيرا، رؤيا وتشكيلا، ومن القضايا التي أحدثت جدالا واسعا في الأوساط الإبداعية والنّقدية؛ قضية الآخر وأهمّيته في دفع الذّات إلى إعادة تشكيل ذاتها، أو البحث في تأثيراته الإيجابية أو السّلبية عليها؛ فكرا وإبداعا، ممّا فتح باب الجدل أمام مقاربات متعدّدة تفترق حينا وتلتقي أحيانا أخرى.

وقد ركّزت الدّراسة الموسومة "خطاب الآخر في شعر "أيمن العتّوم" مقاربة تداولية، على البحث في أشكال الآخر وتمثّلاته من خلال الخطاب السّجني في الشّعر العربي المعاصر؛ لإجلاء صورة الآخر التي تقتضيها تجربة الشّاعر، من منظور المقاربة التّداولية للخطاب الأدبي، وقد اشتغلت على أهمّ نظرياتها ذات الجذور البارزة في الدّراسات التراثية العربية؛ ونقصد نظرية القول أو ما يُصطلح عليه بأفعال الكلام للبحث في إنجازيتها وبُعدها التّأثيري في الخطاب الشّعري المُوجَّه إلى الآخر، ونظرية الحجاج التي أخذت أبعادا جديدة أكثرَ اتّساعا وشمولية ممّا كان معروفا في الدّراسات العربية والغربية التي تربط الحجاج بالخطابة؛ إذْ قدّمت التّداولية قراءة جديدة للخطاب من خلال العناية باللّغة وأبنيتها المختلفة في الاستعمال المرتبط بمختلف الظروف والعوامل الخارجية ذات العلاقة بعملية التّخاطب.

إنَّ السّعي لقراءة الخطاب الشّعري تداوليا يستدعي معرفة أحوال المخاطِب والمخاطَب ومكانتهما الاجتماعية، والإحاطة بالسّياقات المختلفة، إضافة إلى ما حدّده منظرو التّداولية من مبادئ هامة في التّخاطب العادي، سعيا لبلوغ مقاصد الخطاب التي تستتِر خلف اللّغة، وانطلاقا من تجربة الشّاعر "أيمن العتّوم" فإنَّ الدّراسة لم تغفل تلك السّياقات المرتبطة بالنّظم (اجتماعية، سياسية، ثقافية) ممّا جعل الخطاب منفتحا على دلالات عديدة، جعلت صورة الآخر تختلف من خطاب إلى آخر؛ بل قد يبرز التّقارب مع الآخر في سياق، ثم لا يلبث أنْ يطفو على السّطح افتراق الأنا عن مخاطَبِها.

أمّا الصّورة النّمطية التي ارتسمت في خلفية الأنا العربي عن الآخر الأجنبي الذي شكّل بسلطته وهيمنته وفلسفته المركزَ فإنّها حافظت على طبيعتها حين تعلّق الخطاب بأمريكا وحليفها اليهودي، فأبان الشّاعر عن رفض هذه المركزية التي تستهدف إلغاء الآخر، لذلك برز في الدّيوان خطاب الرّفض والتّحدي والوعيد، وكشف عن قناعة الأنا الشّاعرة بمشروعها.

ومن مظاهر الانفتاح على فكر الآخر وإيجابياته بما يُحيل إلى علاقة التّفاعل الخلّاق استفادةُ الشّاعر من مظاهر الحداثة الوافدة من الغرب في مجال الإبداع، إذْ تجاوز أشكال الكتابة، فتحرّر من قيود الإبداع الكلاسيكي في الخطاب، ونوّع في الأشكال التّعبيرية بحسب الحالة الشّعورية، وطوّع اللّغة خدمة لمقاصده الخطابية، بل ابتكر أساليبه النّابعة من تجربته الشّعرية في السّجن.

Abstract

The study adopted researching in the appeal of the "Other , "in modern Arab Poetry , in order to infer his/her representations that have been influenced by modernity over various paradigms of life. It denied borders and appealed to overcome the classical philosophies which had largely dominated without illustrating the humanity targets. The spread of modernism has changed the map of creativity over forms and styles The Arab openness towards modernism resulted a great repercussion of these foreign intellectual currents and philosophies. This impacted Arab literature at the level of theory, creativity, vision and structure. The" Other "was one of the issues which had caused wider debate, in critical and creative paradigms, and crucial in reconstructing or impacting personality positively or negatively; creatively or cognitively. This has initiated the debate towards varios approaches, which can agree or disagree .

Appealing the Other, in Aymen Al-Attoom’s poem adopted a pragmatic study and focused on searching in the forms and representations of the other, through the Prison Speech, in modern poetry in order to illustrate his / her image as the poet’s experience necessitated . This was approached from a pragmatic vision, which I have been working on its theories, over classical arab literature that is speech act to probe its achievements and repercussion on literature speech directed to the" Other "in addition to the argumentative theory which has seen further expansion and recovery regarding the arab and western researches that relate argumentation to literature. Pragmatics gave a new study to discourse by giving importance to language and its different structures in use an in various contexts, circumstances and external conditions related to discourse.

In order to read discourse pragmatically, awareness of the speaker interlocuter's conditions and social status are a requisite in addition to the mastery of the different contexts in relevance to what was précised by the pioneers of pragmatics in what concerns ordinary discourse. This helped infer locutionary; illocutionary and perlocutionary meanings starting from Aymen Al-Attoom's experience; the study did not neglect the political, social and cultural contexts related to ideology, which has given discourse different interpretations. This made the Other's image differ from discourse to an other.

The stereotypes drawn in the Arab Ego of the foreigner who formed the center through his /her authority, power and philosophy, it has preserved its nature as long as discourse is related to jewamerican ally.

The poet, therefore, has shown his refusal over this centredness, which targets the denial of the other. That is why the discourse of refusal emerged in the collection in addition to challenge and threat, which unveiled the Ego's conviction.

One of the open mindness features over the other's thought and his / her positiveness, the poet benefit from the features of western modernity, which concerns creativity. He bypassed the writing forms liberating himself of the classical restrictions, of creativity in discourse, and varied the poetry expressing forms. Additionally he invested language to work his discoursive targets but rather innovated his styles stemmed from his experience in prison.

فهرس المحتويات

الموضوع **الصّفحة**

الملخص **5**

فهرس المحتويات **8**

مقدمــة: .....أ

مـدخـــل **11**

1ـ مفهوم الآخر 11

ـ اصطلاحا 11

2ـ العلاقة بين الأنا والآخر 13

2ـ 1ـ علاقة التّصادم (الآخر السلبي)..... 15

2ـ 2 ـ علاقة التفاعل والتّكامل (الوعي بأهمية الآخر)..... 16

3ـ الآخر في الفكر والنقد العربي المعاصر 17

4ـ تأثيرات العلاقة مع الآخر على النقد والإبداع 20

4ـ 1ـ على مستوى الشّكل 22

4ـ 2ـ أثر الآخر في بنية القصيدة العربية المعاصرة..... 24

5ـ تمثلات الآخر في الخطاب الشعري العربي المعاصر 25

5ـ 1ـ الأخر الخارجي 25

5ـ2 ـ الآخر الإنسان 26

5ـ 3 ـ الآخر الدّاخلي..... 27

5ـ 3ـ1ـ الآخر المتسلّط..... 27

5ـ3 ـ 2ـ الآخر المتّحد مع الأنا (خطاب الوعي المشترك) 28

الفصل الأول: تداولية أفعال الكلام في خطاب الآخر في ديوان نبوءات الجائعين 31

1ـ 2 ـ تصوّر "هانسون *HANSON*". 33

1ـ 2ـ 1ـ تداولية الدّرجة الأولى (نظرية الحديث): 33

1ـ 2ـ 2ـ تداولية الدّرجة الثانية (نظرية قوانين الخطاب). 33

1. 2 ـ 3. تداولية الدرجة الثالثة (نظرية أفعال الكلام): 33
3. وظيفة التّداولية 35
4. أفعال الكلام SPEECH ACTS 35
المبحث الأول: تداولية الفعل الإنجازي في خطاب الآخر 38
أولا: الفعل الإنجازي 38
1. الإخباريات LES ASSERTIVES 39
1. 1. الإخباريات في خطاب الآخر (المحبوبة) 40
1. 2 ـ خطاب الآخر (ابن الوطن المستضْعف) 41
2. الأفعال التّعبيرية (التّعبيريات) *LES EXPRESSIVES* 42
2. 1 ـ خطاب الآخر (ابن الوطن) 43
2. 2 ـ الآخر المستضعف 45
3. المُوجّهـات LES DIRECTIVES 47
3. 1. الموجّهات في خطاب الآخر (المحبوبة) 48
3 ـ 2 ـ الآخر المستضعف 49
4 ـ الوعديات (الإلزاميات) COMMISSIVES 52
4 ـ 1 ـ الوعديات في خطاب الآخر (المحبوبة) 52
4 ـ 2 ـ خطاب الآخر (المستضعف) 54
ثانيا: الفعل التّأثيري PERLOCUTIONARY ACT 56
2 ـ 1 ـ الفعل التّأثيري في خطاب الآخر (المحبوبة) 57
2. 2 ـ الفعل التّأثيري في خطاب الآخر (المستضعف) 60
ملخص المبحث الأول 61
المبحث الثّاني: تداولية أفعال الكلام في خطاب الآخر (الحاكم) 63
1. الإخباريات 63
1. 1 الإخباريات في خطاب الحاكم 63

2 ـ 2ـ الإخباريات في خطاب الآخر (النُوّاب) 67
2ـ التّعبيريات في خطاب الآخر 68
2 ـ 1ـ الحاكم 68
2 ـ2ـ النّواب 71
3ـ الموجّهات في خطاب الآخر الحاكم 74
3 ـ1ـ الأمر : 74
3ـ 2ـ الاستفهام 76
4ـ الوعديات في خطاب الآخر الحاكم 77
ثانيا: الفعل التّأثيري 81
2ـ1ـ خطاب الآخر الحاكم 81
2 ـ 2ـ الفعل التّأثيري في خطاب الآخر (النّائب) 85
ملخص المبحث الثّاني 87
المبحث الثّالث: تداولية أفعال الكلام في خطاب الآخر (الأجنبي). 88
أولا: الأفعال الإنجازية 88
1ـ الإخباريات في خطاب الآخر الأجنبي 88
1ـ 1 ـ أمريكا 88
1ـ 2ـ الإخباريّات في خطاب الآخر الاجنبي اليهود 91
2ـ التّعبيريات في خطاب الآخر الأجنبي 92
2 ـ 1 أمريكا 92
2 ـ 2 اليهود 94
3 ـ التّوجيهيات في خطاب الآخر الأجنبي 97
3 ـ 1 ـ أمريكا 97
3 ـ 2 ـ اليهود 99
4ـ الالتزاميات في خطاب الآخر الأجنبي 101

ثانيا ـ الفعل التّأثيري في خطاب الآخر الأجنبي.....107
2 ـ 1 ـ أمريكا 107
2 ـ 2 ـ اليهود 109
ملخص المبحث.....111
ملخص الفصل الأول.....113
الفصل الثاني: الجهاز الحجاجي في خطاب الآخر (حجاجية الصّورة البلاغية)..... 117
1ـ مفهوم الحجاج 117
2حجاجية الصّورة البلاغية.....119
المبحث الأول: حجاجية الصّورة الاستعارية في خطاب الآخر..... 120
1ـ الاستعارة 120
1ـ 1 ـ حجاجية الاستعارة في خطاب الآخر المستبد (ابن الوطن) 121
1ـ 2 ـ حجاجية الاستعارة في خطاب الآخر المستضْعف (العربي) 128
1ـ 3 ـ حجاجية الاستعارة في خطاب الآخر المختلف (الأجنبي) 134
ملخص المبحث.....138
المبحث الثّاني: حجاجية الكناية في خطاب الآخر في ديوان نبوءات الجائعين..... 140
1ـ مفهوم الكناية.....140
2 ـ حجاجية الكناية:.....140
2ـ 1 ـ حجاجية الكناية في خطاب الآخر (ابن الوطن) 142
2ـ 2 ـ حجاجية الكناية في خطاب الآخر (العربي المُستضعف).....151
2ـ3 ـ حجاجية الكناية في خطاب الآخر المختلف (المستبد) 158
ملخص المبحث.....167
المبحث الثالث: حجاجية التّشبيه في خطاب الآخر في ديوان "نبوءات الجائعين" 170
1ـ حجاجية التّشبيه 171
1ـ 1 ـ حجاجية التّشبيه في خطاب الآخر بن الوطن 172
3ـ 2 ـ حجاجية التّشبيه في خطاب الآخر المختلف (الحاكم العربي) 180

3ـ 3 ـ حجاجية التشبيه في خطاب الآخر المختلف (الأجنبي) 189

ملخص المبحث.....193

ملخص الفصل الثاني 194

الفصل الثّالث: حجاجية الأساليب في خطاب الآخر في ديوان نبوءات الجائعين 196

المبحث الأول حجاجية الأساليب الخبرية في خطاب الآخر 196

1ـ الخبر 196

2ـ حجاجية الخبر 198

3ـ حجاجية الخبر في خطاب الآخر 199

3ـ 1ـ خطاب الآخر ابن الوطن 199

3 . 1ـ 1ـ فاعلية النّفي والإثبات في الإقناع.....206

3 ـ 2ـ جاجية الخبر في خطاب الآخر الحاكم 209

3 ـ 3 ـ حجاجية الأساليب الخبرية في خطاب الآخر المختلف الأجنبي.....214

ملخص المبحث الأول.....219

المبحث الثّاني:الأبعاد التّداولية والحجاجية للأسلوب الإنشائي في خطاب الآخر..... 221

1ـ الإنشاء 221

2ـ حجاجية الإنشاء في خطاب الآخر (المتّفق معه) 222

2ـ1 الأمر:.....222

2ـ 2 ـ حجاجية الاستفهام 230

3ـ حجاجية الإنشاء في خطاب الآخر الحاكم 235

3 ـ1ـ خطاب الرّفض والمساءلة 235

3ـ1 ـ 1ـ الاستفهام:.....235

3ـ1ـ 2 ـ الأمر 237

3ـ 1ـ 3ـ النّداء.....239

3 ـ 2 ـ نداء الآخر وخطاب التّهكّم 241

4. حجاجية الأساليب الإنشائية في خطاب الآخر المختلف(الأجنبي)..... 242

4. 1. النّداء.....242

4. 2 . الاستفهام.....245

ملخص المبحث الثاني.....247

المبحث الثالث: حجاجية المفارقة في خطاب الآخر 250

1 . المفارقة.....250

2 . المفارقة في خطاب الآخر..... 251

2. 1. خطاب الآخر (ابن الوطن).....251

2. 1. 1. المفارقة اللّفظية: VERBAL IRONY:.....252

2. 1. 1. 1. التضاد 252

2. 1. 1. 2. مفارقة التّهكم 255

2. 1 . 2. المفارقة السياقية (مفارقة الموقف) *SITUATION IRONY*.....257

2. 1. 2. 1. مفارقة التّحوّل: 257

2 . 1 . 2 . 2. المفارقة الدّراميّة 262

2. 2 . حجاجية المفارقة في خطاب الآخر الحاكم.....263

2. 3 . حجاجية المفارقة في خطاب الآخر المختلف (الأجنبي) 266

2. 3 .1. المفارقة اللّفظيّة.....266

2. 3 . 2 . المفارقة السّياقية (الموقفية) 267

ملخص المبحث الثالث 273

ملخص الفصل الثالث 276

خاتمة 280

قائمة المصادر والمراجع..... 286

ـ أولا: المصادر 286

أ . الدواووين 286

ب . الكتب.....286

ثانيا: المراجع 287

2ـ المراجع العربية.....287

أـ الكتب 287

ب ـ الأطروحات والرسائل الأكاديمية.....290

ج ـ المجلات والمقالات.....290

د ـ المعاجم 293

هـ ـ المنصّات والمواقع الإلكترونية 293

2 ـ المراجع الأجنبية المترجمة.....294

تم بحمد الله 295

مقدمة

مقدمـــة:

تثير قضية الآخر إشكالية كبيرة في الدّراسات الأدبية والنّقدية؛ نظرا لصعوبة تحديد مفهوم الآخر وماهيّته، لأنّ مفهومه يسمح بالاختلاف والتّنوّع، وإذا كان السّعي حثيثا لإعادة قراءة الآخر سعيا لرأب الصّدع الذي حدث بين شعوب العالم بفعل صراع الأنا مع الآخر، فإنّ بعض الإيديولوجيات تقف حائلا أمام تقليص الفجوة بين الشّرق والغرب.

لقد أثّر الاستشراق على زاوية النّظر إلى الآخر، لأنه تفكير يقوم على مركزية الأنا (الغرب) التي تقدّم الآخر لنفسها بالصّورة التي ترضاها لنفسها، وفي المقابل تُقدِّمَه إلى نفسه بالشّكل الذي تراه مناسبا له، وقد تجلّت هذه النّظرة كثيرا في الحركة الاستعمارية للبلاد العربية، ثم راحت تروِّجها داخليا وخارجيا تقويضا لحركات التّحرّر، فادَّعت أنَّ الآخر (العرب) بحاجة إلى تحضّر وتطوّر، ممّا جعل أُحادية الآخر معيارا للحكم على الآخرين، فطفحت على السّطح مركزيتُه التي تُهمِّش غيرها.

بعد نجاح الحركات التّحرّريّة التي أعادت للأمة حرّيتها ووجودها الفعلي الذي أنكرَه الآخر المستعمر، سعت إلى إعادة تشكيل ذاتها وإيجاد موقع لها بين الأمم، ولعلّه من المنطق أن يبدأ ذلك بمراجعة الذّات في علاقتها مع الآخر، والإطلالة عليه من جديد كما حدث في تاريخ السّلف أيام النّهضة العبّاسية، إذْ بدأ ذلك بإعادة قراءة موروثها قراءة واعية بالنّقد والتّحليل والحوار والمساءلة، ثم الانفتاح على الآخر ومنجزاته، وبالسّعي الجاد إلى إحداث التّوازن والتّناغم بين خصوصيات الأنا ومنجزات الآخر وثقافته وتفكيره العلمي، بلغت الأمة مجدها وفرضت وجودَها.

وأمام هذا الوضع الذي يعيد نفسه برز إلى السّطح تياران أحدُهما انْساقَ وراء حركة التغريب، وأسلمَ روحه لها، فقبِلَ أنْ يجرفَه تيارُها بحجة مواكبة الآخر لبلوغ ما بلغ، فألْغى خصوصية الأنا، وذاب في ثقافة الآخر وفكْرِه مُتنكّرا لأصوله وثقافته العريقة.

بينما بحث التّيار المعتدل عن التّوازن بين الأنا والآخر، والنّظر بعين العقل إلى ما تفترضه العلاقات الإنسانية والمصالح المشتركة في الوجود المعاصر، بما لا يلغي خصوصية الأنا ولا يضيِّع مصالحها، لكنّ عوائقَ كثيرةً كانت تقف أمام هذا التّيار؛ بعضُها يرجع إلى الخلفية التي تحملها الأنا عن الآخر (العدو)، فتشكّلُ جدارَ صدٍّ أوّلي يقف أمام نجاح هذا المشروع، وبعضها يرجع إلى عدم القدرة على مكاشفة الذات بحقيقتها، فغاب الحوار الدّاخلي الذي يصحح التّفكير السّائد.

ومقابل ذلك برزت عند الآخر تيارات متشدّدة تنادي بالتّصادم مع الآخر (المسلم) فراحت تروّج لصراع الحضارات، وتدعو إلى إلغاء كل القيم التي تؤلّف بين البشر، فطفحت إلى السّطح المركزية الغربية التي تحذّر من الخطر الذي يتهدّدها بسبب الفوبيا من الإسلام، وأمام هذا المدّ المتنامي لهذه الحركات المتعصّبة؛ التي أثّرت سلبا على التّعامل مع الآخر (العربي المسلم)، فأَفشلت محاولات التّقارب معه، سعَت الأمّة للحفاظ على كيانها واتّزانها في التّعامل بعقلانية (ما بعد هجومات 11 سبتمبر 2011) لتثبيت معالمها في ظلّ هذا التّحول من سياسة القهر والاستعباد الذي فرضه الآخر بالقوة إلى ثورة العولمة والتكنولوجيا؛ التي تمدّ خيوطها لاحتواء الآخر وامتلاكه.

إنّ هذا الوضع العالمي الذي يكشف عن تمسك الآخر (الغرب) بمركزيته وتهميش الآخر والسّعي إلى إلغاء وجوده، يدفع الأمة إلى أن تبحث عن نفسها وموقعها بالانطلاق من جديد في مشروع حضاري بديل بعيدٍ عن السّلبية والاستسلام لمجابهة تغوّل الآخر وشيطَنَته، إذْ يتطلّب ذلك مواجهة التّحديات التي يفرضها الآخر وتقليص فجوة التّباعد التي تفرضها الأوضاع السّياسية أو الاقتصادية من جهة، والفكرية الثّقافية والعقدية من جهة أخرى، كما يتطلّب هذا المشروع شروعا في حوار جاد مع الذّات لإيجاد اللّحمة الغائبة لتكوين مصدٍّ قوي يؤهِّل للتّحاور المتكافئ في إطار المبادئ والقيم وتبادل المصالح دون مغالبة أو سعيٍ إلى إلغاء الآخر.

لقد تحكّمت النّظرة التي تولّدت بفعل العداء مع الغرب الاستعماري في توجيه الخطاب العربي ردحا من الزّمن، وتحكّمت في تحديد مفهوم الآخر باعتباره الأجنبي المعادي للذّات العربية، وإذْ تميّز الخطاب العام والخطاب الشّعري خصوصا بالتركيز على الفجوة التي أحدثها هذا الآخر في رابطة العلاقات الإنسانية، فقد كان التّوجّه إلى المعاداة والرّفض؛ خاصّة وأنَّ حضور الآخر (الصهيوني اليهودي) على مسرح الصراع العربي الإسرائيلي مستمرّ إلى اليوم، قد رسّخ هذا المفهوم فكان عائقا أمام مشروع التّقارب بين الأنا والآخر.

غيرَ أنَّ تجدّد الدّعوات العربية الواعية بأهمية الآخر إلى تجاوز النّظرة القاصرة لطبيعة العلاقة مع الآخر سعيا لتحقيق التّوزان المفقود، وكسب رهانات العصر وتحدّياته، قد أسهمت في انفتاح العقل العربي على ذاته، فجاءت الدعوة إلى المصالحة مع الذّات العربية لإلغاء الحدود وتجاوز الخلافات الضّيقة؛ التي تقسم الأنا إلى أنا وآخر مفترقيْن، فأخذ مفهوم الآخر في الاتّساع وتعدّدت دلالاته، فغدا على أشكال متعدّدة، انقسمت الذّات داخل الوطن الواحد إلى أنا وآخر بفعل اختلاف التّوجهات الفكرية أو اللّغوية...وغيرهما، انقساما لا يدعو إلى التّصادم بقدر ما يعين على فهم الذّات.

إنَّ هذا الانتقال في مفهوم الآخر فتح مجال الخطاب على مصراعيه، فتعدّدت القضايا والموضوعات، واختلفت الفلسفات تقاربا أو تباعدا، فأنارت الفكر وفتحت باب المثاقفة، ومقارنة الأنا بالآخر سعيا لبلوغ ما بلغ، فكان ذلك عاملا موضوعيا دفعنا إلى البحث في خطاب الآخر.

وعطفا على ما سبق اخترنا مدوّنة واحدة للشّاعر الأردني "**أيمن العتّوم**"، ونقصد ديوانه "**نبوءات الجائعين**" وهو عبارة عن قصائد كُتِبت في السّجون الأردنية؛ إذْ تمَّ ترتيبها بحسب تاريخ نظمها؛ فكانت أوّلُ قصيدة منظومة بتاريخ 09-09-1996م، وآخرها في 07-03-1997م، وتعود علّة الاختيار إلى الرّغبة في استجلاء طبيعة الخطاب السّجني المعاصر، واختبار مدى قدرته على تناول قضايا

الأنا بنوْعيْها (الشخصي، الجمعي) في علاقتها مع الآخر على اختلاف تمثلاته، ومن هنا تولّدت فكرة البحث الموسوم: **خطاب الآخر في شعر أيمن العتّوم مقاربة تداولية**، إذْ يطرح البحث إشكالية كبرى مفادُها:

ـ ما أشكال خطاب الآخر وتمثّلاته في الخطاب الشّعري العربي المعاصر من خلال تجربة "أيمن العتّوم" الشّعرية؟

ولعلَ هذا الإشكال يتضمّن بدوره جملة من التّساؤلات التي يمكنها أنْ تُعين على إجلاء صورة الآخر وطبيعة العلاقة معه، من خلال تحديد طبيعة الدّراسة ودائرتها ومنهجها، ومنها:

ـ هل انفتح الخطاب الشّعري العربي على الآخر؟ وما طبيعة الخطاب الموجَّه للآخر؟

ـ ما الرؤيا التي يحملها هذا الخطاب المعاصر، وما وسائل التّشكيل التي تميّزه؟

ـ هل يمكن للمقاربة التّداولية الكشف عن مكنونات هذا الخطاب، وتقديم قراءة متكاملة للخطاب الشّعري الموجَّه للآخر؟

وإذا كان الخطاب الشّعري المعاصر متفرّدا بتجربته الفذّة وخصوصية تشكيله وانفتاحه على المدارس الإبداعية المختلفة؛ فإنَّ الدّراسات المتقدّمة على الصّعيد اللّساني كانت مدعاةً للبحث، خاصّة مع حداثة الدّرس الحجاجي في العالم العربي في ضوء المقاربات الجديدة الوافدة؛ التي تدعو إلى إعادة بعث البلاغة العربية وتحديثها، ونقصد بذلك ما اصطُلح عليه بـ "البلاغة الجديدة"، لذلك سعت الدّراسة إلى الاستفادة من نظريات الحجاج والتّداولية تحقيقا لِبُعدَيْن: أحدُهما إجلاء صورة الآخر المختلفة، ويسعى البعد الآخر للكشف عن الآليات الحجاجية التي تُعين على تحقيق البُعد التّداولي للخطاب في هذا الباب.

وقد اقتضت طبيعة الدّراسة أنْ ينهض البحث بثلاثة فصول يمَهِّدُ لها بمدخل يتناول المفاهيم المتعلّقة بالآخر وعلاقته بالأنا تصادما أو تفاعلا، ثم بيان تأثيرات هذه العلاقة على الإبداع والنّقد العربييْن؛ من حيث شكل الإبداع أو مضمونه.

وقد تناول الفصل الأول الموسوم "**الأفعال الكلامية في خطاب الآخر**" تمهيدا للتّعريف بالتّداولية ودرجاتها (نظرية الحديث، قوانين الخطاب، الأفعال الكلامية)، إذْ تمَّ التّركيز على تداولية الدّرجة الثّالثة للبحث في إنجازية الأفعال الكلامية في خطاب الآخر، وقد رأيْنا تقسيم الفصل إلى مباحث ثلاثة بحسب طبيعة المخاطَب (ابن الوطن، الحاكم، الأجنبي) على غرار باقي الفصول، وفي كلِّ مبحث تتمّ دراسة أهمّ الأفعال الكلامية البارزة في خطاب الشّاعر بحسب تقسيمات "**سيرل**" وَ "**أُستين**"، فجاءت الإخباريات في المقام الأول لإجلاء الحقيقة وإبراز الأحكام التي تعين على فهم الأبعاد الإنجازية لباقي الأفعال الكلامية، ثم تليها الأفعال التّعبيرية لكونها تكشف الحالة النّفسية بعد إثبات الوقائع، ليفسح المجال لدراسة الإلزاميات التي تدفع الآخر إلى تنفيذ توجيهات المخاطِب، وأخيرا دراسة الوعديات التي تحمل التزامات المخاطِب ووعوده أو توعُّده لمخاطَبه بالإنجاز المناسب بحسب الموضوع والمقام، ثم البحث في الفعل التّأثيري الذي يبرز بعض مقاصد الخطاب، انطلاقا من ملفوظات القول في إطار سياقاتها.

ونهض الفصل الثّاني المعنون "**الجهاز الحجاجي في خطاب الآخر. حجاجية الصّورة البلاغية**" بتناول نظرية الحجاج وتطوّرها بالتّركيز على الدّراسات المعاصرة في محاولة لمقاربة خطاب الشّاعر للآخر من هذا المنظور؛ سعيا لتقديم مقاربة جديدة للصّورة البلاغية باعتبارها أحد أهمّ مكونات الخطاب الشّعري العربي منذ القديم، واستقراء أبعادها التّداولية، فتناول المبحث الأول حجاجية التّركيب الاستعاري، باعتبار حضور الاستعارة اللّافت في الخطاب، إضافة إلى قيمتها الحجاجية القائمة على

القياس بين المستعار منه والمستعار له، إذْ تبرز السّلالم الحجاجية بوضوح في الخطاب وفق استراتيجيات محدّدة لبلوغ مقاصد الحجاج، وقد تم تقسيم المباحث باعتبار تمثلات الآخر.

بينما خُصِّص المبحث الثّاني لدراسة التّركيب الكنائي في خطاب الآخر، إذْ اتّكأ الخطاب الشّعري على استخدام الكناية لقدرتها على حمْل الدّلالة المتضمَّنَة في القول بمراعاة السّياق إلى جانب حملها للدّلالة الواقعية المباشرة؛ التي يتطابق فيها اللّفظ والمعنى، وهو ما يعطي الخطاب بعدا حجاجيا يستدعي حضور الذّهن لاستلزام الدّلالات، ونظرا لحاجة المخاطِب إلى الانزياح في كثير من المناسبات فقد كان للكناية حضورَها الفاعل في التّلميح عن المخاطَب أو أفعاله، واستجابة لبعض مبادئ الخطاب (التّأدّب) من جهة أخرى.

أمّا المبحث الأخير فخُصِّصَ لدراسة البعد الحجاجي للتّشبيه، وقد أُخِّرَ إلى هذا الموضع لِقلّة الاتّكاء على الصّورة التّشبيهية في خطاب الآخر، ولتميّز الخطاب الاستعاري والكنائي بالقوّة الحجاجية مقارنة بالتّشبيه؛ نظرا لسهولة القياس بين المشبّه والمشبّه به، إذْ تضعف القوّة كلما كان وجه الشّبه ظاهرا أو معلوما، وقسِّم المبحث بحسب تمثلات المخاطب إلى ثلاثة أقسام (ابن الوطن، الحاكم، الأجنبي).

وجاء الفصل الثّالث تحت عنوان "**حجاجية الأساليب في خطاب الآخر**" وهو امتداد للبحث في الجهاز الحجاجي، يتناول أهم الأساليب التي برزَ استخدامُها كآليات خطابية قادرة على أداء رسالة المخاطِب بحجاجية مناسبة لكل موضوع، فتنوّعت استراتيجياتها بحسب ذلك، وعليه تناول الفصل في مباحثه الثلاثة على التّرتيب؛ حجاجية الأسلوب الخبري بنمطيه (الإثبات، النّفي) من خلال استقراء البعد التّداولي للخبر، واعتمادا على ما يتوفّر عليه من قوة حجاجية؛ تُراعي حالة المخاطَب، لذلك تنوّع ضرب الخبر في القصيدة الواحدة، وبحسب طبيعة المخاطَب.

وأُردِف المبحث بدراسة الأسلوب الإنشائي الطّلبي نظرا لحجاجيته الطافحة؛ التي تدفع المتلقي والمخاطَب إلى التّعلّق بالخطاب بحثا عن معنى المعنى من خلال تجاوز ملفوظات القول لمطابقةِ اللّفظِ للمعنى، إذْ تمَّ انتقاء أكثر الصّيغ الطّلبية حضورا في خطاب الشّاعر للآخر، وأكثرها قدرة على حمل رسالة المخاطِب، وما يُلفت الانتباه في "ديوان "**نبوءات الجائعين**" هو استخدام أسلوب المفارقة، لذلك اضطلع المبحث الثّالث بدراسة الأبعاد الحجاجية لهذا الأسلوب بمختلف أنماطه (المفارقة اللّفظية، المقامية) لكونها أهمّ الأساليب قدرة على تجسيد المفارقات التي تعيشها الأنا المسجونة، ومن خلالها كلّ مستضعَفٍ أو مطالبٍ بحقوقه في صراعه مع الآخر، فوقع التّركيز على مفارقة التّهكّم والسّخرية التي تعبّر عن مقاصد المخاطِب في كثير من المقامات التّخاطبية، أمّا مفارقة الموقف فهي تجسّد التّحول أو التّحول الدّرامي في المواقف وتباينها في إطار السّياق النّصي الواحد، لِتُبين عن الفجوة الاجتماعية والإنسانية بين الأنا والآخر.

يذُكر أنَّه تمَّ تذييل كلَّ مبحث من كلِّ فصلٍ بملخص لما تمَّ تناوله، ثم تذييَل كلُّ فصل بحصر النّقاط التي تمت معالجتها باحترام ترتيبها في المتن، وفي الخاتمة حصرنا أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث من خلال مقاربة خطاب الآخر تداوليا، ويليها ثبت المصادر والمراجع التي لها وثاقة الصّلة بموضوع البحث.

تجدر الإشارة إلى ضرورة التّنويه بالدّراسات التي تناولت موضوع الآخر بالبحث والتحليل، فكانت لنا دليلا في رحلة البحث، ومنها على سبيل الحصر دراسة "**فوزي عيسى**" التي تحمل عنوان "**صورة الآخر في الشّعر العربي**" التي تناول فيها موضوع الآخر، فتتبّع مسار العلاقة مع الآخر (المختلف) التي تعود إلى ما قبل الإسلام في اتّصال العرب بالفرس والرّوم من خلال قبائل الغساسنة والمناذرة، وتجسيد هذه العلاقة في الشعر العربي مرورا بالعصر الأموي ثم العباسي إلى غاية العصر الحديث؛ حيث سعى إلى إستجلاء صورة الآخر في الشعر العربي من خلال بعض الشّعراء الذين سمحت لهم

ظروفهم وثقافتهم ورحلاتهم بالاتّصال المباشر بالآخر، فبرزت مواقفهم قبولا وتسامحا، أو رفضا ونفيا، ونقصد بذلك " أحمد **شوقي**" وَ "**عمر أبي رشة**" وَ "**إبراهيم العريض**" ليختمها بإبراز صورة الآخر في القصيدة العربية المعاصرة، وإثبات موقف الرّفض بسبب اغتصاب الآخر للأرض.

أمّا الدّراسة الثّانية لـ "**عبد الله التطّاوي**" التي تحمل عنوان " **حضور الآخر في ذاكرة الشّاعر العربي**" فإنّها لم تختلف عن الدّراسة الأولى، فقد تناولت العلاقة مع الآخر؛ تحاورا واحتراما، أو ثورة ورفضا، فقد عرّج فيها على حضور الآخر من منظور ديني، أخلاقي، قيمي، أو بسبب التّحوّلات السّياسية، فبيّن موقف الشّاعر العربي من الآخر، غير أنّه التفتَ إلى قضيّة الثراء الثّقافي للآخر (العربي، الغربي) وتأثيره في فكر الشّاعر العربي المعاصر وفي ذاكرته الإبداعية؛ سعيا لتحقيق عالمية الأدب من خلال التّحاور الجاد والفاعل بعيدا عن الاعتزاز المطلق بالأدب العربي، وقد مثّل لذلك بالشّاعر "**صلاح عبد الصّبور**" والشّاعر "**أمل دنقل**"، فبيّن تأثّرهما بالآخر في إبداعاتهما وتفكيرهما، فقدّم عيّنات من أعمالهما الشّعرية؛ تثبت التّفاعل بين الأنا والآخر، وهو ما أسهم في تشكيل تجارب الشّاعر المعاصر الذي تفاعل مع ثقافة الآخر وإبداعه، فصار النّص الشّعري المعاصر يحمل طابع المثاقفة والتّفاعل في تناغم شديد يجسّد التّجربة الشّعورية المعاصرة.

وإذْ نُقِرُّ باستفادتنا من هذه الدّراسات التي لم تتّخذ منهجا صريحا للإجابة عن إشكالياتها، وغيرها من المقالات الأكاديمية المحكمة التي مالَ أغلبُها إلى البحث عن تجليات الآخر في الأعمال الأدبية، فإنّه في مجال تطبيق المناهج على هذه الدّراسات وجدْنا المحاولات الجّادة مقتصرة على جوانبَ محدّدة؛ سواء تعلّق الأمر بزاوية الدّراسة أو آلية البحث المتّبعة، لذلك سعتْ دراستنا إلى العناية بتطبيق مختلف آليات المقاربة التّداولية على نماذج متعدّدة من قصائد ديوان "نبوءات الجائعين"، وهو ما جعلنا نواجه جملة من الصّعوبات المتمثّلة في تداخل الخطابات بين القصائد، أو داخل القصيدة الواحدة.

وإذا كانت البنيات النّصية تتحرك في نسق أفقي وآخر عمودي؛ فإنَّ عزلَ بعض التّراكيب عن بعضها يُضيّق مجال الاستلزام الحواري، فإنّنا حاولنا تجاوز هذا الأمر بالحفاظ على انسجام الخطاب قدر المستطاع، خاصة حين يتعلّق الأمر بالخطاب الواحد، فاتّجهنا إلى توظيف بعض النماذج التي لا تتناسب مع ظاهر بعض العناوين، لتكون حلولا سياقية مُعينة على استنباط الأبعاد التّداولية للخطاب، ودليلنا في ذلك دراسة اللّغة في الاستعمال بمراعاة مختلف السّياقات، كما أنَّ وفرةَ المراجع الغربية والعربية وتعدّد الرؤى التّنظيرية، وتداخل المصطلحات في ظلَّ الثّراء اللّغوي للّغة العربية في ميدان المقاربة التّداولية تحوَّل إلى عامل ضغط أثناء مقاربة الخطاب في ظل التّقيد بموضوع خطاب الآخر.

إنّنا لا ندّعي بلوغ الدّراسة للكمال في جميع جوانبها، لكنّنا حرصنا على تقديم بعض التّكامل المنهجي لإجلاء صورة الآخر وتمثّلاته في إطار المنهج التّداولي بالتّركيز على نظرية أفعال الكلام ونظرية الحجاج على وجه الخصوص، وقد قَصَرْنا البحث على أدب السّجن سعيا لأنْ يكون دليلا للباحثين لتناول الخطاب السّجني المعاصر من زوايا أخرى كاستجلاء تشكيلات الخطاب وآلياته الحجاجية في خطاب الآخر، أو مقاربة ذلك الخطاب موضوعاتيا لإبراز الرؤيا والتّشكيل.

وفي الأخير فإنَّ الإقرار بأهل الفضل فضيلة، والاعتراف بجميل الآخرين يدخل في صميم أهداف البحث الذي يكشف عن علاقات التّفاعل وإيجابياتها في بعض المناسبات، إذْ نستغل هذه المقام لنتقدّم بجزيل الشّكر وعبارات الامتنان للأستاذ المشرف الذي كان دليل رحلتنا البحثية، وحاديها الفصيح اللّبق وقائدها الحكيم بتوجيهاته القيّمة.

مدخـــل

في ماهية الآخر

مـدخـــل

1ـ مفهوم الآخر

إنَّ (الآخر) في لسان العرب يعني «أحد الشيئين وهو اسم على أفْعَلَ(...) والآخر بمعنى غير، كقولك: رجل آخر، وثوب آخرُ، وأصله أفْعَلُ من التّأخُّر، فلمّا اجتمعت همزتان في حرف واحد استثْقِلتا، فأُبدِلت الثانية ألفا لسكونها وانفتاح الأولى قبلها»[1]، ورد في قاموس محيط المحيط «إنَّ مدلول الآخر في اللّغة خاص بجنس ما تقدمه، فلو قلت جاءني رجل وآخر معه، لم يكن الآخر إلا من جنس ما قلته»[2]، وعليه فإنّ مفهوم الآخر يستدعي معرفة المتقدِم عنه في محاولة إدراك حقيقته.

ـ اصطلاحا

تختلف المفاهيم حول مصطلح الآخر لتعدد دلالاته مِنْ جهة واختلاف مذاهب المفكرين والفلاسفة ونظرياتهم ومرجعياتها الفكرية من جهة أخرى، فالآخر يُعدُّ «صفة لكل ما هو غير (أنا) وإذْ ذاك يشمل مفهومها كلّ ما هو غير (أنا) سواء الأشخاص الآخرين أو الأشياء، لكنّ فِكرة (الآخر) بمعنى غير (الأنا) مقولة ابستيمولوجية مُلخّصُها الإقرار بوجود موجودات خارج الذّات العارفة؛ أيْ كينونات موضوعية»[3]، ويعتبر "**جان بول سارتر**" (الآخر) «إنّه الذي لا تستغني عنه الأنا»[4]، ذلك أنّه يُعدُّ عنصرا محوريا لوجود الأنا، ومرآة لها ترى نفسها من خلاله، فتقوّم ذاتها وتدرك قيمتها، وتبحث عن إثبات الوجود الذّاتي من

---

[1] ابن منظور محمد بن مكرم، لسان العرب المحيط، مج1، د ط، بيروت، دار الجيل، دار لسان العرب، 1988، ص 29.

[2] بطرس البستاني، محيط المحيط، قاموس عصري مطول للغة العربية، ج1، باب الهمزة، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 172.

[3] رشيد مسعود، الموسوعة الفلسفية العربية، م1 (الاصطلاحات والمفاهيم)، ط1، بيروت، معهد الإنماء العربي، 1986م، ص13.

[4] سعيد عادل بهناس، الأنا والآخر من الذات إلى التفاعل والحوار، جامعة زيان عاشور الجلفة، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، مج06، ع02، 2013/12/15، ص 317.

خلاله، أمّا عند العرب فيعرفه "**جميل صليبا**" (1902–1976) بقوله: «فكل ما كان موجودا خارج الذّات المُدركة أو مستقلا عنها كان غيرها، ونحن نطلق على الشيء الموجود خارج الأنا اسم اللاأنا أو الآخر، فالأنا إذن هو الذّات المُفكِّرة والموضوع الخارجي هو الآخر»[1]، إنَّ هذا التعريف يقودنا إلى أمرين مهمين، أمّا أحدهما فهو وجود ما يقابل (الآخر) ونعني بذلك الذّات (الأنا) التي يُفترَضُ وجودُها حتى يتحقق وجودُ الآخر، وهو ما يدعونا إلى التوقف لإبراز ماهية الأنا، فمن المنظور النّفسي عند "**سيغموند فرويد**" "**Sigmund Freud**" يقوم الأنا « بمهمّة حفظ الذّات، وهو يقبض على زمام الرّغبات الغريزية التي تنبعث من الهُو، فيسمح بإشباع ما يشاء منها، ويكبت ما يرى ضرورة كبته، مراعيا في ذلك مبدأ الواقع Reality principle، ويمثّل الأنا الحكمة وسلامة العقل»[2]، أمّا "**حسن حنفي**"(1935م) فيرى أنَّ: «لفظ الأنا يعادل لفظ الذّات، ولقد ظهر اللّفظ على التبادل في تاريخ الفكر الفلسفي، فلسفة الأنا هي فلسفة الذّاتية...ويطلق لفظ الأنا في مقابل الآخر، كما يُطلق لفظ الذّات في مقابل الموضوع»[3]، وعليه فوجود الأنا يجعل الآخر موضوعا خارجيا يصبح محلَّ مقارنة ومفارقة واختلاف.

وأمّا الأمر الثاني فإنَّ قضية الآخر من النّاحية الوجودية يطرح قضية الآخرية؛ إذْ إنّه «مَنْ ليس أنا فهو آخر بالنّسبة إليَّ، وتتوسع دائرة الآخرية لتشمل كل ما يميز هذا الآخر عنّي من مأكل وملبس ومشرب وأنماط فكرية وثقافية مادية وروحية ورمزية»[4]، وعليه تتعدد صور الآخر حسب المعايير التي تحكمُ ماهيته من حيث النوع (الجنس: ذكر، أنثى) الانتماء الديني (مسلم، مسيحي، يهودي...) العرق

---

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، د ط، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ج2، باب الغين، 1982م، ص131.

[2] سيغموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثماني نجاتي، ط4، بيروت، دار الشروق، 1982، ص 16.

[3] حسن حنفي، حصار الزّمن الحاضر (إشكالات)، ط1، القاهرة، مركز الكتاب للنشر، 2004م، ص 443.

[4] المبروك الشيباني المنصوري، صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا، ط1، بيروت، مركز نماء للبحوث والدّراسات، 2014م، ص 13.

(عربي، أعجمي...) اللّون والانتماء الجغرافي، الطبيعة الفكرية (وجودي، مادي، علماني، اشتراكي....) وغير ذلك.

وبالنظر إلى الأمرين معا فإنَّ كل (أنا) في نظر الغير هي (آخر) وقد رأى "**تيزفيتان تودوروف**Tzvetan Todorov " ذلك حيث يقول: «إنَّ الآخرين أيضا أَنوات: إنّهم ذواتٌ، شأنهم في ذلك شأني؛ لا تفصلهم ولا تميِّزهم بشكل حقيقي عن نفسي غيرُ وُجهة نظري»[1]، وهو ما يثبت أهمية هذه الثنائية (أنا/آخر) لوجود التّشابه الكبير بين الذّوات التي يشكل أحدها (أنا) والثاني (آخر) من حيث الخَلق البشري، ويبقى الافتراق والاختلاف في طريقة التفكير، وما يترتب عليها من أفعال أو سلوكات؛ تعدُّ المحدّدَ الأهم لطبيعة العلاقة بين الذوات المختلفة.

2ـ العلاقة بين الأنا والآخر

علاقة الأنا بالآخر علاقة أزلية تتعلق بالوجود الإنساني على ظهر البسيطة، فمنذ وُجد آدم بدأ الصّراع بينه وبين الآخر (إبليس) بسبب نزعة الشيطنة المبنية على التكبر لطبيعة الأصل في التّكوين (النّار، الطّين)، فكان عصيان إبليس لربّه أولَ رفض للآخر؛ وبعد ذلك «تظهر أخطر سمات ثقافة "رفض الآخر" وهي الانشغال بتدمير الآخر أو إضلاله عن تحقيق النّجاة للذّات»[2] إذْ ورد على لسان إبليس قوله تعالى: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾[3] ثم انتقل الصّراع إلى ابنيْ آدم حين قدّما قربانا، فتُقُبّل من أحدهما دون الآخر، فأدت نزعة الغيرة وحب التّملك إلى سفك الدّماء، وبالعودة إلى الحضارات القديمة فقد بدأت إشكالية العلاقة (الأنا–الآخر) بين اليونان وغيرهم من الشّعوب؛ فهم مِنْ أوائل الشعوب الذين مالوا إلى

[1] تيزفيتان تودوروف، فتح أمريكا مسألة الآخر، تر: بشير السِباعي، ط1، القاهرة، سينا للنشر، 1992م، ص 09.
[2] ممدوح الشيخ: ثقافة قبول الآخر، ط1، المنصورة، مصر، مكتبة الإيمان، 2008، ص18.
[3] سورة النّساء، الآية 119.

التّمييز بينهم وبين غيرهم، فاعتبروا غَيرَ اليوناني بربريا مِن منطلق اللّغة، فكل من لا يتكلّم لغتَهم فهو بربري، «ومفهوم البرابرة هذا، بدلالته التبخيسية المكينة ورِثه الرومان عن اليونان وبنوا عليه تمايُزَهم الأنطولوجي عن الشّعوب الأخرى وحقهم الأرستقراطي في استعبادها»[1]، وعليه كانت علاقتهم بالآخر تقوم على معيار الانتماء العرقي أو اللغوي، ويظهر ذلك التمييز من خلال مقولة "سقراط" اِعرف نفسكَ بنفسك، التي تلغي الآخر؛ ولا ترى حاجة إلى وجوده لإدراك حقيقة الذّات، وقد قسّم "أفلاطون" في مدينته المجتمعَ إلى طبقات، فكانت الأنا عنده هي طبقة الحكّام والفلاسفة، أمّا الآخرون فهم العبيد والأجانب، ومِنْ ثم فالأنا تقتصر على الحضارة الأثينية في مقابل الآخر الذي يشمل باقي الحضارات.

ورغم ذلك فقد حصر "**أرسطو**" Aristotle (385 ق م-323 ق م) علاقة الأنا بالآخر في الصّداقة، لأنَّ استمرار الآخر مرتبط بوجود الأنا «الصّداقة الكاملة هي صداقة النّاس الذين هم فضلاء، والذين يتشابهون بفضيلتهم، لأنَّ أولئك يريدون الخير بعضهم لبعض من جهة أنّهم أخيار»[2].

إنَّ الاختلاف بين الأنا والآخر لا حدود له؛ أدى إلى تولّد الرّغبة في اختراق الآخر واستكشافه، أو إلى إضعافه والسيطرة عليه، فكان التعايش حينا والتغالب أحيانا أخرى في مسيرة الشّعوب عبر التّاريخ وتعدد الحضارات، لأنَّ الحياة تقوم على قاعدة الاختلاف والتّمايز؛ إذْ إنَّ «كلّ واحد منّا يرى ذاته متميِّزا عن الآخر، لكنَّ عدم فهم التّمايز قد يقود نحو نزعة مركزية تكون سببا في نشوء رغبة جامحة من أجل تدمير الآخر قبل أنْ يُفكّر في القيام بذلك»[3]، وهذا "**جان بول سارتر Jean-Paul Sartre** " يرى في

---

[1] جورج طرابيشي، من النّهضة إلى الرّدة. تمزّقات الثقافة العربية في عصر العولمة، ط1، بيروت، دار الساقي، 2000، ص 95.

[2] أرسطو طاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ج2، كتاب الصّداقة، الترجمة الفرنسية بارتلمي سانتهلير، الترجمة العربية أحمد لطفي السيد، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1924م، ص 230.

[3] محمد بهاوي، في فلسفة الغير، ط2، المغرب، دار إفريقيا الشرق، 2003م، ص 06.

(الآخر) الجحيم الذي يحاول السيطرة على الذّات، غير أنّه لا يعدم وجوده، يقول: «وأنا لو شئتُ أنْ أعرف شيئا عن نفسي، فلن أستطيع ذلك إلا عن طريق الآخر، لأنَّ الآخر ليس فقط شرطا لوجودي، بل هو شرط المعرفة التي أُكوِّنُها عن ذاتي، وهكذا يكون اكتشافي لصميم ذاتي هو اكتشاف للآخر»[1].

قد يطول البحث في علاقة الأنا بالآخر حسب طبيعة كل علاقة ومكانها وزمانها وموقع طرفيها، غير أنّه يمكن الوقوف عند أهم العلاقات التي برزت إلى الوجود في تاريخ البشرية وأهمها.

2- 1- علاقة التّصادم (الآخر السلبي)

تكشف علاقة الإنسان بالإنسان عن مفارقات وتناقضات، طالما اختلفت المصالح والرؤى، فيسعى كل طرف آنئذٍ إلى إقصاء الآخر وفرض سلطته ونمط معرفته سعيا لتحقيق المنافعَ المختلفة، ولعلَ الأنانية أحد أسباب هذا التّوجه، وهذا ما يكشف عنه الفيلسوف "**توماس هوبز**Thomas Hobbes" الذي يعتبر الإنسان ذئبا لأخيه الإنسان، وهو نفس التّوجه الذي يراه "سارتر" الذي يقول: «الجحيم هم الآخرون»[2]، ولعل القول يشير إلى أنَّ الذّات لها قناعاته ورغباتها التي تفسدها الذّوات الأخرى، الأمر الذي يحول سعادتها إلى جحيم من خلال الصّراع بين الرغبات والعوارض.

ظهر الصّراع جليا في السّعي إلى الاستحواذ على السّلطة وإسكات صوت الآخرين، وفي التّصادم الحضاري منذ الأزل، وصور الصراع الحاد بين (الأنا) و (الآخر) عبر مسيرة الإنسانية تشوِّه صورة التفاعل وتخلق الفجوة الغائرة في حقل العلاقات الإنسانية، وصورُ الحربين العالميتيْن دليل على شاهد على استفحال نزعة الأنا المتعالية التي تلغي الآخر، والتي ألحقت الكوارث بالإنسان والكون مجتمعيْن،

[1] جان بول سارتر، الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم الحفني، ط1، القاهرة، مطبعة الدار المصرية للطبع والنشر والتوزيع، 1946م، ص 46.

[2] جان بول سارتر، جلسة سرية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، د ط، مصر، دار النّشر المصرية، 2000م، ص 100.

وقسّمت العالم إلى أقطاب متناحرة، وفرضت التحالفات التي تهدد الكيان البشري، ممّا جعل الحاجة إلى إعادة بناء علاقة الأنا بالآخر، والبحث عن توازنات تقلل من حجم الفجوة إنْ لمْ تستطعْ أنْ تُلغيها تماما.

2ـ 2 ـ علاقة التفاعل والتّكامل (الوعي بأهمية الآخر)

لا تُعدم ـ عبر التاريخ ـ علاقة تقدير الآخر والنّظر إليه من زاوية الإنسانية أولا؛ باعتباره إنسانا يشارك في تحقيق الغاية من الوجود، يقاسم الأنا الهموم والتّطلعات، ومن زاوية المنفعة وجب إقامة جسر تواصل مع الآخر كائنا مَنْ كانَ، وعيا بأنَّ الآخر في حقيقته (أنا) أخرى، لها وجودها ممّا يستلزم تقديم التنازلات من الطرفين وإقامة عقد اجتماعي وفكري يضمن سيرورة المصالح وكفالة حق الوجود، وقد كان الإسلام التّشريعَ الذي حفظ للأنا حقوقها، وألْزَمها بواجباتٍ هي في الأصل حقوق الآخر، والتّاريخ الإسلامي حافلٌ بالوقائع التي تبرز عناية الإسلام بالحقوق والواجبات، ومراعاة مقتضيات العلاقة مع الآخرين، من منطلق العدل؛ الذي يعدُّ الكافل الأبرز لصون هذه العلاقة بين الأطراف التي يشكّلُ أحدها (أنًا) وغيرها (آخرَ)، ولو اختلفت الألوان والعقائد والجغرافيا، إذْ جعل هذا التشريع الرباني الغاياتِ الساميةَ أهمَ ما يُحتكمُ إليه في حالات الاختلاف كالتّقوى والبر والإحسان، وما تعايش الأعاجم والعرب والأعراب داخل الدولة الواحدة إلا نموذج للتفاعل البنّاء والوعي الحقيقي بأهمية الآخر في الحياة، فقد نبذَ النّبي صلى الله عليه وسلم كلَّ الفوارق بين النّاس على اختلاف أصولهم وألوانهم وألسنتهم؛ إذْ لا فرق بين الأبيض والأسود والعربي والأعجمي إلا بالتّقوى، وهنا تدرك (الأنا) حقيقة (الآخر) وتبحث في جوهره عمّا يمكن أنْ يزيل الخلاف فيجمع ولا يفرق، وينفع ولا يضرُّ، لأنَّ الآخر أنا ترى بدورها الغير آخرَ مختلفا عنها، ومتى أدرك طرفا الثّنائية طبيعة التّمايز التي لا تلغي الآخر تحققت رسالة الوجود الإنساني.

وإذْ تنادي المنابر السياسية والثقافية والرؤى الفلسفية بمبدأ التفاعل الإيجابي بين (الأنا) و(الآخر) فإنَّ كثيرا من الأنانية ونزعة التّسلط وعُقد التّفوق تقف حائلا في كثير من المواضع والمناسبات، ممّا يرْهَن

الوعي بقيمة الآخر الذي يعدُّ أصلا في الوجود الإنساني؛ ولا شكَّ في أنَّ حرية الفرد تنتهي حين تبدأ حرية الآخرين.

3ـ الآخر في الفكر والنقد العربي المعاصر

شهد القرن العشرون أحداثا عظيمة انعكست سلبياتها على الأرض والإنسان والفكر، فسادت نزعة الكراهية ومظاهر الانتقام والحقد، وازدادت فجوة التمييز العنصري بين الشعوب، وانقسم العالم إلى معسكرات متناحرة؛ لبس كلُّ معسكر ثوب الأنا المُتفوّقة معتبرا الآخر عدوّا لدودا، وأُقحِمت بعض الشعوب مرغمةً سواء في الصّراع العسكري أو في الحرب الباردة، فاستغلّت القوى العظمى الظروفَ العامةَ لتقوم باحتلال كثير من البلدان العربية بحثا عن النّفوذ وعن مصادر الطّاقة والثّروة لتمويل مشاريعها التّوسعية، فأحْيت بذلك مشروعها القديم السّاعي إلى احتكار العالم واستعباد الآخر، هذا المشروع الوافد من الغرب الأوروبي الذي يمثِّل (الأنا) في تجلياتها المتعالية جعل قضية العلاقة مع الآخر (المستعمَر) تُطرح من جديد على المستوى السّياسي ثم على المستوى الثقافي (المركز والهامش)، فنادت الشّعوب بمقاومة هذا (الآخر) المختلف الذي ارتسمت صورته النّمطية في (الأنا) الثقافية العربية مسبقا، فهي «تعبّر عن الموقف الذي رسمته الثقافة بمؤسساتها المختلفة عبر المراحل المتواترة من حياة المجتمع والفرد في علاقتهما مع المخالف عقائديا ولغويا وعرقيا وجنسيا»[1]، ومن أشكال المقاومة أولا العودة إلى التراث والبحث في عمق الذّات مع ضرورة الوعي بعلاقة الأنا بالآخر الدّاخلي، لتوحيد الأنا الجمعي للأمة، وبعد ذلك محاولة فهم الآخر الخارجي بدراسة سبل التعامل الأمثل معه، وهذه مسألة عسيرة، لأنَّ فهم حقيقة الذّات يقود إلى الوعي بالغير، فكانت هذه العوامل المُحدِد الأساسي للأنا والآخر وطبيعةِ كلٍّ منهما، فالغرب الأوروبي يعتبر شعوب العالم الثالث (آخرَ) متخلفا وجبَ تصحيح مساراته، وهذا (الآخر) يرى

[1] لرقط الطاهر، لخضاري صباح، الآخر في رواية كلمة الله لأيمن العتّوم، جامعة زيان عاشور الجلفة، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، م 13، ع 02، أفريل 2021م، ص627.

الغربيَ (آخرَ) غازيا وافدا مقوّضا للثوابت، فتحددت طبيعة طرفي العلاقة في المُستعمِر والمستعمَر، ومع التخلص التدريجي من ظاهرة الاستعمار ولواحقها، وانتشار نزعة التحرر في العالم، ومع التغيرات الحاصلة بظهور قضية الإرهاب العابر للقارات، ظهرت خطابات جديدة يتوحّد بعضُها في مواجهة هذا الخطر المزعوم، فبدأ الوعي العالمي يتنامى تدريجيا مستفيدا من التيارات التحررية والفكرية الجديدة، فأصبح موضوع (الأنا /الآخر) أحدَ أهمّ القضايا التي تُطرح في مختلف المنابر، إذْ كان للثورة العلمية وللعولمة دورهما الفاعل بما أتاحاه من انفتاح على مختلف العوالم، فكشفا ـ في جوانبهما الإيجابية ـ الزّيف الذي كانت تمارسه القوى الفاعلة، الأمر الذي يستدعي إعادة النّظر في كثير من القضايا، وهذا ما تنبّه إليه كثير من المفكرين والفلاسفة العرب «لهذا ينبغي أنْ نجددَ في رؤيتنا إلى العالم لكي نحافظ على وجودنا وبقائنا، ونتغلب على ضعفنا وعجزنا، جهلنا وتخلفنا، ومن أجل أنْ نستفيد من تلك المنجزات والمكتسبات العلمية والحضارية، ونعرف ماذا نريد، وحتى نكتشف طريقنا إلى المستقبل»[1]، هذه الدعوات الحداثية في التعامل مع الآخر واجهت رؤية من الداخل ترفض التعامل مع الآخر الذي يشّكل عدوَ الأمس، لكنّها ما لبِثت أنْ وطّدت معالمها مواكبة للتغيرات العالمية التي لا تعترف بالحياد السلبي، أو العزلة الذاتية، «فهناك الآن فيض ثقافي ينطلق من الغرب، صورٌ، كلماتٌ، قيم أخلاقية، قواعد قانونية، اصطلاحات سياسية، معاييرُ كفاءةٍ، تدفُّقٌ من الشّمال، وراء المنتجات الثقافية تتدفق منظومة معرفية متكاملة»[2].

وعلى المستوى الفكري والنّقدي شاعت خطابات ما بعد الكولونيالية؛ «التي تعدُّ نقطة تحوّل بارزة في مجال الاهتمام بالآخر المختلف ثقافيا وإثنيا وعرقيا، مُحوّلةً الاهتمام صوبَ الأنا الذي تشتّت بسبب

[1] زكي الميلاد، نحن والعالم من أجل تجديد رؤيتنا للعالم، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، لبنان، 2013م، ص10.

[2] ممدوح الشيخ، نحن والغرب صراع المصالح أم صراع الرؤى والقيم، الكويت، مجلة الوعي الإسلامي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الإصدار الرابع: الحوار مع الآخر. المنطلقات والضوابط، 2006، ص27.

الاستعمار وسياساته القمعية الساعية إلى محو هويته، ويعدُّ المفكر والفيلسوف الفلسطيني "إدوارد سعيد" من بين المؤسسين لهذا الحقل الفلسفي الجديد»[1]، إضافة إلى كثير من الخطابات الجديدة منها قضية الشرق والغرب، الإرهاب الكوكبي، العرقية الاجتماعية... وغيرها حيث أفرزت نهجا نقديا جديدا في التعامل مع الآخر، فاتّسعت الدائرة المفهومية للآخر، ولم يعد بالإمكان حصر المفهوم المتجذر في الأنا الجمعي، وهنا بدأت الأسئلة المتعلقة بإعادة النّظر في ثنائية (الأنا–الآخر) تجد سبيلها إلى النّور من مثل: فيمَ يفكّر هذا المختلف عنّي؟ هل التّفكير الحقيقي يبدأ منه فعلا باعتباره شيئا يؤسس لوجودي؟ هل يمكن تجاوز النظرة الضيقة إلى الآخر باعتباره مختلفا عن الآخر في الأزمنة السابقة؟ هل بإمكان الذّات أنْ تؤسس لعلاقة جديدة مع الآخر حتى تؤسس لوجودها؟[2] وغير هذه الأسئلة كثير مما يفتح باب النّقد الذاتي ونقد الآخر.

والشّاعر العربي المعاصر لا يعيش بمنأى عن كلِّ تلك التّحولات، لقد كانت رغبته ملحةً في التجديد لمسايرة العالم الجديد، ومع توسع دائرة المثاقفة والانفتاح على الآخر، كان يسعى إلى التّواصل فكريا وثقافيا مع هذا الآخر المختلف «بعد أنْ كان قد تواصل ـ إنسانويا ـ عن طريق قنوات الاتّصال المعروفة، بدليل أنّ كثيرا من العلوم ناهيك عن الأجناس الأدبية ذات أصول غربية»[3]، هذه الدّعوة التي تحدّت الآراء الرافضة للتّحرر والتّجديد ، بحجة أنَّ هذا الجديد ما هو إلا امتثال أعمى واستسلام ذليل من الأنا العربية للآخر الغربي فكريا وثقافيا، قد سارت سيرها الحثيث إلى التغيير شكلا ومضمونا، تسندها الآراء النّقدية التي تقف على مسافة واحدة بين التراث والحداثة في التعامل مع الآخر، والآراء الفلسفية ذات التّوجه

[1] فوزية بدة: الأنا والآخر في الفكر العربي المعاصر. إدوارد سعيد أنموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة 8ماي 1945، قالمة، 2020–2021، ص المقدمة ب.

[2] ينظر: وسيلة بكيس، خطاب الهوية والآخر يقين الثبات وصراع التغيير، جامعة البليدة 2، مجلة المدونة، مخبر الدّراسات الأدبية والنّقدية، م07، ع01، جوان 2020، ص161.

[3] يحي ولي فتاح حيدر، الآخر في الشعر العربي الحديث. من نكسة حزيران إلى أخريات الألفية الثانية، جامعة بغداد، كلية التربية، مجلة الأستاذ، مج 01، ع 204، 2013م، ص 62.

المُتبصّر الاستشرافي لعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بوجوده، يرى الفيلسوف "الجابري" ضرورة التّحرر من سلطة الآخر الغربي إذ «التّحرر من الغرب ـ ونحن نتحدث هنا في دائرة الثقافة والفكر ـ معناه التعامل معه نقديا أي الدّخول مع ثقافته، التي تزداد عالمية، في حوار نقدي؛ وذلك بقراءتها في تاريخها وفهم مقولاتها ومفاهيمها في نِسْبيتِها، وأيضا التعرف على أسس تقدّمه والعمل على غرسها أو ما يماثلها داخل ثقافتنا وفكرنا»[1]، فالنّاقد أو المبدع أو الشّاعر العربي المعاصر أصبح حداثي التفكير، حداثي الإبداع، له ثقافته الخاصة ذات الأفق العالمي؛ جعلت الخطابات الأدبية والإبداعية تنحو منحًى جديدا شكلا ومضمونا، فعالج قضايا المركز والهامش على السواء، بَحَث في الأدب النسوي، والجنوسة، وجدّد في الأغراض الشعرية، وكسر رتابة الأنماط الإبداعية (التجريب) وخاض في جدلية العلاقة بين الأنا والآخر من زوايا مختلفة لم يكن يُلتفت إليها سابقا سواء تعلق الأمر باعتبارها من الممنوعات أو بتأثير الخلفيات الثقافية والعقدية وغيرها، والدّراس لرّواد الحداثة النّقدية أو الإبداعية (أدونيس، إدوارد سعيد، محمود درويش، نزار قباني...) يدرك من خلال التنظير أو الإبداع التّحول في زاوية النّظر إلى هذه القضية الإشكالية.

4ـ تأثيرات العلاقة مع الآخر على النقد والإبداع

للبحث في تأثرات العلاقة مع الآخر في الحقل الأدبي والنّقدي وجب الالتفات إلى الإرهاصات التي جمعت الأنا العربية بنتاج الآخر الأدبي والثقافي، ونحن ندرك أنّ التّجربة العربية الحديثة عاشت مخاضا على مستوى التّأصيل قبل أن تبلغ محطاتها المعاصرة، وتنضج على مستوى الرؤيا والتّشكيل، فقد أُتيح للأنا العربية أنْ تتصل بالآخر الغربي عن طريق البعثات العلمية بعد حملة نابليون على مصر(1798م) فتكتشف علومه وآدابه وثقافته، وعن طريق التّرجمة نقلت كثيرا منها إلى الأنا العربية، ونذكر هنا

[1] محمد عابد الجابري، الخطاب العربي المعاصر دراسة نقدية، ط5، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994، ص 205.

بالخصوص دور والي مصر محمد علي (1806م) في كل ذلك، «فقد أدارت مصر وجهها إلى الشمال، وأخذت تفتح أنهارها الذّهنية والفكرية لاستقبال جداول الحياة العقلية الأوروبية»[1] ثم راحت تقيم علاقة مثاقفة ونقد بين مخرونها التراثي الذي تزخر به على مدى قرون خلت، وما تكتنزه خزانة هذا الآخر المختلف، ولذلك فإنَّ الحركة النّقدية العربية عند جماعة الديوان ـ لكونها ركّت جهودها على التّنظير أكثر من توجيه اهتماها للإبداع ـ قد أفادت من النّقد الغربي عند الآخر في سعيها للتأسيس للإبداع الشّعري العربي وما يعرفه من قوانين وأنظمة صارمة على مستوى الشّكل أو البلاغة أو رؤية الشعر ومفهومه وحقيقته.

ويرى أحمد ياسين السّليماني أنَّ: الأنا الشّعرية العربية كانت مبدعة؛ تمثل إبداعها في قدرتها على الاستقراء العميق للأنا الشّعرية عند الآخر، فهي لم تكن ناقلة له إلا في القليل من الأحيان، فهذا الفهم للآخر يُبيِّنُ أنَّ الإرهاصات الأولية التي أسّست تجربة الأنا الجديدة لم تكن مقصورة على الشّعر وحده؛ وإنما أكثر ما كانت قائمة في مرحلة مبكرة عند الدّيوانيين بخاصة على النّقد عند الآخر[2]، ولذلك تغيّرت المفاهيم والنّظرة إلى الكون والإنسان وما يرتبط بهما من إبداع وخلق، ممّا يثبت فاعلية العلاقة مع الآخر، أمّا على مستوى الإبداع الشّعري فيمكن استقراء ملامح هذه العلاقة المتبادلة مع الآخر في بروز أشكال تعبيرية جديدة تمثلت في القصيدة الحرّة (قصيدة التفعيلة) وقصيدة النّثر وقصيدة الومضة، ويمكن الوقوف على نِتاج هذا التّأثير على مستوى الشّكل والبناء الفني.

---

[1] شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، ط10، مصر، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، 1992، ص 22.

[2] أحمد ياسين السليماني: التجليات الفنّية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، ط1، دمشق، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2009م، ص 151.

4ـ 1. على مستوى الشّكل

تتضارب الآراء حول الجذور الأولى لبروز القصيدة الحرّة، هذا الشّكل الشعري الذي ظهر أوّلَ مرة في العراق (1947م) على يد "نازك الملائكة" و "بدر شاكر السّياب"، وإنْ رأى بعض المنظرين والنّقاد أنَّ أصوله عربية خالصة؛ قد عرفها العصر العبّاسي والشّعر الأندلسي، فإنَّ الانفتاح على الآخر قد يكون شجّع على المغامرة الإبداعية المتحررة من بعض الأصول الشّعرية الكلاسيكية التي عمَّرت قرونا من الزمن، «إنَّ الشّكل الجديد للقصيدة الحرّة الأكثر جدلا في علاقة الأنا الشّعرية بالآخر مرَّ بمراحل عدّة، إذْ تؤكِّد الوقائع أنَّ القصيدة العربية من قبل أنْ تمرَّ بمراحل العلاقة مع الآخر الشّعري والأدبي عرفتْ إرهاصاتٍ تراثيةً واضحة، وشهِدت مراحلَ من التّطور التّاريخي والدّيناميكي في التّراث العربي سوّغ لتحولاتها الجديدة»[1].

إنَّ انفتاح الشّاعر العربي على إبداع الآخر وإعجابه بخصوبة هذا الإبداع الذي قد يلبي حاجات الإنسان في البلاد العربية؛ التي تعيش آنذاك ظروفا خاصة على الصّعيد الاجتماعي والنّفسي قبل الحديث عن الظروف السّياسية، جعل روّاد الحركة الشعرية الجديدة يعترفون بتأثير إبداع الآخر عليهم، فهذه "**نازك الملائكة**" تقر بأنها قلّدت "**إدجار ألان بو Edgar Allan Poe** " وهي تصنع قصيدة(الجرح الغاضب)، كما أنها اقتدت بـ "**جون كيتس John Keats**" وهي تكتب قصيدتها (لحن النّسيان) الذي يضمه ديوانها (قرارة الموجة) كما تأثّرت ب "**ت س إليوت Thomas Stearns Eliot**" الذي طال أثره كذلك "**بدر شاكر السّياب**"، وأخذ عنه فكرة قصيدته (ملاك) إضافة إلى تقليده لـ "**أديث سيتويل Edith Sitwell**".

وقد بدأ زحف هذا الشّكل الشعري يمد أصوله إبداعيا في مختلف الأقطار العربية على غرار مصر ولبنان وغيرهما، وتوطّدت معالم هذه الحركة الشّعرية على يد مجموعة من الرّواد من أبرزهم "خليل

[1] أحمد ياسين السليماني، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، ص 165.

حاوي"؛ الذي «استطاع أنْ يقدم صورة غير مشوهة لعلاقة الأنا الشّعرية بالآخر، فقد كان على ما يبدو أكثر الشّعراء العرب قدرة على الاستفادة من المؤثرات الغربية وإجادة مقابلاتها في التراث العربي»[1]، وتقديرا لدور الأنا وفاعليتها في خلق الإبداع من خلال تفاعلها مع الآخرية الشّعرية يرى "**موريه**" أنَّ هذه الحركة «...نِتاج حركتيْن أدبيتيْن أولاهما تطور الموشّحة والمسمط والزّجل وغيرهما من الأشكال المقطعية، وثانيهما التّقليد المباشر للشّعر الغربي»[2]، ويعود الفضل لهؤلاء الرّواد ومَنْ سار على نهجهم في التّأسيس لشكل أكثر تحررا من قصيدة التّفعيلة، شكلٌ تجاوز الموسيقى الخليلية، فأحدثَ ثورة نقدية بين مؤيد ومعارض ومشكّك، ونقصد هاهنا بقصيدة النّثر، القصيدة المتمرّدة على الأصول؛ التي تعدُّ اليوم أحدَ أبرز الأشكال الإبداعية في الأنا الشعري العربي؛ وهذه "**سلمى خضراء الجيوسي**" في استقصائها لتأثّر العرب بالآخر الغربي في كتابة هذا الشّكل النثري تقول: «فمنذ مطلع القرن راح الرّيحاني يحدّث العرب عن إمكانية كتابة الشعر بالنّثر، وعن شعر "**والت ويتمان Walt Whitman** " الذي تأثّر به، والرّيحاني أبو الشّعر المنثور، ولعله اكتسب اللّقبَ لا بِقدْرة إنتاجه من الشّعر المنثور على القارئ العربي، بل بقوّة تأثير الأفكار والنّظريات التي رافقت هذا الإنتاج»[3].

ساعدت الرّوافد الشّعرية الغربية وخاصّة الفرنسية على ظهور هذا الشّكل الجديد، إذ اطّلع "**أدونيس**" على كتاب "**سوزان برنارد Suzanne Bernard**" الموسوم "**قصيدة النّثر من بودلير إلى اليوم**" فجمع بين التّنظير لهذا الشّكل وتجسيده إبداعيا، فكان مبدعا ورائدا في التّنظير للحداثة الشّعرية العربية، فقد تجاوز التّجديد عنده مستوى الشّكل الشّعري، فالتّجديد «لا يكون مجرّد اختلاف النّسق التّشكيلي عمّا

[1] أحمد ياسين السّليماني، التجليات الفنية في علاقة الأنا بالآخر، ص 166.

[2] المرجع نفسه، ص 165.

[3] فخري صالح، المؤثرات الأجنبية في الشّعر العربي المعاصر، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1995م، ص40.

كان عليه في الماضي، إنّما يكون حيث تنهدم البنى القديمة نظرةً ورؤيةً وحساسيّةً وتعبيرا»[1]، وهذه الدّعوة نتيجة التّفاعل مع الآخر والانفتاح على تياراته الفكرية والإبداعية، غير أنَّ طريقة التّعامل مع الوافد تختلف من ناقد إلى ناقد، ومن مبدع إلى مبدع، وقد دعا أدونيس إلى ثورة الهدم من أجل إعادة البناء، ويرى أنَّ «هذا الشّعر ـ الثّورة شعر الحركة والتّغيير والتّخطي، شعر الواقع الشّامل؛ الذي يفتّت عصرنا الميّت من أجل أنْ يولد عصر جديد»[2]، غير أنّه لا يلغي التّراث بل يدعو إلى الاستفادة من مضامينه وتحديثها بما يخدم العصر والإنسان والعالَم.

ثم تلا ذلك ظهور قصيدة الومضة لتواكب التّغيرات الحاصلة على مستوى الإبداع الشّعري عند الآخر، ولعل هذا الشّكل يثبت شدة تأثر الأنا الشّعرية العربية بالآخر في التّحول السّلس بين الأشكال الشّعرية دون عناء، تلبية للذائقة الفنّية لكل مرحلة، خاصة وأنّ هذه الفترة عرفت نوعا من الانغلاق على الذات، والذّوبان في الآخر المتطوّر المختلف، بسبب فقدان الثّقة في كل ما له علاقة بالأنا الجمعي القومي لعوامل مختلفة أهمّها التّشتت وضياع فلسطين من العرب.

4ـ 2ـ أثر الآخر في بنية القصيدة العربية المعاصرة

لم تكتف حركة التّجديد الشّعري على هدم القوالب الشّكلية الموروثة بل تعدّتها إلى المضامين الشّعرية، مستفيدة من اطلاعها الواسع على شعر الآخر الغربي، مُتطلّعة إلى التّكامل بين الشّكل والمضمون، فاستطاعت الأنا الشّعرية العربية أنْ تجدّدَ على مستوى البنية الشّعرية للقصيدة، وتمكّن رواد الحداثة الشّعرية «أنْ يُدخِلوا اللّغة الشّعرية في منظومة جديدة من العلاقات المعقدة والمتشابكة في السّياقات النّصية وطبعوها بعمق الإحساس باللّغة العربية وببلاغتها الرّصينة وبيانها الخلّاق...أسهموا في تشكيل

[1] أدونيس: ها أنت أيها الوقت، ط1، بيروت، دار الآداب، 1983، ص68.

[2] أدونيس: زمن الشّعر، ط5، بيروت، دار الفكر للنشر والتّوزيع، 1986، ص 62.

قصائدهم الشّعرية وفق تنويعات في الرسم والتّشكيل والخطوط الهندسية المغايرة»[1]، وعموما فقد كانت لغة شعريةً انزياحية رهيبة الانحراف، تميل إلى الرمزية الطافحة؛ يشّكل الرمز ـ على اختلاف أنواعه ومصادره خاصة الأسطوري ـ علامة فارقة في البنية الشّعرية المعقّدة، التي تتلاقح فيها مختلف أدوات التّشكيل الفنّي في نسق غير مألوف، يطبعها الغموض الدّلالي الشّفاف حينا، والقاتم أحيانا أخرى، بفعل تأثر الأنا العربية بشعر "**آرثر رامبو Arthur Rimbaud**" الرّمزي، والميل إلى هذه الظاهرة يدفع إلى الحفر عميقا في ثنايا البنيات في محاولة لخلق مسافة التّوتر بين المتلقي والنّص، وكسب الأنا المتفاعلة وجعلها منتجا للدلالات أو خلق فاعلية التّلقي بملء الفجوات النّصية، ولاشك في أنَّ المناهج النّقدية الوافدة هي التي نادت بهذه التّقنيات البنائية في القصيدة الآخرية، الأمر الذي جعل الأنا الشّعرية العربية تبحث عن هذه الفاعلية التي افتقدت أزمنة في النّص العربي وخاصة في فترة ما بعد سقوط الحضارة العباسية.

5ـ تمثلات الآخر في الخطاب الشعري العربي المعاصر

تتعدد صور حضور الآخر في النّص الشّعري العربي حسب طبيعة الخطاب الشّعري وغاياته وزمانه وما يرتبط به من ملابسات، وستحاول هذه الدّراسة التّركيز على نوعين من الآخر (الدّاخلي، الخارجي) وبما ينضوي تحتهما من ذوات، لإبراز تنوّع الخطابات الشّعرية وانفتاحها على مختلف القضايا التّي تربط الآخر بالأنا الشّعري، وجدلية العلاقة وفاعليتها في النّص العربي المعاصر.

5ـ 1ـ الأخر الخارجي

ينبغي أثناء الحديث عن الآخر الأجنبي (الخارجي) عدم إغفال دور المؤثّرات الخارجية التي عرفها العالم عامة؛ والتي ألقت بظلالها على الأنا العربي لكشف تجليات الآخر في الشّعر العربي المعاصر، إضافة إلى الصّورة النّمطية التي انطبعت في مخيال الذّات العربية عن هذا الآخر، كون الفوارق العَقَدية

[1] أحمد ياسين السليماني، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر، ص 171.

صنعت الاختلاف ومدّت جسور الصّراع، والفروق الثّقافية واضحة المعالم بين قسم غربي يمجّد الفردانية، ويقدّس أناه ويحتقر غيره ويعدّه متخلفا حقيرا، إلى جانب الصّدامات المادية والخلافات السّياسية.

إنَّ أبرزَ صورة كان لها الحضور اللافتُ في الأعمال الشّعرية العربية صورة الآخر المستعمر للبلاد العربية، التي تؤرّخ لصراعه مع الأنا العربي، وما يحمله هذا الحضور الطّاغي على مستوى الخطاب الشّعري من توجيه الأنا العربي إلى مواجهة الآخر المختلف، وتحصين الذّات من أساليبه في التّهجين، وطمس معالم الهوية الثّقافية والدّينية، وتختلف صور حضور هذا الآخر المعادي بحسب درجة الصّراع مع الأنا العربي، فصورة حضوره في النّص الشّعري الذي يخاطب المستعمر ليست كالتي يخاطبه فيها بعد تحقيق الاستقلال، كما تختلف بحسب معايشة الوقائع، وطبيعة اللّغة الشّعرية لكل شاعر، والرؤيا الذّاتية النّابعة من التّجارب المريرة التي يرى من خلالها العالَم.

2-5 ـ الآخر الإنسان

بعيدا عن المفاهيم الفلسفية لقضية النزعة الإنسانية فإنَّ حاجة الإنسان لجنسه البشري ضرورية وغير محدودة، ولأنَّ الإنسان كائن اجتماعي فالعلاقة (إنسان إنسان) تفرض أنْ يكون كل طرف على وعي بوجوده الذي يتطلب الآخر لبناء منظومة إنسانية تحفظ الوجود، لكنَّ كمال هذه العلاقة غير ممكن واقعا، لذلك تطرح قضية الوعي بوجود الآخر الإنسان في الفلسفات والثقافات وعبر تعاقب الحضارات، هذه القضية لفتت اهتمام الشّعراء بعد سيطرة النّزعة المادية التي تلغي القيم والمُثل فأصبحت الحاجة ماسّة إلى البحث عن علاقة أكثر تأمينا لتماسك البنيات المجتمعية تقوم على ثنائية (مادي ـ إنساني)، وكون رسالة الأدب سامية هادفة تخدم الفن والإنسان حسب أنصار مدرسة (الفن للمجتمع) فقد أولى هؤلاء العناية بقضية الإنسان المعاصر، فالتزموا بالبعد الإنساني الذي يلغي كلَّ الفوارق، ويمجّد الكرامة الإنسانية، وقد برز هذا التّوجه عربيا عند شعراء الرابطة القلمية (1920م) الذين عاشوا تجربة الغربة بما لها من فضائلَ نتيجة الانفتاح على الآخر، وما عليها من سلبيات على مستوى العلاقات القيمية معه، الأمر الذي دفعهم

إلى البحث عن القيم الغائبة في تلك المجتمعات، والتي بدأت في الامتداد إلى المجتمعات الأصلية لبلدانهم، فسعوا إلى نشر الوعي الإنساني في ثنايا أعمالهم الشّعرية.

5- 3 ـ الآخر الدّاخلي

إنّنا إذا تجاوزنا الخطابات الشّعرية التي تتوجّه فيها الأنا إلى الآخر الخارجي لا نَعدِم في النّص الشّعري العربي المعاصر خطاب الآخر الدّاخلي الذي له روابط وثيقة الصّلة بالأنا الشّاعرة؛ على اعتبار أنَّ كل خطاب يتضمّن مُخاطِبا مُرسِلا ومتلقٍ للرسالة ولو افتراضا، فإنَّ التزام الأدباء والشّعراء خصوصا برسالة الفنّ والحياة جعلت النّص الشّعري العربي المعاصر غنيّا بثنائية الأنا والآخر لأداء تلك الرسالة النّبيلة وتقويما للحياة وسعيا إلى الواقع الأفضل، وتبرز في هذا المقام دعوة "أدونيس" إلى هدم الواقع وإعادة تشكيل الإنسان العربي بما يقتضيه الوضع الرّاهن.

5- 3-1ـ الآخر المتسلّط

تعيش الأمةُ العربيةُ وضعاً يثير قلق الفِكر، ويُؤرِّق العقل على مختلف الأصعدة، هو أمرٌ حرّك أقلام النّقد وقرائح الوعي الجمعي، فقد انبرى الشّعراء العرب المعاصرون يحللون الوضع، يميطون اللّثام عن الحقيقة الغائبة أو المُغيّبة، ويقدّمون الرؤى، ومنهم من وضع المِشرط على الجرح حتى نتقيأ قبح المهانة والمذلّة، فنستريح بهذا النّقد الهادف، وهو ما تصدّى له شاعر الثّورة والتّمرد "نزار قباني" الذي يكون قد فاق معاصريه في التّعرض للمواضيع السّياسية، وعارض السّياسات العربية في التّعامل مع الأوضاع الدّاخلية والخارجية إذْ «تضمّنت المواقف السّياسية مجموعة من الأفكار والرؤى الصّارمة التي تَلقَّى على إثرها الشّاعر ردّات فعل حادّةٍ وهجمات عنيفة، وتهافت نقدي من قِبل النّقاد والقرّاء وحتى السّاسة، بسبب

جرأته المميزة في الطّرح وموضوعيته في تحديد وجهة نظره فيما يتعلق بمتغيرات الأحداث السّياسية»[1]، لأنَّ خطابات الشّاعر تحلّلُ الوضع وتبدي غضبا لا نظير له على الحاكم العربي؛ الذي أذلَّ نفسه وشعبه، فكان خطاب الأنا الشّاعرة حادا متجهِّما، يُلقي اللّوم على الآخر الدّاخلي الذي تولّى مقاليد تسيير البلاد العربي فلم يكن طليعة في التّاريخ، ولم يحفظ للأمة عزّها الأول، ومن قصائده التي تفجّرت في عالم الخطابات الشعرية المعاصرة نقدا وانتقادا قصيدة (هوامش على دفتر النّكسة) التي نظمها بعد هزيمة حزيران 1967م.

3-5 ـ 2ـ الآخر المتّحد مع الأنا (خطاب الوعي المشترك)

يتّحد (الآخر) مع (الأنا) داخليا إذا كانت الثّنائية (أنا/آخر) هي نفسها (آخر/أنا) أو بالمنطق الرياضي العلاقة العكسية، فإذا كانت هذه الثّنائية ـ دون مراعاة ترتيب طرفيها- تؤطِّرها روابط متينة كالعقيدة والهوية والتّفكير المشترك والالتزام بالقضيّة الواحدة مع الخضوع للظّروف نفسها، والاتفاق في وجهات النّظر فإنَّ الاتّحاد بين مختلف الذّوات سيتحقق، الأمر الذي يجعل (الآخر) لا يظهر بصورة واضحة المعالم والتّشكيل، ويكتسب صفة الاستقلالية والاختلاف، فصورته هي صورة الأنا يتجلّى من خلالها وبمرافقتها وبدلالتها.

وفي الخطابات الشّعرية المعاصرة تتحوّلُ (الأنا) الشّاعرة إلى (آخر) حينما تلجأ (الأنا) التي تسلِّم بقيمة (الآخر) وقدرته على تمثيلها وتبني مشروعها الفكري أو الحضاري، فيكون الخطاب موجَّها إلى الذّات الشّاعرة التي تعدُّ (أنا) اكتسبت شرعيتها من (آخر) متّحِد معها؛ حينذاك تتداخل الخطابات ويتمُّ تبادل الأدوار بين الأنوات سعيا إلى بلوغ مشروع مشترك، ويكثر هذا الأنموذج في الشّعر الملتزم بالقضايا الاجتماعية والسّياسيّة خاصة، حين يكتسب (الآخر) ثقة (الأنا الجمعي)، وإذا كان ذلك يظهر واقعيا في

[1] سكينة زواغي: المواقف السياسية لنزار قباني. دراسة سيميائية تأويلية لنماذج مختارة من شعره، جامعة باجي مختار عنابة، مجلة التواصل في اللّغات والآداب، مج 23، ع 52، ديسمبر 2017، ص 1883.

المنابر والاجتماعات عن طريق الانتقاء أو التّزكية فإنّه في الخطاب الشّعري لا يتحدّدُ إلا من خلال الملفوظات التي تعبِّر عن أطراف الخطاب باستخدام الضّمائر في كثير من المواضع النّصية.

الفصل الأول

تداولية أفعال الكلام في خطاب الآخر في ديوان نبوءات الجائعين

المبحث الأول: الأبعاد التداولية لأفعال الكلام في خطاب الآخر (ابن الوطن)

أ ـ التداولية // ب ـ أفعال الكلام

1ـ الأفعال الإنجازية (الإخباريات ـ التّعبيريات ـ التّوجيهيات ـ الوعديات)

2ـ الفعل التّأثيري

المبحث الثاني: الأبعاد التداولية لأفعال الكلام في خطاب الآخر (الحاكم)

1ـ تداولية الأفعال الإنجازية: الإخباريات ـ التّعبيريات الوعديات

2: الفعل التأثيري

المبحث الثّالث: تداولية الأفعال الكلامية في خطاب الآخر (الأجنبي)

1ـ تداولية الأفعال الإنجازية: الإخباريات ـ التّوجيهيات

ـ التّعبيريات ـ الوعديات

2ـ تداولية الفعل التّأثيري

الفصل الأول: تداولية أفعال الكلام في خطاب الآخر في ديوان نبوءات الجائعين

1ـ التداولية في الخطاب الأدبي

1ـ 1 ـ التداولية: pragmatics

التداولية علم له اتّصال بالظاهرة اللّسانية، وهي المصطلح الشّائع الذي يقابل المصطلح اليوناني (**pragmaticus**)، أمّا المصطلحات العربية المترجمة لها فهي كثيرة ومنها: التّبادلية، الاتّصالية، النفعية، والذرائعية...

وهي «دراسة معنى المتكلم منفصلا عن معنى كلمة أو جملة»[1]، إذْ إنَّ مبدأ التداولية هو دراسة اللّغة في إطار السّياق للوصول إلى مقاصد الكلام؛ التي يستهدفها الباث، ويعدُّ "**بول غرايس Paul Grice**" عرّاب التّداولية من خلال محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفارد 1967م والمنشورة عام 1989م، وهي تعدّ المنطلق لدراسة التداولية، فقد ذهب إلى "أنَّ الكثير من الألفاظ لن تجد تفسيرها في المنهج الدّلالي، لكنَّ ذلك ممكن في إطار منهج تحادثي أو تداولي"[2]، أمّا أوَّل من أطلق مصطلح التّداولية فهو "**شارل ساندرس بيرس**"**ch.s. peirse** في مقالته الشّهيرة (كيف نجعل أفكارنا واضحة)، ويعود الفضل في ضبط ماهية التّداولية إلى الفيلسوف "**ويليام شارل موريس**"**w.ch.moris** الذي عدَّها «بُعدا ثابتا من أبعاد السّيميائيات؛ التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات»[3].

وممّا سبق فالتداولية منهج لدراسة المعنى الذي يقصده المتكلم بمراعاة السيّاق المرتبط بالعملية التواصلية، إنّها «تختص بدراسة المعنى كما يريده المتكلم (أو الكاتب) ويفسِّرُه المستمع (أو القارئ) لذا

---

[1] جورج يول: التداولية، تر: قصي العتابي، ط1، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون 2010م، ص 194.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 13.

[3] جاك موشريل، ألان ريبول: التداولية اليوم علم جديد للتواصل، تر: مجموعة من الأساتذة، إشراف: عز الدين المجدوب، د ط، تونس، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2010، ص 29.

فإنّها مرتبطة بتحليل ما يعنيه النّاس بألفاظهم أكثر من ارتباطها بما يمكن أنْ تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ منفصلة»[1]، وهذا يستوجب الإلمام بالسّياق المرتبط بالقول، والآلية التي ينظّم من خلالها المتكلم ما يريد قولَه مُراعيا هوية المخاطَب والظروف المحيطة به.

ويهتم المنهج التّداولي بالكيفية التي يصوغ من خلالها المتلقي (المستمع) استدلالاته حول ما يُقال ليصلَ إلى تفسير المعنى الذي يقصده المتكلم (المخاطِب)، فالتداولية هي دراسة كيفية إيصال أكثر ممّا يمكن أنْ يُقال في ظاهر اللّغة، "وهنا يعِنُّ التّساؤل حول ما يمكن أنْ يُحدد ما يُقال وما لمْ يتم قولُه، ويرتبط الجواب الرئيس بمفهوم التّباعد distance لأنَّ القرب بمختلف أنواعه (المادي، الاجتماعي، المفاهيمي) ينطوي على خبرات مشتركة تجعل المتكلمين يحدّدون مقدار ما يحتاجون قوله بناءً على افتراضِ قربِ المستمع أو بُعده، وعليه فالتّداولية هي دراسة التّعبير عن التّباعد النسبي[2].

إنَّ المفهوم العام للتداولية يقوم على "دراسة اللّغة في الاستعمال أو التواصل، إذْ تتأسّسُ مقاربتها للخطاب على جملة من التّساؤلات أهمّها: ماذا نصنع حين نتكلم؟ ما الذي نقوله بالتحديد حين نتكلم إلى مستمع ما؟ ما الآلية التي تجعلنا نقول شيئا غير الذي كنّا نريده؟ ولماذا نميل إلى التّلميح؟ ولماذا يكون التلميح أبلغ من التّصريح؟

هذه التساؤلات وغيرها أسهمت في تقديم مجموعة من التّصورات لدفع حركية هذه المقاربة؛ أبرزها تصوّر «**فرانسواز أرمينكو Francoise Arminco**" وتصوّر "**هانسون Hanson**" ثم تصوّر "**جان سيرفوني Jaen Servoni**"[3].

---

[1] جورج يول: التداولية، تر: قصي العتابي، ط1، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010م، ص 19.

[2] ينظر: المرجع السّابق، ص 19-20.

[3] ينظر: خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، الجزائر، بيت الحكمة للنشر والتّوزيع، 2006، ص 77.

1ـ 2 ـ تصوّر "هانسون *hanson*".

وقع الاختيار على تصوّر "**هانسون**" لأنّه سعى إلى توحيد فروع التّداولية المتشعبة وِفق درجة تعقّد السّياق، فجعل التّداوليات على ثلاثِ درجاتٍ هي:

1ـ 2ـ 1ـ تداولية الدّرجة الأولى (نظرية الحديث):

وتتوافر على عناصر العملية التّواصلية، وما يُحيط بها من ملابسات خارجية (الزمان والمكان) لدراسة رموز التّعبيرات المبهمة، وأشهر منظّرٍ لها العالم اللغوي الفرنسي "**بنفنيست**"**E. Benveniste**" الذي يؤكد على ضرورة التّمييز بين اللّغة كسجل من الأدلّة ونظام تتركّب فيه هذه الأدلّة، وقد مثّلها كلٌ من "**بيرس** Ch. S Peirce، **راسل Russell**".

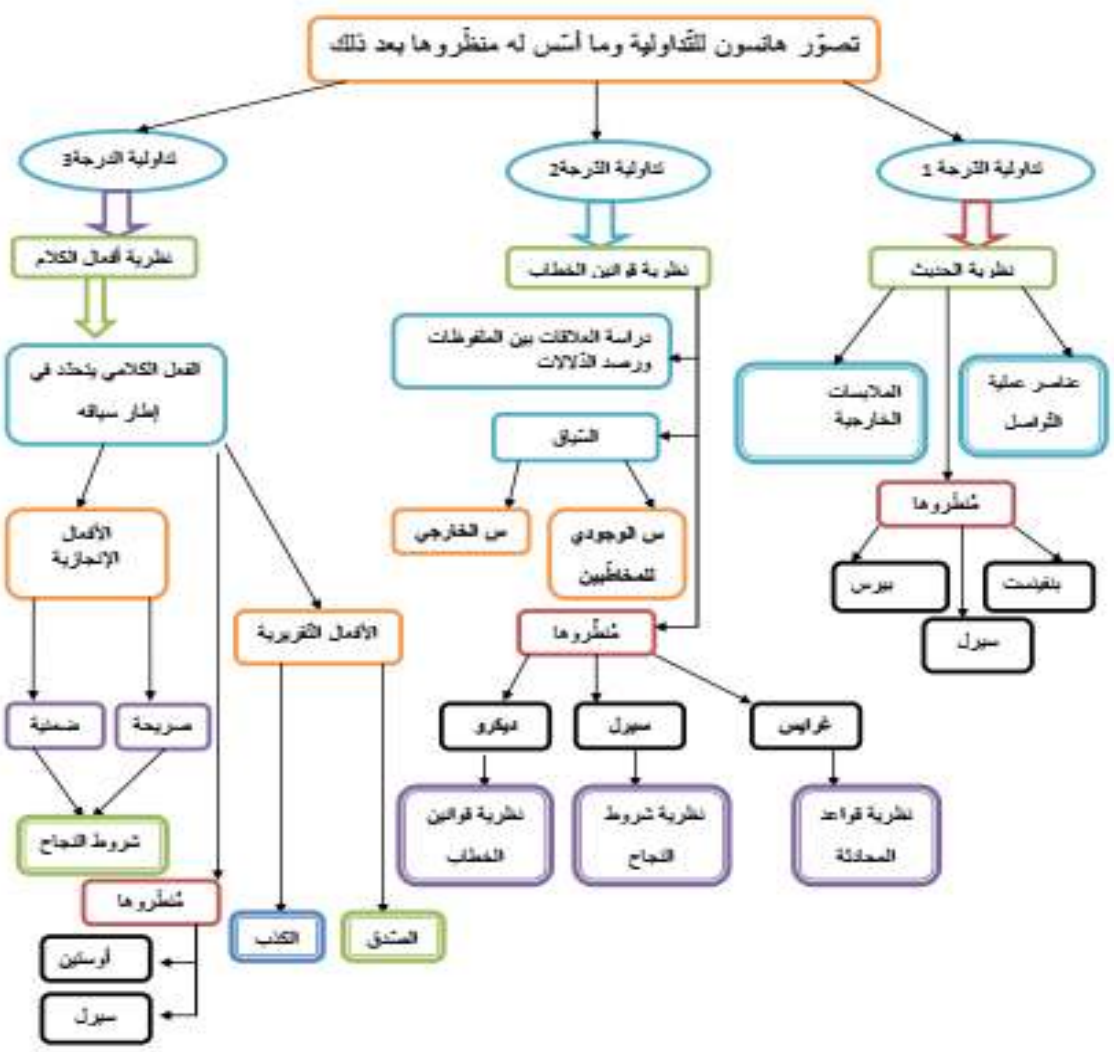
1ـ 2ـ 2ـ تداولية الدّرجة الثانية (نظرية قوانين الخطاب).

تهتم بدراسة العلاقات بين الموضوع المعبَّر عنه بملفوظه، ورصد جميع دلالاته للحكم عليه بالإخفاق أو النّجاح، وسياقها أوسعُ من سيّاق سابقتها؛ حيث يمتد من الموجودات (السيّاق الوجودي) إلى نفسيةِ المخاطَبين وحسِّهم، والاعتقادات المشتركة بينهم، فهي تدرس كيفية انتقال الدّلالة من المستوى الصّريح إلى مستوى التّلميح، وذلك بالسّعي لاستنباط العمليات التي تحقق ذلك الانتقال، أي أنّها ترى اللّغة مجموعةً من الاقتراحات المُسبقة والأقـوال المضمرة وآلية من آليات الاحتجاج، لذلك تندرج ضمنها نظرية قواعد المحادثة عند "**غرايس Paul Grice** " وشروط النجاح عند "**سيرل Jonny Searle**" وقوانين الخطاب عند "**ديكرو Ducrot** ".

1ـ 2 ـ 3ـ تداولية الدرجة الثالثة (نظرية أفعال الكلام):

وسميت بنظرية أفعال الكلام إذْ إنَّ نشأة التداولية مرتبط ارتباطا كبيرا بهذه النّظرية؛ لذا توصف بأنّها أهمَّ محاور الدّرس التّداولي، وقد وضع أسّسها "**أوستين** "**Austin** ؛ الذي يرى أنَّ هناك أفعالا

تنجزُ في الواقع فتُبدِّل قناعاتِ الأفراد واعتقاداتهم بمجرد التّلفّظ بها ويرى أنَّ: «إحداث التّلفّظ هو إنجاز لفعل وإنشاءٌ لحَدَثٍ»[1]، فهي تنطلق من مسلَّمة مُفادها اعتبار الأقوال الصّادرة عن المتكلِّمين ضمن وضعياتٍ محددة تتحوّل إلى أفعالٍ ذاتِ أبعاد وأغراض اجتماعية، وقد طوَّرَ هذه النّظرية "**سيرل**"، وهذا المخطط يختزل تصوّر "**هانسون**" مع إضافة بعض التّفصيلات المعينة على إدراك أساسيات نظرية أفعال الكلام محورَ الدّراسة في هذا القسم.



الشّكل (1) تصوّر "هانسون" للتّداولية مع أهم أساسيات التّداولية

[1] جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامّة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، تر: عبد القادر قينيني، د ط، الدّار البيضاء، أفريقيا الشّرق، 1991م، ص 17.

3ـ وظيفة التّداولية

إنَّ التّداولية تدرس الجانب الاستعمالي للّغة، إذْ تحدد "**أوركيوني orecchioni**" وظيفتها في «استخلاص العمليات التي تُمَكِّن الكلام من التّجذر في إطاره الذي يُشكِّل الثلاثية الآتية: المرسل، المتلقي، الوضعية التبليغية، إنَّ أيْ تحليل تداولي يستلزم بالضرورة التحديد الضمني للسيّاق الذي تؤول فيه الجملة»[1]، إذْ لا يمكن بلوغ المقاصد الكلامية إلا بالالتفات إلى أطراف التّخاطب والسياقات المرتبطة بالعملية على اختلافها (سياق الحال، سياق الهامش كالحركات والإيماءات، سياق الخارج.).

4ـ أفعال الكلام Speech Acts

تعتبر أفعال الكلام أحد أهمّ المفاهيم الرئيسة التي تقوم عليها التّداولية، لأنَّ اللّغة ليست مجرد وصف للعالم أو نسخ للواقع فحسب، بل هي القيام بأفعالٍ وممارستها قصد التّأثير، والفعل الكلامي هو «أصغر وحدة لاتّصال إنساني، يمارس بها المُتكلّم فعلا تجاه سامع»[2]، ويعرفها "**مسعود صحراوي**" بقوله: هي «كلٌّ ملفوظ ينهضُ على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري، وعلاوة على ذلك يعَدُّ نشاطا ماديا نحويا يتوسّل بأفعال قولية Actes locutoires إلى تحقيق أغراض إنجازية Actes Illocutoires، (كالطّلب والأمر والوعيد والوعد...إلخ) وغاياتٍ تأثيرية Actes perlocutoires تخصُّ ردود فعل المتلقي.. ومن ثم فهو فعل يطمح أنْ يكون فعلا تأثيريا؛ أيْ يطمح أنْ يكون ذا تأثير في المخاطَب،

---

[1] Kerbrat. Orecchioni : Énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armand colin, 1980, P : 185.
نقلا عن: عمر بلخير: مدخل إلى دراسة بعض الظواهر التداولية في اللغة العربية (الخطاب المسرحي أنموذجا)، الجزائر، مجلة الجزائرية في الأنثربولوجيا والعلوم الاجتماعية إنسانيات، ع 14، ماي –ديسمبر 2001، ص 102، الرابط: https://doi.org/10.4000/insaniyat.9668 .

[2] زيبيله كريمر: اللغة والفعل الكلامي والاتّصال، مواقف خاصة بالنظرية اللّغوية في القرن العشرين، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، القاهرة، 2011، ص 89.

اجتماعيا أو مؤسساتيا ومن ثمة إنجاز شيء ما»[1]، وكان هذا منطلق الفيلسوف الإنجليزي "**جون أوستين** **Austin John Lang Shaw**" في تأسيسه لنظرية أفعال الكلام التي يضمّها كتابه quand dire (c'est faire) المستوحاة من المثل الإنجليزي (كيف ننجز الأشياء بالكلام)[2].

وتعرّفه "**أركيوني** **Orecchioni**" بقولها: «الكلام هو بدون شك تبادلٌ للمعلومات ولكنّه أيضا إنجازٌ لأفعال مُسيَّرة وفق مجموعة من القواعد (بعضها كلية، حسب **هابر ماس** haber mas) من شأنها تغيير وضعية المتلقي، وتغيير منظومة معتقداته، أو وضعه السّلوكي، وينجرُّ عن ذلك أنَّ فهمَ الكلام وإدراكه يعني تشخيصَ مضمونه الإخباري، وتحديد غرضه التّداولي، أي قيمته وقوّته الإنجازية»[3]، وهو تأكيد على أنَّ الملفوظات في إطار التّركيب الكلامي المنطوق أو المكتوب تتجاوز الدّلالة السّطحية إلى مضمرات قولٍ تكشف عنها عوامل التّداول المختلفة، وهي تستهدف غايات متعدّدة منها حمْلُ المتلقي على تغيير وضعه أو مواقفه وغير ذلك.

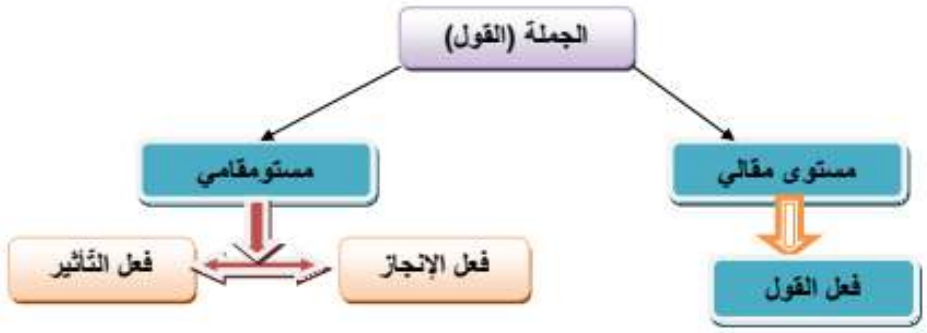
قسّم "**جون لانغشو أوستين**" أفعال الكلام في البداية إلى قسمين؛ أفعال إخبارية تقريرية constative، وهي تخضع لمعيار الصّدق والكذب، وأخرى إنجازية أو إنشائية (أدائية) performative، ويمكن أنْ تبرز في الوصيّة أو الوعد، أو النّصح والاعتذار...وهي لا تخضع للمعيار السّابق؛ بل تكون موفّقةً أو غيرَ موفقةٍ بحسب شروط النّجاح، غير أنّه راجع هذا التّقسيم وقدّم بديلا للتّمييز بين الخبر والإنشاء، حيث أقَرَّ «بأنَّ كلَّ جملة بمجرّد التّلفظ بها على نحوٍ جادٍّ توافق على الأقل إنجاز

[1] مسعود صحراوي: التّداوليات عند علماء العرب، ط1، بيروت، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، أوت 2005، ص 40.

[2] جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامّة، ص 5.

[3] Kerbrat. Orecchioni : Énonciation de la subjectivité dans le langage, Paris, Armand colin, 1980, P : 185.
نقلا عن: عمر بلخير: مدخل إلى دراسة بعض الظواهر التّداولية في اللغة العربية، ص 105.

عمل قولي وعمل متضمّن في القول، وتوافق أحيانا كذلك القيام بعملِ تأثيرٍ بالقول»[1]، أيْ أنَّ كلَّ فعلٍ كلامي يتألّف من ثلاثة أفعال تُنْجزُ في لحظةٍ واحدة أثناء التّلفّظ، وهي فعل القول (النطق) فعل الإنجاز وفعل التّأثير، وهذا المخطط يجسّد التّفكير الأوستيني في المرحلة الثّالثة.



الشّكل (2) أفعال القول حسب "أوستين"

وقد أسّس تلميذه "**سيرل**" لمرحلة النّضج؛ حيث وسّع من فضاء الفعل الكلامي ليجعله «أوسع من أنْ يقتصرَ على مراد المتكلّم، بل هو مرتبط أيضا بالعرف اللّغوي والاجتماعي»[2]، كما طوّر في شروط الملاءمة لتحقيق إنجازية الفعل الكلامي، وجعل هذا الأخير «يشتمل على ثلاثة جوانب أو أفعال تجريدية تحليلية وهي؛ الفعل اللّفظي أو القولي أو التّعبيري، والفعل الغرضي أو الإنجازي، والفعل التّأثيري، وذكر العلاقة فيما بينها جميعا»[3].

تسعى الدّراسة من خلال مقاربات "**أوستين**" وَ "**سيرل**" ومَن جاء بعدهما خاصة "**غرايس**" في مجال أفعال الكلام إلى الوقوف على بعض مقولات نظرية الأفعال الكلامية ومستوياتها المختلفة،

[1] ، جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة، ص 32.

[2] محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، د ط، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 73.

[3] المرجع نفسه، ص 53.

وتطبيقاتها في خطاب الشّاعر "**أيمن العتّوم**" للآخر في ديوانه "**نبوءات الجائعين**" لبيان قوّتها الإنجازية وفعلها التّأثيري في الآخر لأداء المقاصد التي يستهدفها الشّاعر.

المبحث الأول: تداولية الفعل الإنجازي في خطاب الآخر

أولا: الفعل الإنجازي

يعتبر الفعل الإنجازي أهمَّ مباحث أفعال الكلام؛ بل إنَّه المقصود من هذه النّظرية كُلّها، إذْ إنَّ "**جون سيرل**" «عندما رَغِبَ في تعريف الفعل الكلامي أشارَ إلى أنَّ بحثَه (ما الفعل الكلامي؟ what is a speech Act) ينبغي أنْ يُسمى (ما الفعل الإنجازي؟)»[1]، فالمقصود بالفعل الإنجازي أنَّ المتكلِّمَ حين ينطق بقول ما يكون قد أنْجزَ فعلا (معنى)، ويتحدد ذلك بمراعاة شروط السّياق والمحيط والأشخاص والعرف...، ومِن خلال الفعل الإنجازي تبرُزُ المقاصد التّداولية، "ولكي يحقّق المتكلّم الفعل الإنجازي عليه أنْ يُنفِّذَ الشروط التّكوينية لهذا الفعل، وأوّلها أنْ يؤدي الفعل اللّفظي (النّطقي) أو ينطق الجملة التي تحويه، وثانيها أنْ يقصِد به امتلاك القوة الإنجازية (الغرض البلاغي)، ثم التّأكّد مِن فهم المتلقي للغرض، وأخيرا وجوب استيفاء الأعراف المحدّدة لممارسة الفعل في بعض الحالات"[2]، ولكل فعل قوته الإنجازية أو غرضه، فهذه "**أوركيوني**" ترى أنَ القوة الإنجازية تُعدُّ «المكوِّنَ الذي يعطي للملفوظ قيمته من حيث هو فعل»[3]، فالأفعال الإنجازية هي: الإخباريات أو الإثباتيات،

---

[1] محمد العبد: تعديل القوة الإنجازية. دراسة في التّحليل التّداولي للخطاب، مصر، مجلة النّقد الأدبي فصول، ع 65 خريف 2004، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 137.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 42-43.

[3] Catherine Orecchioni : les Actes de langage dans le discours théorie et fonctionnement. Éditions Nathan, Paris 2001, p 16.

نقلا عن: خديجة بوخشة: أفعال الكلام في شعر رمضان حمود، جامعة مستغانم، مجلة حوليات التراث، ع 20، سبتمبر 2020، ص 128.

الموجِّهات أو الطلبيّات، الوعديات أو الإلزاميات، التّعبيريات أو المُعبِّرات، الإعلانيات أو التّصريحيات.



الشّكل (3) الأفعال الإنجازية عند "سيرل"

تسعى الدّراسة إلى البحث في أهم الأفعال الإنجازية التي تُعين في كشف مقاصد الشاعر في خطابه للآخر (ابن الوطن، الحاكم، الأجنبي)، فركزت على الأفعال الإخبارية التقريرية، التّعبيرية، الوعدية وأخيرا الإلزامية.

1- الإخباريات Les Assertives

وهي الأفعال التي ينقل بها المتكلّم الوقائع الحقيقية للعالم، فتميل إلى التّقرير والإثبات، فهي «تحمل تعهّد المتكلّم (بدرجات منوّعة) من خلال منطوقه بِكون شيء ما حقيقة واقعة، بالإضافة إلى تعهّده بصدق القضية المُعبَّر عنها»[1]، أمّا قصديتها الإنجازية فتتمثّل في نقل واقعة إمّا للإعلام بها أو تأكيدها أو جعل المخاطَب يدرك أحكامها؛ ليصلَ إلى الاستلزام الحواري الذي تتضمّنه القضية.

[1] محمود حجي الصّراف: في البراغماتية. الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة. دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب، 2010، ص 61.

1ـ 1ـ الإخباريات في خطاب الآخر (المحبوبة)

يخاطِب الشّاعر في قصيدة "كتبت فوق جدار السّجن" محبوبته (ميسون) مستخدما الأفعال الإنجازية الإخبارية التي تنقل واقعه في السّجن وتصوّر معاناته فيقول:

كتبتُ فوقَ جِدارِ السّجنِ أهْــواكِ وفــي لياليــه شَــــاقَ القلــبُ رُؤيــاكِ
شــقيـــــةٌ أنـــتِ مـــــــازالتْ وتذبَحُ الـــرُّوحَ إنْ حنَّــتْ لِذكْـــراكِ
شَددْتُ قيْدي علـى رُسْغي فليْسَ أمْـرٌ كَـأَمْرِكِ أو أَسْــرى كَأَسْــراكِ[1]

تبرِز الأفعال الإنجازية معاناة الشّاعر في السّجن؛ إذْ يؤجّج اللّيل أشواقَه فيحرِقُ فؤادَه، لذلك ينقل صوَّرا مِن يومياته تميل إلى التّقرير والوصف، وتترجم ثقلَ الأيام عليه، ومن هذه الأقوال الإخبارية أو التّصريحية (كتبت، أهواك، شقية أنت،..)، وبما أنَّ الخطاب شعري فهي تتجاوز الدّلالة السطحية لملفوظاتها، أمّا من حيث معيار الإخلاص فإنَّ ما يقرّرُه المخاطِب يعبّر بصدق وواقعية عما يشعر به بعيدا عن محبوبته، إذْ تُجلي الأفعال التّقريرية ما يحيل إلى ذلك (شاقَ القلب رؤياك) فعاطفة الحب تتأجّج حين يستبدّ البعد، وتتعاظم موانع الوصال واللّقاء، ولعلَ السّجن أكثرها تأثيرا في نفسية المُحبّ.

ولإدراك البعد التداولي في خطاب هذا الآخر وجبَ الالتفات إلى السّياقات اللّاحقة لإدراك المنحى الذي يسير عليه الخطاب من خلال أفعال الإنجاز التّقريرية، يقول:

ومَــا يُعذّبُني شــــيءٌ كَــــذاكِرَةٍ كانــتْ وُرودًا فصــارتْ محــضَ أشْــواكِ[2]

يُؤشّرُ الشّاهد على تحوّل الوضع من خلال تقرير حقيقة الذّكريات التي قد تكون مؤنسا في بعض المناسبات، وقد تتحوّل إلى كابوس مزعج يُعكِّر صفو المُتذكِّر، ومن خلال الشّاهد الشّعري تظهر

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين. قصائد كُتبت في السّجن، ط3، بيروت، المؤسسة العربية للدّراسات والنّشر، ص 14.
[2] المصدر نفسه، ص 15.

مُقرِّرات ما آل إليه الوضع مِن تحوّل مؤلم (صارت محضَ أشواك)، وقد ذكر كثيرا من السّياقات اللّاحقة التي حوّلت الذكرى ألَمًا فيقول:

بيْنـــي وبَيْـــنكِ أَســـوارٌ تُسيِجُني وأنـتِ فِـــيَّ فَسِـجنِي فـــي حـــناياك [1]

تقرر الأفعال الكلامية واقع حال المخاطِب، وإذا كان هذا الوضع معلوما عند المخاطَب، فإنّ الإخبار ينتقل إلى الوصف وطلب أفعال إنجازية أخرى تستتر خلف القول، سيأتي عليها الذكر في دراسةِ تداوليةِ الوعدياتِ والفعلِ التّأثيري.

1ـ 2 ـ خطاب الآخر (ابن الوطن المستضْعف)

تتضمّن قصيدة "نبوءات الجائعين" خطابَ الشّاعر لابن الوطن؛ الذي انتهكت حرُماته، وحُرِمَ حريتَه، بسبب ضعفه واستبداد الحاكم العربي، ومِن خطاب التّقرير في هذه القصيدة ما ورد في المقطع الثّاني حيث يقول:

شَعبٌ يُعذَبُ في السُّجون بغيرِ ذَنْبٍ

ثم يُسْلبُ دونَه حقُّ الدّفاعْ[2]

يخاطِب الشّاعر الآخر بصيغة الجمع تعميما للخطاب وتخصيصا للقضيّة، مُتّكئا على أفعال الإثبات؛ التي تنوّعت ملفوظاتها بين الجملة الاسمية والفعلية، فصدر البيت يقرّر حقيقة الحاكم المستبدّ؛ الذي يزجُّ بأفراد شعبه في السّجون، ويمتدّ عبثه إلى حرمانهم من الدّفاع عن براءتهم، كما يتضمّن وَصفًا لحال الشّعب المستضعَف؛ الذي لا يملك مَنْ يدافعُ عنه وعن حرّيته.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 16.
[2] المصدر نفسه، ص21.

وينزاح الخطاب في المقطع الموالي عن سابقه، فيجعل الشّاعر الوطنَ مُخاطَبا على سبيل المجاز المرسل، فيقرّر حقائق المواطن في ظلّ الأنظمة الظّالمة قائلا:

أنتَ يا وطني شُعوبٌ غِـزَّةٌ وَالتّـهُم سبْعينَ عامًا

ثمّ سِيقَتْ كالخِرافِ ذليلةً إلى المِقْصلَةْ[1]

يُثبت الشّاهد طبيعة المخاطَب الذي يميل إلى سياسة الولاء للحاكم، إذْ تقترن الإثباتيات مع الوصف (شعوب غزّة، والتهم سبعين عاما) فالإخبار يُحيل إلى عاقبة الأمر استنادا إلى أفعال التّقرير الواردة بصيغة البناء للمجهول (سيقت) للتّكثير وإنكار فعل الفاعل، ثم وصف حالة المخاطَب وعاقبة ولائه، أمّا قوّة إنجازيتها فتتجلى في تأكيد الحكم الظّالم وعاقبة الولاء دون المطالبة بالحقوق، لأنَّ اتّجاه المطابقة ينطلق من الكلمات (القول) إلى العالم الخارجي (الواقع)، أما مبدأ الاخلاص فهو ظاهر في هذه المطابقة التي تقرّها الوقائع.

2ـ الأفعال التّعبيرية (التّعبيريات) Les Expressives

هي أحدُ أهمّ أنواع أفعال الكلام الإنجازية التي ينبغي الالتفات إليها في مقاربة الخطاب الأدبي، لأنَّ المتكلّم يقوم من خلالها بالتّعبير عن حالاته الشّعورية، «فهي تعبّر عن حالات نفسية، ويمكن لها أنْ تتّخذ شكل جملٍ تعبّر عن سرور أو ألمٍ أو فرح أو حزن، أو عمّا هو محبوب أو ممقوت...يمكن أنْ يسبّبها شيء يقوم به المتكلّمُ أو المستمع، غيرَ أنَّها تخصّ خبرَة المتكلّم وتجربتَه»[2].

وإذا كان تحديد هذه الأفعال واضح المعالم في الخطاب العادي من مثل (آسف، شكرا لك، تهانينا...) فإنّها في الخطاب الأدبي عامة والشّعري خاصّة تتطلّب الالتفات إلى مدلولات القول غير

[1] المصدر السّابق، ص 24.
[2] جورج يول: التّداولية، مرجع سابق، ص 90.

المباشرة (لأنها أفعال كلامية غير مباشرة) لكونها تتضمّن المعبّرات عن الحالة الشّعورية، فهي تستدعي استلزام بُعدها الحواري، وتجدر الإشارة إلى أنَّ البلاغة العربية تنبّت إلى ذلك في باب الأغراض البلاغية، وجاء "**غرايس**" لِيُقرّ بأنّه "عندما ننجز جملة ما يمكنُ أنْ نقوم بفعليْن لغويَين؛ أوّلهما له دلالة لغوية مباشرة، والآخر يحمل دلالة لغوية غير مباشرة؛ إذْ يقوم السّياق بمَهمّة تحديدها، وقد سمّى هذه الظاهرة (الاستلزام الحواري conversational implicature")[1].

وتتحدّد إنجازية الأفعال التّعبيرية (البوحيات، السّلوكيات) في كون المتكلّم «لا يحاول أنْ يؤثّر في العالم ليماثِلَ الكلمات، ولا الكلمات لتماثل العالم، والأحرى أنَّ صدق القضية المعبَّر عنها يكون مفْترَضا»[2]، لأنَّ ذلك يتعلق بما يشعر به المتكلّم، نتيجة فعل أو قول وقع من نفسه موقعا معيّنا، فهو لا يسعى لتغيير العالم، أو جعل القول معبرا عن حقيقة الواقع.

2- 1 ـ خطاب الآخر (ابن الوطن)

يوجّه الشاعر الخطاب في قصيدة "لنا صُبْحٌ نؤمِّله" إلى أمّه (أم أيمن) ومِن خلالها إلى كل مَنْ يُكنُّ له الحبَ والإخلاص، ويتعاطف معه في محنته، كاستراتيجية خطابية ترفع من قيمة المخاطَب، فيقول:

يـا أمَّ أيمَــنَ لا شكْــوَى تُرَدِّينَـا إلا إلـــى اللهِ، إنَّ اللهَ يحـــمينا[3]

يّتجلى إيمان الشّاعر بقضيته من خلال عتبة العنوان؛ إذ تتضمّن أفعالا تعبيرية تُحيل إلى الشّعور بالرضا في مواجهة المحنة التي يمرُّ بها، وقد عبّر عنها بضمير المتكلّمين؛ والقصدية منها إظهار

[1] ينظر: العياشي أدراوي: الاستلزام الحواري في التّداول اللّساني، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف، 2011، ص 96.
[2] صلاح إسماعيل عبد الحق: التّحليل اللّغوي عند مدرسة أكسفورد، ط1، بيروت، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، ص 234.
[3] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 11.

اشتراك أبناء الشّعب فيها، وتخفيفا من معاناته كلِّ أمٍ حالُها كحال "أم أيمن" للتّأثير الإيجابي وتحقيق الدعم المعنوي إبطالا لمشروع الآخر الظالم مِن خلال هذه المُعبّرات التي امتزج فيها موقف الذّات الشاعرة بالموضوع الشّعري والمتلقي في آن واحدٍ، وهي الضوابط التي اشترطها "**أوستين**" لضمان نجاح الفعل الكلامي إذْ يجب أنْ «يكون المخاطِبُ قد فهِمَ العملَ، وأنْ يكون تعرَف على العمل المقصود»[1]، إذْ يفصِّل الشّاعر في السّياقات اللّاحقة في قضيّته متّكئا على الأفعال التّعبيرية فيقول:

نموت مِنْ أجْل أنْ تحْـيا عقيدَتُنا ولا نَذِلُّ لجـــبَّارٍ وطــاغِينَا[2]

تبرز الأفعال التّعبيرية المشحونة بطاقات الاعتزاز والافتخار، ومن خلالها الإيمان والرضا بكل العواقب، لأنَّ القضية ذاتُ قيمة عظيمة في المنظومة القيمية للذّات الشاعرة، ومطابقة هذه الأفعال للواقع يُسهم في اكتمال الوظيفة التّداولية لهذا الخطاب؛ الذي يبعث على مبادلة الأنا شعورها بالاعتزاز بوطنيَّتها وعقيدتها، فالحديث عنهما في سياق الظّلم والاستعباد يرفع من القوّة الإنجازية لهذه الأفعال، ويقول في سياق آخر:

فـلا تَخـافِي لــنا صُبــحٌ نُؤمِّلُــهُ يهدي السُّراة الحيارَى حينَ يَهدينَا[3]

يتضمن الخطاب في الشاهد أفعالا تعبيرية تُترجمُ الحالة النّفسية المصاحبة للفعل القولي، فيصوّر الشّعور بالرّضا والاعتزاز بالنّهج الذي تسلكه الأنا، وتكمن قوتها الإنجازية في بعث التّفاؤل في نفس المخاطَب (أنت) ومن خلاله الأنا الجمعي، ومشاركة المخاطَبين مشاعر التفاؤل بالنّصر وما تبعثه في النّفوس من فخرٍ واعتزاز.

---

[1] جاك موشلر، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتّداولية، تر: مجموعة من الأساتذة، إشراف: عز الدين المجدوب، د ط، تونس، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2010، ص 60.

[2] أيمن العتوم: نبوءات الجائعين، ص 11.

[3] المصدر السّابق، ص 11.

2ـ 2 ـ الآخر المستضعف

يخاطب أيمن العتوم" في المقطع الأول من قصيدة "نبوءات الجائعين" أبناء شعبه الذين يزكّون سياسة الحاكم المستبدّ، فيدفعونه إلى ممارسة سياسة الاستبداد، فالذّات الشّاعرة أحدُ ضحايا هذه التّزكية الفاسدة، ويعبّر عنها في قوله:

سيَمُرُ مَن أكلوا التّرابَ على البيادرِ

ثم يَبْتَدِئونَ أُغْنيَةَ الحصيدةْ:

نحنُ العجينةُ للحكوماتِ الرّشيدةْ

وسيهْتفونَ بِروحِ قائدِهم وَأَيْديهِ المديدةْ

وسيجلسُون على الحدِيدَةْ

وسيهتِفونَ ... ويهتِفون...

فما أجادوا غيْرَ تصفِيقٍ لأَصحابِ السَّعاداتِ السّعيدَةْ[1]

يشكّلُ المقطع صورةً عن حالة المخاطَب الذي يُعدُّ ضحيةَ النّظام الفاسد المُؤسَّس على المولاة المطلقة؛ إذْ يعبّر عن حسرة الأنا على ما آلت إليه الأوضاع، وتُبرزُ المعبراتُ نفسيةَ الشّاعر المنكسرة من جراء الخضوع والتّسليم، فهتافُ الجماهير بأغاني الاستعباد مؤشّر على انهيار القيم، وهو بذلك صورة قاتمة تجسد الواقع، وتَحْمِل على التّشاؤم، فأفعال السّلوك (الجلوس على الحديدة، تكرار الهتاف) تصوّر طبيعة المخاطَب بما يثير حالة من التذمّر لكل مَنْ يتلقى هذه الأفعال في إطار سياقها القولي العام.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين: ص 19.

أضفت المُعبّرات الانفعالية في السّطر الأخير قوةً إنجازية باستخدام أسلوب الحصر الذي يتّكئ على النّفي بِنيَّة إطلاق الحكم (فما أجادوا) والاستثناء (التّصفيق) الذي يصور فعل المخاطَب المرفوض أخلاقيا، إذ إنَّ الاستعانة بالوصف السّاخر يزيدُ من درجة الصّدق في القول (أصحاب السّعادات السّعيدة).

يلحُّ الشّاعر في خطاب الآخر على نقل صورة هذا المخاطبِ فتكون الأفعال ذات دلالتيْن لغويتيْن؛ الأولى مباشرة تنقل الواقع، غير أنّ الثّانية تُعبّر عن الحالة النّفسية الناتجة عن الاستلزام الحواري لمضمونها في إطار سياق الخطاب، فيقول في السّياق الموالي:

ويشربون دماءَ عِزَّتِــهِم

ويقتَتِلُونَ مِنْ أَجْلِ الكراماتِ الفقِيدَةْ[1]

يتناول الشاهد الحديث عن مستقبل المخاطَب بعد تقرير واقعه بما يدعو إلى الأسى والحسرة، وإذا كان اتّجاه المطابقة في المعبّرات هو الاتّجاه الفارغ الذي لا يتطلب تحقق المطابقة، إذْ «ليس هناك اتّجاه مطابقة تظهره القوّة الغرضية، لأنَّ وجود المطابقة يكون مفترضا»، فإنَّ استعمال صيغة المضارع (يشربون، يقتتلون) تُعدُ نتيجة متوقَّعة لفلسفة الآخر في تعامله مع الأحداث والوقائع، وبناء على تسلسل هذه الأفعال البوحية السّلوكية في تدرّج يُفضي إلى استلزام حواري صريح؛ يبعث على التّشاؤم من مستقبل هذا المخاطَب يُبرز صدق القول، ويرفع القوة الإنجازية، لأنّه من خلالها نحقق غايات مختلفة حسب "**سيرل**" الذي يرى «أنّه باللّغة نفعل عدّة أشياء، نخبر الناس كيف توجد الأشياء،

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 19-20.

ونحاول التّأثير عليهم ليفعلوا أشياءَ، ونُلزم أنْفسنا بفعل أشياء، ونعبّر عن مشاعرنا ومواقفنا...»[1]، وعليه فإنَّ الأفعال التّعبيرية تُعدّ أحدَ مقاصد الخطاب في الشّاهد إضافة إلى مختلف المقاصد الأخرى؛ التي تختلف باختلاف أطراف العملية التّواصلية (مخاطِب، مخاطَب، مستمع، محايد...).

3. المُوجّهـات Les Directives

وهي أفعال الطّلب التي يستخدمها المتكلّم ليجعل غيرَه يقوم بشيء معيّن، و «تتّخذ أشكال أوامرٍ وتعليمات وطلبات ونواهٍ ومقترحات، ويمكن لها أنْ تكون إيجابية أو سلبية»[2]، أيْ أنّ المتكلم يوجّه تعليماته وطلباته إلى المستمع قاصدا إنجازها أو التّقيد بها أو اتّباعها، ويتمثّل الغرض الإنجازي لأفعال التّوجيه (الطّلبيات) في حمل السّامع على فعل شيء ما «واتّجاه المطابقة يتمثّل فيها مِن العالَم إلى الكلمات World-to- Word وشرط الإخلاص فيها يتمثّل في الإرادة أو الرّغبة الصّادقة، ويدخل في هذا الصّنف الاستفهام والأمر والرّجاء والاستعطاف، والتّشجيع والدّعوة والإذن والنّصح، بل التّحدّي أيضا وكثير مِن أفعال القرارات»[3]، فالمتكلّم من خلالها يعبّر عن تفاعله مع العالَم الخارجي، ويُبين عن مواقفه، فيصدر تعليماته وتوجيهاته إلى المخاطَب بحسب نظْرته إلى العالم وفلسفته وخلفياته الفكرية والأيديولوجية في إطار السّياق التّخاطبي.

---

[1] صلاح إسماعيل عبد الحق: التّحليل اللّغوي عند مدرسة أكسفورد، 237.

[2] جورج يول: التّداولية، ص 90.

[3] محمود أمين نخلة: آفاق جديدة في البحث اللّغوي المعاصر، د ط، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2002، ص 79.

3ـ 1ـ الموجّهات في خطاب الآخر (المحبوبة)

يوجّه الشّاعر خطابَه إلى "ميسون" وهو بين أسوار السّجن في قصيدة (كتبت فوق جدار السّجن) وقد أشار إلى أنَ قلبه هو مَن كان يكتب خطابه وليست الأقلام أو الأصابع، ليبوح باستبداد الهوى، وتعاظم الألم بين جدران الزّنازين، ومن الأفعال التّوجيهية الصّريحة أو الضّمنية ما ورد في قوله:

إنْ كنتِ في الحبِّ يا ميسون خاطئة فليتَ حُبِّي بعضٌ مِــنْ خــطاياكِ
قضيَّتِي أنتِ لــمْ أَحْسِــمْ نِهايَتَــها وقــدْ شَقِيتُ بِعمْرٍ ليْس أشْــقاكِ[1]

لا تتضمّن الأقوالُ صيغَ التّوجيه المباشر؛ لكنّها تحمل مُوجِّهات متَضمَّنة في فعل القول، إذْ يُبرز الشّاهد الأول ما يوحي بعلاقة الأنا بالآخر، لذلك يدعو الشّاعر محبوبتَه إلى اعتبار حبّه خطأً من أخطائها ليكون له وجودٌ في حياتها ومكانة في قلبها، إذْ يخرج التّمني إلى التماس الإنجاز، ذلك أنّ الذي يخطئ في قراراته يلجأ إلى مراجعتها، فيصحّح مواقفه ويُعدّلها، وهو ما يأمل الشّاعر إنجازَه، لأنَّ السّياق يلمّح إلى فعل إنجازي تمَّ ولا يريد له أنْ يتكرّر، وهو تخلي المخاطَبة عنه في محنته بين أسوار السجن.

أما الشّاهد الثّاني الذي يقرّرُ في ظاهره مكانةَ المحبوبة، فإنّه يتضمّن توجيها يسعى من خلاله إلى حسم إحدى القضايا التي تنخر أعصابَه، فقضية السّجن ليست قضيتَه الأولى، بل إنّ عدم تصريح المحبوبة بحبها، وتخلّفها عن مبادلته المشاعر الصّادقة أكبر ما يؤرِّق الذّات الشاعرة ويسبب شقاءها، إنّها الرّغبة بإراحة القلب بأحد قرارين (الوصال أو القطيعة) وإنْ كان المراد معلوما من السّياقات السّابقة واللّاحقة.

إنَّ الاستلزام الحواري من هذه الخطابات التّوجيهية يجعل الآخر يشعر بالرّسالة، ويتفاعل مع المُوجِّهات، وهو ما يحقق القوّة الإنجازية للأفعال، وقصدية المخاطِب، إذْ نلمح شروط الإخلاص من

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 15.

الملفوظات التي تُبيِّنُ مكانة المخاطَب (أنت قضيّتي، شقيت بعمر) ويتضح ذلك أكثر في السياقات اللاحقة.

تَبرز الأساليب الإنشائية الطّلبية في الخطاب الشّعري بجلاء؛ فتتجاوز أفعالُها الإنجازية التّوجيهية المدلولاتِ الظاهرةَ لتَبُثَّ رسائل الشّوق والوفاء ومختلف التّوجيهات؛ التي تتضمّن رجاءات المخاطِب والتماساته، فيقول:

ميســون لا تسألي يـوْمًا إذا كُتِبَـتْ لنا الحياةُ: لماذا كُنتُ أَهْـــوَاكِ؟!
ولا تقولــي لــماذا ذَابَ فِــيَّ جَـــوًى هذا الجَرِيحُ الذَّبِيحُ البائِسُ الشَّاكِي
لا تعجبــي إنْ سَـمِعْتِ الشَّـدْوَ فــي فإنَّ صـــوتَ غِــنائِي لَحْنُه بَــاك
ميسـونُ، مــاذا تَمَنَّــى القَلـبُ لـــوْ جِراحُـــهُ بَعْدَ لأْيٍ غــيرَ لُقْــياكِ[1]

إنَّ الأفعال الكلامية في ملفوظات النّهي والاستفهام تعدُّ وسائلَ لغوية تستهدف معرفة ما يجول في خاطر الآخر (المحبوبة)، وهي من الوجهة التّداولية تخرج إلى أفعال إنجازية توجيهية؛ تنأى عن الرّغبة في الفعل بالقوة، لكنّها تسعى إلى تعديل المواقف والتّأثير في المخاطَب ليكون سندا للذّات الشّاعرة المعذَبة، وهي تتضافر مع الأفعال التّوجيهية التي وردت بملفوظات الخبر الذي يتجاوز الوصف إلى الأمر الضّمني في مثل أفعال القول (إنَّ صوت غنائي لحنه باكٍ) فهو دعوة إلى تخليص الذّات من معاناتها.

3 ـ 2 ـ الآخر المستضعف

يهدف الشاعر في خطابه للآخر (ابن الوطن) في المقطع الخامس من قصيدته الطويلة "نبوءات الجائعين" إلى بثَّ توجيهاته التي يراها كفيلة بأنْ ترفع الغبن عنه، وتعيد له كرامته، بعد أنْ ذكرَ

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 15-16.

أسبابها في بداية المقطع، وهي سّياقات تُبرِز العالَم؛ الذي ينطلق منه الشّاعر في إطلاق أفعاله الإنجازية الطّلبية فيقول:

أيّها المطْعُونُ بالحُزْنِ الدّفين...

المُولَعُ ... المَهُووسُ بالعَرَب ... المُعَبَّأُ بِالْتِيَاعْ

غيِّرْ مكانَكَ ... فجِّرِ الرّوتينَ ... أشْعِلْ صفْحَةَ المُتآمِرينَ

وَنَكِّسِ الأَعْلام للْمُسْتسْلِمِين... وراجِعِ التّاريخَ

تعرفْ كيف تُرْتَجَعُ البِلادُ...

وكيفَ تَلْتَهِبُ البِقاعْ

لا تلتفِتْ أبدًا لخَلْفٍ

ضُمَّ موْطنَك الكبيرَ على الصُّدُورِ وجهِّزِ الرّشّاشَ...

أحرِقْ بالرّصاصِ الآنَ وَجهَ الرّاجعينَ إلى الوراءِ

ومُــدَّ مَوْتا مِنْ ذِرَاعْ[1]

تطغى أفعال الإنجاز التّوجيهية على غيرها في هذا القسم من خطاب الشّاعر لابن الوطن، وقد ختمَ بها قصيدته الطويلة وِفق استراتيجية خطابية تجعل المقاطع السّابقة مُثيرات خطابية تحمل المخاطَب على قبول التّوجيهات الواردة في هذه الشّاهد، فالملفوظات الواصفة للمنادى تتضمّن توجيهات للمخاطَب حتى يدفع عنه الظّلم والحزن، أمّا أفعال التّوجيه المباشرة التي وردت في متتالية قولية مكثفة

[1] المرجع السّابق: ص 27.

فإنّها ذات مقاصد توجيهية تتجاوز صيغة الأمر المباشر إلى دفع الآخر إلى البحث عن موقعه اللاّئق في العالَم، إذْ يمكن تقسيم هذه التّوجيهات إلى ثلاثة أقسام، يتعلّق الأول منها بدفع الآخر إلى العزم على التّغيير (غيّرْ مكانَك، فجِّرْ الرّوتين) والقسم الثّاني يوجِّهُه إلى السّبيل الأنسب في التّعامل مع القوى المُتآمرة ضده (أشعلْ صفحة المتآمرين، نكِّسْ الأعلام، أحرقْ صفحة الرّاجعين إلى الوراء) أمّا القسم الأخير فهو توجيهات تستهدف استرجاع الكرامة والوطن (لا تلتفتْ، ضمّ موطنك، مُدَّ موتا من ذراع).

تبرز القوة الإنجازية لصيغ الإنشاء الطّلبي الذي يتضمّن أفعالا كلامية إنجازية ذات بُعدٍ توجيهي في رغبة المخاطِب في تخليص الآخر من معاناته، وما يترتّب عنها من الشّعور بالقهر، بينما تتجلّى درجة الإخلاص والصّدق في تقديم الفعل التّوجيهي مقترنا بالغاية من إنجازه، ومثال ذلك: نكِّس الأعلام وراجع التّاريخ (الفعل)، والنّتيجة: تعرف كيف ترتجع البلاد، وهي بذلك ذات مقاصد إيجابية نفعية تحظى بالرضا والقبول.

وتعدُّ الأفعال التّوجيهية أحد المقاصد الخطابية الكبرى في خطاب الشاعر لابن الوطن، تأسيسا للفكر المناضل والمقاوم، وتوحيدا للأمة من خلال بناء مشروع قائم على مجابهة الظلم ونقد السياسات الحاكمة، وقد تضمنت كثير من القصائد هذه التّوجيهيات التي قد تختلف في ملفوظاتها وبنياتها لكنّها تتّحد جميعا في مقاصدها، ومن ذلك قوله في قصيدة "قيْدي مِنَ الصّمت":

قف في وجوه الذين استهونوا دمنا وأشْعل في النّار جَنْبَيْك واحْتَشِدِ
علِّمْ طُغاتَكَ أنَّ الأرْضَ ثائرَةٌ وأنَّ شَعْبًا عن الثّورات لَمْ يَحِد[1]

لا تختلف الطّلبيات في هذا الخطاب عن غيرها في باقي القصائد، فإنجازيتها تتضمن تعزيز الثّقة بالنّفس، ودفع المخاطَب إلى مجابهة الظّلم والاستبداد، ومن حيث الإخلاص والصّدق فإنَّ تجربة

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص100.

المخاطَب قد سبقت التّوجيه، والسّياق الخارجي عامل مهم في قبول المخاطَب لهذه الأفعال الإنجازية المطلوبة، وما يشدُّ انتباه السّامع والمتلقي عامة هو عدم اكتفاء القول بالتّوجيه معزولا عن إبراز الغايات السّامية، إذْ تعدُّ هذه الاستراتيجية آلية حجاجية إقناعية معينة على الإنجاز.

4 ـ الوعديات (الإلزاميات) Commissives

وتعرف بأفعال الوعد أو التّعهد، وهي "أفعال الكلام التي يستعملها المتكلّم ليلزمَ نفسه بفعلٍ مستقبلي، لأنّها تعبّر عمّا ينويه المتكلّم، وهي وعود، تعهّدات وتهديدات، مثل (سأعود، سأنجزها بشكل صحيح، لن تقوم بذلك) إذْ باستعمال المُلزِم يأخذ المتكلّم على عاتقه جعل العالَم ملائما للكلمات"[1]، وعليه فإنّ الالتزام يكون في الحال أو الاستقبال، واتّجاه المطابقة يتمُّ بيْنَ ما يُقال والواقع، أمّا درجة القوة الإنجازية في هذه الأفعال فإنّها «تكون في أَوْج قوّتها عند تعبيرها عن الالتزام باستخدام فعل إنجازي قوي كالقسم، وقد تتراخى درجة التّعبير عندما يقوم المتكلّم بمجرّد الوعد وإظهار النّيّة بفعل ما»[2]، وإذا كان الأمر يتعلّق باللّغة العادية وبمجال استخدام هذه الأفعال (خاصة في ميدان القضاء) فإنَّ التّعامل مع لغة الخطاب الشّعري ينأى قليلا عن معيار القوّة الإنجازية التي يشير إليها الرأي السّابق، وذلك بحسب طبيعة الوعديات وسياقات الخطاب وطبيعة العلاقة بين أطراف التخاطب، والمكانة الاجتماعية ...وغير ذلك.

4 ـ 1 ـ الوعديات في خطاب الآخر (المحبوبة)

تتضمّن قصيدة "كتبت فوق جدار السّجن" بعض أفعال الوعد في خطاب الشّاعر الموجّه إلى "ميسون" إذْ لا يمكن بلوغ درجة قوّتها الإنجازية بعيدا عن سياقات الخطاب (السّجن) وخاصّة ما ذكرَه

[1] ينظر: جورج يول: التّداولية، ص 90-91.

[2] علي محمود حجي الصّراف: في البراغماتية، ص 48.

الشّاعر في خطاب البداية "... تلك التي لم تتذوّق طعم دمائي على أوراقي حتى الآن، وأظنّها لن تفعل ذلك يوما، لأنَّ نفسيَتها امتزجت بعواصف التّردّد"[1]، أمّا الخطابات الشّعرية التي تضمّنت بعضَ وعديات الشّاعر فنجدها في قوله:

إذا تبرّأتُ مِـــن شـــــوْقٍ يُؤرِّقُنـــــي فمَـنْ لِقَـلْبٍ إذا أَقْصـــاكِ أدْنـــــــاكِ[2]

يحمل الشّاهد بعض الوعديات التي يلتزم بها المخاطِب في علاقته مع الآخر، إذْ يرى أنَّ قلبَه ملتزمٌ بالشّوق والتّذكّر، ولو حاول جاهدا إنكار وجودها في ذاكرة أيامه، ويتجلّى هذا الوعد في أفعال القول المفارقة (تبرّأت/ يُؤرّقني) (أقصاك/ أدْناكِ)، وإنْ بدا ظاهرها تقريرا فإنَّ مقاصد القول تحمل البعد الالتزامي، ويصرّح بذلك في السياقات اللّاحقة قائلا:

إذا قصـيتُ فقلبـــــي لا يُطاوِعُنـــــي وإنْ دَنَـــوْتِ كأنَّ الموتَ أَحْـياكِ[3]

ما يُلمَس في هذا الشّاهد هو استخدام فعل القول بصيغة الحال والاستقبال (لا يطاوعني) وهو يتضمّن وعدا بالتزام القرب من المخاطَب، بما يُحيل إلى الوفاء، وهو فعل قابل للتّحقّق والإنجاز؛ لأنّه يُقدّم من الأفعال الكلامية ما يثبت ذلك اعتمادا على المفارقة اللّفظية (الموت/ أحياك)، وقوة الإنجاز المستلزمة تبرزها الثنائيات المتضادة في هذا الخطاب (قصيتُ/ الموت) (دنوت/ أحياك)، كما يؤكّد الشّاعر إخلاصه والتزامه في قوله:

فكيـفَ أَتْرُكُنـــــي لِلْهَـــمِّ يَعْبـثُ والقلــبُ تَقذِفُهُ أمْــواجُ شَــكَّاكِ[4]

يعدُّ الشّاهد حجّةً ودليلا على التزام البقاء قرب المحبوب، فالاستفهام يتضمّن النّفي، ممّا يجعل أفعال القول تميل إلى الإثبات والتّأكيد على رفض الاستجابة للهموم التي تعبث بالذّات الشّاعرة، وتعدّ

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، (عتبة القصيدة) 14.

[2] المصدر نفسه، ص 17.

[3] المصدر نفسه، ص نفسها.

[4] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين ص 18.

الأفعال اللاحقة في الشّاهد مؤشرا على تحوّل متوقّع في علاقة الأنا الشّاعرة بالآخر (قَصَيت، شكّاك) وهذا التّحوّل يتضمنه قول الشّاعر في آخر القصيدة:

سَتُقْتَلِينَ كـــــمَا قدْ كُنْتِ قَاتِلـــةً وسوْفَ تَبْكِينَ يا ميسُونُ قَتْلاك[1]

يتوعّدُ الشّاعر مخاطَبه بالجزاء الذي يكون من جنس العمل، وإذا كان التّوعُّد بالقتل المعنوي فإنَّ المخاطِب قدْ خَبِرَ هذا الفعل بسبب الجفاء الذي تعرّض له، إذِ الإنجاز يتوقف على الذّات الشّاعرة التي تملك النّية والقدرة على الإنجاز، وقد يكون حذف بعض الملفوظات التي تُحيل إلى أفعال كلامية وحده الكفيل بإبراز هذه القدرة، فالتّقدير مثلا (ستُقْتلين بالجفاء)، كما أنَّ الشّاهد يتضمّن وعْديات أخرى تعتبر أفعالا إنجازية مفروضة على المخاطَب لأنّها نتيجة حتمية للوعد الأول (تبكين قتلاك)، وهذا الوعيد إبرازٌ لتجربة المخاطِب في هذا المجال، ممّا يجعل القوة الإنجازية للأفعال الوعدية الملفوظة ذات تأثير قوي على المخاطَب، لأنّ الالتزام بالإنجاز سيحصل في المستقبل القريب أو البعيد.

4 ـ 2 ـ خطاب الآخر (المستضعف)

تقلُّ الوعديات في خطاب الآخر (ابن الوطن المستضعف من طرف الحاكم) في ديوان الشّاعر محلَّ الدّراسة، نظرا لطبيعة الخطاب الشّعري والسّياق المرتبط بالقول (السّجن) لأنّ أغلب الخطابات يكون طرفها الثّاني الآخر السّجان أو من ينهج نهجه ويطبق فلسفة الحكم الجائر، ومن السّياقات التي تتضمّن الوعديات ما وردَ في المقطع الأخير من قصيدة "نبوءات الجائعين" إذْ يقول الشّاعر:

هي أَرْضُكَ السّمراءُ... إمّا أنْ تمُوتَ لأجْلِها

أوْ لا تَموتَ ... كِلاكُمَا لِلْمَوْتِ ...

لكنْ أنتَ لَنْ تُشْرى وَأَرْضُكَ لنْ تُباعْ[2]

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 18.

[2] المصدر نفسه، ص 28.

يُعتبر السّطر الأول سياقَ مقالٍ للأفعال الوعْديّة التي تضمّنها الشّاهد، إذْ إنَّ الشّاعر يدفع المخاطَب إلى الدّفاع عن الأرض، ويُرغِّبُه في ذلك، وهو حين يؤكّد حتمية الموت؛ فإنّه يدفعه للتّضحية، فالقول (كلاكما للموت) يُعدّ من الحكميات والثّوابت، غير أنَّ الرّابط الحجاجي (لكن) ينحو بالخطاب منحًى مغايرا، ويتضمّن أفعالا وعدية تتّكئُ على النّفي لرفع التّوهّم والاعتقاد السّائد في ذهن المخاطَب، فجاءت الوعدياتُ التي تضمن الحفاظ على المخاطب وأرضه معا، لأنَّ النّضالَ يحفظ النّفوس والأوطان.

يتوقفُ صدق هذه الأفعال على إيمان المخاطِب بقضيّته واعتقاده الجازم بأنَّ الأوطان كالأنفس لا تُباع، أمّا قوة إنجازيتها التي تنطلق من العالَم إلى الكلمات فالوقائع والتّجارب تبْرزُها، والإرادة تُحقّقها، وبالتّالي فهي قابلة للإنجاز نظريا وشعريا، وتنطلق من فعل التّأثير الذي تمارسه الأفعال الكلامية على المخاطَب، يقول الشّاعر في مقطع آخرَ:

يا أيّها المَحْمِيُّ بالموْتِ الجَميلِ

تَحزَّمِ المتفجِّراتِ اللّاهِباتِ تَجِدْهُم مِـزَقًا

ودَوْلَتُهُمْ مَتَـاعْ[1]

تدخل الأفعالُ التي يتضمّنها جواب الشّرط ضمن الوعديات، لأنّها تُمثّل الضمان، فالشّاعر يدفع المخاطَب إلى المغامرة في سبيل الوطن وخوض غمار الموت، ويَعِدُه بتحقيق الأهداف، ويُجْزِم له بإنجازية هذه الأفعال الوعدية (تجدْهم متاع/ دولتهم متاع)، ودرجة الإخلاص والصّدق في هذه الوعديات يمكن أن تلْمح من سياق الخطاب الذي حوَّل فيه الشّاعر الموت من صورته المألوفة التي تثير الرهبة إلى صورة تبعث على الإقبال على خوض غمارها في سبيل الأوطان، إضافة إلى أنّ تجربة المخاطِب تدعِم صدق النوايا، فتكون بذلك سياقا خارجيا مُعينا على الإنجاز.

[1] أيمن العتوم، نبوءات الجائعين، ص 28.

ثانيا: الفعل التّأثيري Perlocutionary Act

الفعل التأثيري وهو الفعل الحاصل بعد أنْ يُلقَى الفعل الإنجازي على المتلقي، فهو الأثر النّاتج بعد كل فعل كلامي إنجازي، ويسمى أيضا الفعل الاستلزامي **Perlocutionnaires** «وهو الذي يحدّد أثرَ المنطوق اللّغوي على السّامع، أيْ ما يحدّدُ لديه مُتجاوزا ما هو عرفي (كالسّعادة، الغضب...) فمثلا عندما يقول الأب لابنه الصّغير: (النّار خطيرة) يكون قد أنجز فعلا قوليا (منطوقا) وفعلا إنجازيا هو التّحذير، وحين يبتعد الابن عن النّار فإنّ ذلك هو النّتيجة أو أثر المنطوق نفسِه»[1] أمّا عن إنجازية الأفعال التّأثيرية فإنّها «تتميّز بقوة إنجازية تفترض تزامنا تامًّا بين موضوع الملفوظية والتّلفّظ»[2].

قد لا يبرز الفعل التأثيري بعد إلقاء المخاطِب للفعل الكلامي الإنجازي في الخطاب الشّعري؛ لأنَّ المتلقي في كثير من الأحيان افتراضي أو لا يتلقى الخطاب مباشرة إلا عن طريق وسائط مختلفة في أزمنة متباعدة، وظروف غير الظّروف التي أُبدعَ تحت وحيها الخطاب الشّعري عامة، ذلك أنّ الشّعر المعاصر بدأ يبتعد كثيرا عن الارتجال وردّ الفعل المباشر للمثيرات المحيطة بعوالم الشّاعر، غيرَ أنّه يمكن توقّعُ بعض الأثار التي يحدِثها الفعل الإنجازي في المتلقي بسبب طبيعة القضية وعلاقته بها، أو بأهمية تلك الأفعال على حاضره ومستقبله.

وقد يكون سّياق التّخاطب وانتقاء الملفوظات ذات القوة الحجاجية والبعد التّأثيري على عواطف المتلقي، إضافة إلى الرّوابط الحجاجية وانسجام الخطاب المُعينَ الذي يكفل الوصول إلى استنباط أهمّ تفاعلات المتلقي واستجاباته المختلفة لتلك الأفعال الإنجازية، ومهما يكن الأمر فإنَّ الأثر النّاتج عن

---

[1] يحي سعدوني: أفعال الكلام. من الجملة الإنشائية إلى النّص الأدبي، جامعة البويرة، مجلة المعارف، م9، ع 16، 01-06-2014، ص264.

[2] زغدي محمد الصّالح: تداولية أفعال الكلام في قصيدة لن أبكي للشاعرة فدوى طوقان، جامعة حمّة لخضر الوادي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، م12، ع02، 2020، ص33.

القول في الخطاب الشّعري يبقى نسْبيا مفترَضا، قد يظهر في فعل إنجازي يكون باستجابة المتلقي لمضامين الخطاب كتعديل المواقف والسّلوك، أو النّدم والتحسّر...

2 ـ 1 ـ الفعل التّأثيري في خطاب الآخر (المحبوبة)

يشكّل الخطاب الشّعري في قصيدة "كتبت فوق جدار السّجن" خطابا فارقا في ديوان "نبوءات الجائعين" لأنّ المخاطب يترنّح في خطابه بين دعوة مخاطَبِه إلى الوصل والقرب، لكنّه لا يلبث أن يميل إلى العتاب والوعيد، وإذا كانت الأفعال الكلامية الإنجازية ذات قصدية بارزة، فإنَّ الأفعال التّأثيرية يمكن استقراؤها بناء على الاستراتيجية الخطابية ذات البعد الحجاجي كالاتّكاء على أسلوب المفارقة، والميل إلى استخدام الأفعال الإنجازية التّعبيرية ذات القصدية التّأثيرية على مشاعر المخاطَب، وفي ذلك يقول:

لا تقولي لــماذا ذَابَ فِيَّ جَــوًى هذا الجرِيحُ الذَّبِيحُ البائِسُ الشّاكِي[1]

يتجاوز أسلوب النهي بُعْدَه الطّلبي المباشر، فيخرج بذلك إلى التّقرير وطلب إنجاز فعل آخر بناء على التّكثيف مِن استخدام المُعبّرات في عجُز الشّاهد، وهي استراتيجية خطابية تفترضُ مُسْبقا التّأثير في المخاطَب لكون القول يميل إلى التّأثير الوجداني، فيقول:

لا تعجبِي إنْ سَمِعْتِ الشَّدْوَ في أَلَمِي فإنَّ صوْتَ غِــنائِي لَحْنُهُ بِــــاكِ[2]

يغلب على الشّاهد أفعال الكلام ذات البعد الشّعوري (الشّدو، الألم، الغناء، اللّحن، البكاء) بما يُحيل إلى استهداف عاطفة المخاطَب لِيُبينَ عن مشاعره، وينجز ما يستلزمه من حوار، فيكون الفعل التّأثيري المستهدَف ذا بُعد إيجابي يزيد من التّرابط والوصل، لكون أسلوب المفارقة (الشّدو/ ألمي) (صوت غنائي/ لحنه باك) آلية إقناعية تأثيرية؛ تدفع العقل والعاطفة إلى إعادة بناء الاستلزام الحواري

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 15.

[2] المصدر نفسه: ص 16.

المستهدف من القول عن طريق مساءلة الذات، ذلك أنَّ «النّص الشّعري يقوم على الجمع بين النّظاميْن الإيقاعي والتّخييلي، وهو ما يسمح بخلق نموذج تواصلي تداولي؛ يفضي إلى إنجاز الفعل الأدبي، ويخلق أثرا ناتجا عنه»[1]، وبما أنَّ الخطاب له علاقة بالحالة الوجدانية للباثّ فإنّه يلحُّ على طلب المشاعر التي تزيح عنه غيوم الكآبة وأوجاع النأي ولهيب الشّوق المستبدّ به في عزلة السّجن، يقول في قسم آخر من القصيدة:

يـا حلـوةَ القلْـبِ يَـا أَنْـدَاءَ عَاطِفَتـــي يا لَثْغَةَ اللَّفْـظِ، يا أَشْـذَاءَ نَجْـوَاكِ

يـا أَصْلَ حُـزْنٍ وأَحْـــلامٍ مُجَنَّـــحَـــةٍ بَرِيئَةٌ مِـنْ خَـــيَالٍ أنتِ أَفَّـــــاكِ[2]

تستهدف ملفوظات الشّاهد الأول التي يتضمّنها أسلوب النّداء تحريك عاطفة المخاطَب، وإثارة وجدانه، فهي تميل إلى التّقرير الواصف؛ الذي يرتقي بمنزلة المحبوب طلبا لإنجاز فعل تأثيري يكون من جنس ما يحمله القول، حتى يتحقّق التّأثير المتبادل، نظرا لحاجة المخاطِب إلى هذه الأفعال القولية، وقد استخدم الشّاعر استراتيجية التّوازي في القول؛ التي تشدُّ انتباه المتلقي والمخاطَب بآليتها النّغمية التّأثيرية، فتظهر ردود الفعل التي خطّط لها المتكلّم في بادئ الأمر، فيكون التّفاعل خلّاقا فتنتقل إنجازية الفعل التّأثيري من الملفوظ إلى العالَم.

يتوجه الشاعر في كثير من قصائد ديوان "نبوءات الجائعين" بالخطاب إلى الآخر (ابن الوطن) سواء كان المحبوبة أو ابن الوطن المستضعف؛ إذ كشفت الأفعال الإنجازية عن واقع الأنا والآخر وعلاقتهما تقريرا ووصفا بلغة فنّية أبانت عن مختلف مشاعره تجاه كل مخاطَب بحسب علاقته به، إذ تميزت الأفعال السّلوكية بإنجازية تصوير عواطف المخاطب ومشاعره بعيدا عن محبوبته؛ التي لم تهتم

[1] شيتر رحيمة: تداولية النّص الشّعري. جمهرة أشعار العرب نموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،2008-2009، ص 125.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 17.

لأمره، كما عبرت عن تعاطفه مع ابن الوطن حينا، وعن غضبه وسخطه عنه حينا آخر؛ بحسب الموضوع وتفاعل المخاطب معه .

أما الأفعال التّوجيهية ذات الحمولة المكثّفة برسائل التّحدي والنّضال ورفض الضيم وبعث الهِمّة في نفوس الآخر المستضعف فقد مالت في معظمها إلى التّنويع في الاستراتيجيات الخطابية كالمفارقة وتوظيف بعض آلياتها الفاعلة كالتّهكم، لحمل المخاطب على الالتزام بإنجازيتها، لكونها السّبيل الأنجع لتحقيق طموحاتها والحد من عبث العابثين .

ونظرا لكون المخاطب بحاجة ماسّة إلى ما يسنده في نضاله ضد الآخر؛ فقد استخدم الشّاعر الأفعال الالتزامية ذات الوعود الإيجابية التي تحفّز المخاطب على اتّباع النّهج التّوجيهي، فانحصرت إنجازيتها في رفع معنويات المخاطب وطمأنته بنيل مقاصده .

أمّا بالنّسبة للأفعال التّأثيرية التي يصعب تحديدها في الخطاب الشعري فإنّه يمكن توسُّم ملامحها من خلال الملفوظات التي يتضمنها القول، إذ إن رسالة المخاطب ذات مقاصد سامية؛ لذلك فإن الأثر الذي يمكن أنْ تحدثه في المخاطب سواء المحبوبة أو ابن الوطن يمكن إنجازه، وذلك لتوفّر كثير من مبادئ الخطاب؛ كالصدق والملاءمة والتعاون إضافة إلى استخدام استراتيجية التّلطيف.

2ـ 2 ـ الفعل التّأثيري في خطاب الآخر (المستضعف)

يتضمّن عنوان قصيدة "نحن من أوجاعنا لا نتألّم" أفعالا كلامية إنجازية محتواها القضوي يشير إلى المعاناة التي تطبع يوميات الذّات النّاطقة، إضافة إلى التّعبير عن الموقف الذي تتبنّاه الذّات نتيجة ذلك، وهذا الخطاب لا شكَّ في أنّه يترك أثره على المتلقّي الذي يتقاطع مع الباثّ في كثير من الأمور (الوضع الاجتماعي، الزمان والمكان، الموضوع...) فإنّه يتفاعل بالإيجاب والتّضامن مع المحتوى القضوي ولو اختلفت درجات التّفاعل، ومن الخطابات التي يمكن أنْ تقع من نفس المخاطَب موقع القَبول والرضا فيستجيب لمضامينها بإنجاز أفعال تأثيرية قول الشّاعر:

يـا أخــي لا تشْــكُ جُرْحَــا نَازِفًا ... نحــنُ مِــنْ أوْجــاعِنَا لا نَتألَّــمْ
كمَّمُــوا الأَفْــوَاهَ مـا فِيــنَا سِــوى ... دَمْعَــةٍ تَحْــكِي، وجُــرْحٍ يتكَلَّــمْ
كُــنْ علـى الخَـوْفِ المُغَـالِي ثائــرًا ... وتــعالَ فِــي إبــاءٍ وتقَــدَّمْ
وارفَــعِ السَّيْــفَ ولا تُغْمــدهُ ... إنَّ سيْــفًا مُؤمِــنًا لا يَتَثَلَّــمْ
طَلِّــقِ الــذُّلَّ ولا تَــرْضَ سِــوى ... عِــيشَةٍ في عِزَّةٍ والمَـوْتُ أَسْلَــمْ[1]

يُعدُّ البيت الأول سياقا موجِها للخطاب، وهو القاعدة الاستراتيجية التي يبني عليها الباثّ خطابَه طلبا للفعل الإنجازي الذي ينتظره مِن المخاطَب، إذْ يتضمّن من الملفوظات ما يحقّق مبدأ الملاءمة (يا أخي) وهو سياق يتضافر مع السّياقات اللّاحقة التي تُبينُ عن وحدة المصير (ما فينا سوى دمعة تحكي) لتبليغ رسالة المخاطِب وإمكانية توقّع الأفعال التّأثيرية التي يستنتجها المخاطَب، ويبديها بعد كلِّ فعل إنجازي صادر عن الباثّ.

تظهر رسالة المخاطِب ذات قوة الإنجازية التي تستخدم هذه الأفعال التّوجيهية (كن ثائرا/ تعال/ تقدّم/ ارفع السّيف/ لا تغمده/ طلّق الذّل/ لا ترض) في تكثيف يبرز قصدية الباث الذي يتوقع إنجازا مفترَضا مُسْبقا مصحوبا بأثر إيجابي على نفسية المخاطَب ومواقفه نتيجة هذا التّكثيف؛ الذي يتضمّن

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 91-92.

تلازما بين الملفوظات والعالَم، وعليه فإنّ المخاطَب سيبدي امتعاضا من الأفعال التي قامت بها القوى الخارجية فحرمته حريته وتسبّبت في معاناته وتألّمه، وفي المقابل يشعر بالرّغبة القوية في الإنجاز، لأنَّ المخاطِب استخدم الاستراتيجية الإقناعية حين اتّكأ على مبدأ السّببية في مثل القول (ارفع السيف) (إنّ سيفا مؤمنا لا يتثلّم)، وكان "سيرل" قد ربط بين مفهوم القصدية ومطابقة الكلمات للعالَم بمفهوم السّببية قائلا: «السّببيّة هي علاقة واقعية بين الأشياء والأحداث في العالم»[1].

وترتفع القوة الإنجازية المتوقّعة للفعل التّأثيري حين يدرك المخاطَب إخلاص الباثّ في رسالته، وأنَّ ما أنجزه قبلَه من أفعال تتواءم وما يرجوه مِن مخاطَبه (مبدأ القدوة)، علما أنَّ السّياق الخارجي للخطاب في هذه القصيدة يُبين عن تجربة الباثّ مع المعاناة، وهو ما وقّعه الشّاعر بعد نهاية القصيدة فذكر زمان القول ومكانه، ويمكن اعتبار لك خطابَ نهاية وسياقا معينا على بلوغ الدّلالات المضمرة.

ملخص المبحث الأول

يتوجّه الشّاعر في كثير من قصائد ديوان "نبوءات الجائعين" بالخطاب إلى الآخر (ابن الوطن) سواء كان (المحبوبة، عامة أبناء الوطن، المستضعف) إذْ كشفت الأفعال الإنجازية عن واقع الأنا وعلاقتها بالآخر؛ تقريرا ووصفا، بلغة فنّية؛ أبانت عن مشاعره المختلفة تجاه كلِّ مخاطَبٍ بحسب علاقته معه، إذْ تميّزت الأفعال السّلوكية بإنجازية تصوير عواطف المخاطِب ومشاعره بعيدا عن محبوبته؛ التي لم تهتم لأمره في السّجن، كما عبّرت عن تعاطفه مع ابن الوطن أو صرّحت بغضبه وسخطه عنه بحسب الموضوع وتفاعل المخاطَب معه.

أمّا الأفعال التّوجيهية ذات الحمولة المكثّفة برسائل التّحدّي والنّضال ورفض الضّيم وبعث الهمّة في نفس الآخر المستضعف، فقد مالت في معظمها إلى التّنويع في الاستراتيجيات الخطابية؛ كالمفارقة

[1] جون سيرل: العقل واللّغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، تر: سعيد الغانمي، ط1، الجزائر، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف المركز الثقافي العربي، 1427هـ/2006م، ص 24.

والاتّكاء على بعض آلياتها المناسبة للموضوع؛ كالتّهكّم لحمل المخاطَب على الالتزام بإنجازية الأفعال التي يقترحها المخاطِب، لكونها السّبيل الأنجع لتحقيق الطموحات، والحدّ من عبث العابثين.

ونظرا لكون المخاطَب بحاجة ماسّة إلى ما يشدُّ عضدَ نضالِه ضد الآخر فقد استخدم الشّاعر الأفعالَ الالتزاميةَ ذات الوعود الإيجابية التي تحفّز المخاطَب على اتّباع النّهج التّوجيهي، فانحصرت إنجازيتُها في رفع معنويات المخاطَب وبعثِ الأمل في نفسه لبلوغ أهدافه.

أمّا الأفعال التّأثيرية التي يصعبُ تحديدها في الخطاب الشّعري، غير أنّه يمكن توسُّم بعض ملامحها من خلال الملفوظات التي يتضمّنها القول، إذْ إنّ رسالةَ المخاطِب ذاتُ مقاصد نبيلة سامية، لذلك فإنّ الأثر الذي يمكن أنْ تحْدثه في المتلقي (المحبوبة، ابن الوطن) يمكن إنجازه لتوفّر مبادئ الخطاب كالملاءمة والتّعاون وميلِ المخاطِب إلى استراتيجية التّلطيف.

المبحث الثّاني: تداولية أفعال الكلام في خطاب الآخر (الحاكم)

تتنوّع الأفعال الكلامية في كلِّ خطاب شعري؛ لأنَّ رسالة الشّعر السامية تستدعي العناية بكلّ ما يحقق هذه الغاية أثناء إعادة تشكيل العالَم وتقديم الرؤيا الفنيّة، فتتلاحم البنى المختلفة في نسيج ضام، ويتفاعل الواقع مع عالم التّخييل، فيبنى الخطاب بناءً واعيا بمقتضى المقاصد التي يُحدّدها المبدع سلفا. وفي خطاب الشّاعر للآخر (الحاكم العربي) يستخدم مختلف الأفعال الإنجازية المتنوّعة وأهمّها

1ـ الإخباريات

1ـ 1 الإخباريات في خطاب الحاكم

تسهم الأفعال التقريرية (الحكمية) في الكشف عن طبيعة المخاطَب وسياسته، إذْ يقول في قصيدة "مشاعر في هوى الأردن":

زنزانتي خير مَنْ صَاحبْتُ في زَمَنٍ

الحَاكِمونَ بِه أحْفادُ (هَـــامَانِ)[1]

يعدُّ صدر الشاّهد سياقا يجمع بين المقام والمقال؛ ليُعين على فك شِفرات الخطاب، بينما يقرّر عجز الشّاهد حقيقةَ المخاطَب؛ اعتمادا على المشابهة، فالقول يتضمّن وصفا وتقريرا، ويستهدف فعلا إنجازيا يختلف بحسب زاوية القراءة، فمن زاوية المخاطِب تبرزُ غرضية الفعل القولي الرّافضة لفلسفة المخاطَب، فالحكم بانتساب الآخر إلى (أحفاد هامان) يتضمن انتقادا صارخا، فالإخبار يخرج إلى الإنشاء والطّلب فيُثير التّساؤل، وينقل الدّلالة إلى الاستفهام الإنكاري (لماذا الحاكمون أحفاد هامان؟).

إذا كان السّياق الأول يبرز واقع المخاطَب فإنّه يسهم في بروز شرط الصّدق في هذا الإثبات، ذلك أنَّ «كلّ إثبات هو تعبير عن انتقاد، وأبسط اختبار لتحديد هوية الإثبات هو أنْ نسْأل ما إذا كان

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 46.

المنطوق صادقا أم زائفا»[1]، وعليه فإنَّ فعل القول المتضمّن للحكم هو الاعتقاد الذاتي للمخاطِب انطلاقا من تجربة الذّات في تعاملها مع الآخر، وهذه الاستراتيجية الخطابية ذات بعد إقناعي قد يدفع المخاطَب إلى الإذعان.

ويكثّف الشّاعر من الإخباريات التي تؤكدّ الحكم السّابق على الآخر، فيقول:

كفرتُ (بالبِــسِّ) يزهُو في شَــوارِبِه

يقُودُ مِنْ خَلْفِه قُطْــعانَ فِــئرانِ[2]

تنقل الإخباريات بعض أساليب المخاطَب في تعامله مع رعيته، وتبرز ملفوظات القول (يقود/ من خلفه/ قطعان فئران) الواقع المفارق الذي يُحيل إلى إنجازية الإثباتيات المتمثّلة في الإنكار والتّقريع، ودرجة الإنجاز ات قوّة يبرزها ملفوظ (قطعان فئران)، إذْ تتضمّن استعارة تصريحية تُحيل إلى الاحتقار، وعليه فإنّ الاستلزام الحواري في خطاب النّقد يُبين عن مدى صدق المخاطِب وتفاعله مع الواقع، وهو ما يدفع الآخر ضمنيا إلى مراجعة مواقفه وأفعاله، واللّافت للنّظر في الشّاهد هو طريقة القول في عرض الحكم ثم التّدليل على صدقه وواقعيتِه، إذْ يمكن أنْ يلمح الرّابط الحجاجي (لأن) بين طرفيْ الشّاهد الشّعري.

ينوّع المخاطِب في استراتيجية عرض الإثباتيات، فيستخدم استراتيجية المفارقة كآلية خطابية واصفة ذات بعد إنجازي يتّكئ على السّخرية، فيقول:

يا سَــارِحًا بِجُيُوشِ النَمْلِ في وَطنِي

قَدْ كُنْتَ أَرْأَفَ فِيــنَا مِنْ (سُلَيْــمانِ)[3]

---

[1] جون سيرل: العقل واللّغة والمجتمع، ص 217-218.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 47.

[3] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 47.

إنَّ تقرير حقيقة الآخر لا تتجلى إلا بانسجام الخطاب في إطار كلِيته النّصية؛ ذلك أنَّ الشاهد يتضمّن مفارقة ساخرةً في الوصف، فالمخاطِب يعلم يقينا ـ انطلاقا من مبدأ التعاون ـ أنَّ المخاطَب لم يكن حاكما عادلا، وعليه فإنَ إنجازية الفعل الإخباري تعدُّ تأكيدا لما تضمّنته الإخباريات السّابقة.

وتضمّنت قصيدة "نحن من أوْجاعنا لا نتألّم" بعض الإخباريات التي تقرّر حقيقة الآخر الحاكم، يقول أيمن العتّوم:

آه، ما أَقْســـى وأطْـغى وأَظْـــــلَم

أُمَـــمٌ تعْنُـو، وَوَغْـــدٌ يَتَحـــكَّمْ[1]

تبرز الأفعال الكلامية في مطلع الشّاهد لتؤسّس للخطاب الشّعري الموجّه للآخر الحاكم (أقسى، أطغى، أظلم) وهي مشيرات مقامية تؤكّد الأفعال الإخبارية في عجز الشّاهد (أمم تعنو) (وغد يتحكّم) وهي تعد إثباتياتٍ وأحكاما تصدِرُها الذات الشّاعرة بفعل قناعاتها انطلاقا من الواقع الذي تعيشه، لذلك تعتبر الأفعال الأولى الحججَ المدعّمة للحكم؛ لإقناع المخاطَب بحقيقته لإرغامه على إنجاز أفعال تكون في مستوى تطلّعات المخاطِب، وتأكيدا لهذا الحكم يقول في مقطع آخر:

كمَّمُــوا الأفواهَ مـــا فِينَا سِـــوى

دَمْعةٍ تَحْكـــي، وجُـــرْحٍ يتَكلَّـــمْ[2]

يستخدم الشّاعر استراتيجية التّمويه حين يوظف ضمير الغائب عوضا عن التّصريح بالمخاطَب لغايات خطابية معينة، وفعلُ القول يتضمن تقريريات يتعلّق الأول منها بالمخاطَب، وتتمثّل إنجازيتها في الرّفض والإنكارِ، إذْ تحيل طريقة القول إلى الفعل المنبوذ أخلاقيا (كمّمُوا) وهو ما يرفع من درجة الصّدق والإخلاص، خاصّة وأنّ الوقائع تثبت ما تضمّنته الكلمات.

[1] المصدر السّابق، ص 91.
[2] المصدر نفسه، ص نفسها.

يقرّر الشّاعر حقيقة المخاطَب في قصيدة "نبوءات الجائعين" فيؤكد خيانة الحاكم لشعوبه مستخدما الأفعال الإثباتية في المقطع الثاني قائلا:

لقدْ خَـرجُوا جميعا من جُحورِ الغرْبِ

قد شَرِبُوا حلِيبَ الغَدْرِ مِن ثَدْيِ الضِّباعْ

لمْ يُنكروا أبَدًا ...

وأَجْبَنُهمْ تَعَـرَّى مِنْ نُصوصُ الدَّوْر فوقَ المسْرحِ القوْميِّ[1]

تعدُّ الأفعال الإنجازية الإخبارية في المقطع أحكاما تقريرية، تكشف طبيعة الحاكم العربي، وتفضح سياسته، وقد وردت الأقوال على صيغة الأسلوب الخبري المؤكّد في السّطر الأول والثّاني كآليَّةٍ حجاجية؛ ترفع من قوة إنجازية الأفعال التي تهدف إلى رفض المخاطِب لهذه السياسة، لأنّها تتنافى مع القيم الأخلاقية، وترفضها التّشريعات؛ التي تحدّد علاقة الحاكم بالمحكوم.

يؤكد الشاعر حكمَه بإقرار الحاكم بهذه السياسة من خلال القول الإخباري (لم ينكروا أبدا) الذي يتضمّن فعلا إنجازيا يُؤوَّل على مستوى المتلقّي بالرّفض، وعلى مستوى المخاطَب بالإصرار، ممّا يجعل مسافة التّوتّر كبيرة بين الأنا والآخر، وعليه يتحدّد الاستلزام الحواري.

ويقرّر السّطر الأخير تخلي المخاطَب عن مسؤولياته ذات البعد القومي متّكِئا على الإثباتيات بلغة فنّية؛ تتمثّل إنجازيتها في فضح السّياسة القومية للحاكم العربي، وتتجلّى قوّتها الإنجازية في البعد الاستلزامي لأسلوب التّصوير؛ الذي يدفع المخاطب إلى مقارنة أفعاله بالممثِّل على خشبة المسرح لاستلزام الدّلالة، فيحكمَ بذلك على سياسته الفاسدة.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 21-22.

2 ـ 2ـ الإخباريات في خطاب الآخر (النُوّاب)

يخاطب الشّاعر أعوانَ النّظام وسدَنَة سياستِه القائمة على لجْم الألسن وكَبْت الحرّيات؛ إذْ يتوجّه إلى نواب الأمة بخطاب السّخرية لتقرير حقيقتهم وفضح أساليبهم، فيقول في قصيدة "مجلس اللّمّة":

أَلَمْ تَـرَ كيْفَ أَعْطى رَبُّكَ النُّوّابَ فَصْلَ القَوْلِ والحِكْمَةْ

وأرْسلَهم إلى أَبنائِنَا رَحْمةْ

فجَاوَزْنَا بِــهم بَحْرَ الرّدَى والبُؤْسِ والظُّلْمَةْ
فَمَا قُلِعَتْ أظافِرُنَا...

ولا امْتُهِنَتْ كرامَتُنا

ولا انْتُهِكَتْ لنَا حُرْمَةْ

فسُبْحانَ الذي أَعْطَى وسَلَّمَهُمْ مِنَ التُّهْمَةْ

فكانُوا خَيْرَ مَنْ بُعِثُوا إلى الأُمّةْ[1]

يحدّدُ مطلع الخطاب الفئةَ التي يقرّر الشاعر حقيقتها مُعبّرا عنها بضمير الغياب تغييبا لقيمتها الحقيقية، وإنكارا لمنهجها الفاسد في أداء رسالتها، وتحمل الأقوال أفعالَ الإثبات بأسلوب تهكّمي ساخرٍ حينَ يُنزلهم منزلةَ المرسلين، ويخبر عن دورهم في خلاص الأمة من محنتها، منوّعا استراتيجية الخطاب بين الإثبات والنّفي، ولهذه الإثباتيات السّاخرة قوة إنجازية لأنّ المطابقة معلومة بين الملفوظات والعالَم، ولا يمكن إنكارها، إذْ يمكن للمتلقي أنْ يستلزم البعد الحواري لكلّ فعل قولي، وعليه يتحوّلُ المثبت إلى منفيّ، والمنفيُ إلى مُثْبتٍ، لتقرير حقيقة الواقع، لأنَّ السّياقات الخارجية تُدعّم صدقَ الإخباريات في سياقات المقال.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين: ص 69.

تستهدف الأفعال الإخبارية دفع المخاطَب (النّواب) إلى إصلاح منهجهم وتعديل مواقفهم أو نقد أفعالهم بما يخدم غايات المخاطِب، وقد عبّر عنه في السّطر الأخير الذي يخرج من التّقرير الظّاهر إلى الدّعوة الضّمنية بتحويل صيغة الفعل مِنَ الإثبات إلى التّوجيه (كانوا/ كُونوا).

2ـ التّعبيريات في خطاب الآخر

2 ـ 1ـ الحاكم

تستهدف المعبّرات أو البوْحيات أو الأفعال السّلوكية التّعبيرَ عن الحالات النّفسية التي يشعر بها المتكلّم في موقف معيّن، فهي لا تحتاج إلى شروط الإخلاص والصدق، بل تعدّ معبّراتٍ ذاتية تفاعلية، وفي خطاب الحاكم العربي ما يبرز الحالة الشّعورية للمخاطِب؛ إذْ تُبين عنها الأفعال البوحية في قصيدة "نبوءات الجائعين" يقول الشّاعر:

لقدْ خَرجُوا جميعًا مِنْ جُحُورِ الغرْب

قد شَرِبوا حليبَ الغدْرِ مِنْ ثدْي الضّباعْ

لمْ يُنكروا أبدًا[1]

إذا كانت الأفعال تتضمّن بُعدا تقريريا واضح المعالم في ظاهر القول، فإنّها مشحونةٌ بعواطف المخاطِب؛ إذْ تعبّر عن الحسرة والشّعور بالانكسار والخيبة، لأنَّ المخاطَب انسلخَ عن مبادئه التي يقتضيها منصبه السياسي، فأخذَ دروس العبث والاستبداد عن أعدائه، فأنكرَ واجباتِه تجاه مرؤوسيه، ولعلَ القول (لم ينكروا أبدا) يترجم إنجازية هذه الأفعال؛ نظرا لأنَّ المخاطَب يعتزُّ باستناده إلى فلسفة مستوردة فاسدة.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 21-22.

إذا كان صدْقُ البوحيات يتوقف على شعور المتكلّم أو المخاطِب حسب تجربته الشّعورية وعلاقته بالموضوع والعالَم؛ فإنَّ صدق هذه البوحيات مشترَك بينَ المتكلّم والسّامع معًا لكون الواقع العربي يؤيِّد ما يذهب إليه القول من استلزامات حوارية.

ومن القصائد التي يتحدّد فيها المخاطَب في هذا الباب قصيدة "مشاعر في هوى الأردن"؛ إذْ تبرز علاقة الأنا بالآخر لتُبِين عن الحالة النّفسية للذّات الشّاعرة، وهي تقبع وراء القضبان نتيجة معارضتها للآخر، ومن هذه الأفعال التّعبيرية ما وردَ في قول الشّاعر:

وأَلْهَبُوا النَّارَ في صَدْرِي فَصَيَّـرَنِي

أَفــرُّ مِنْ بَرْدِ نِــيرَانٍ لِنِــيران

لأنّي عِشْتُ لا أرْضــى بِطاغِيّــةٍ

ولا أَذِلُّ لِسمْــــــسارٍ وَخَــوّانِ

ولَسْتُ أقْبــلُ صَمْتًا سَوْفَ يُنْقِذُنِـي

مِنْ بَطْشِ مُنْتَقِمٍ، أوْ ظُلْمِ سجَّانِ[1]

يبرز المقطع الشّعري كثيرا من الأفعال الكلامية المختلفة التي تُجْلي علاقة الأنا بالآخر (الحاكم) ومن ضمنها الأفعال التّعبيرية، إذْ تتجلّى إنجازيَتها في تصوير شدّة المعاناة والغضب من الآخر الفاعل (ألْهبوا النّار، أفرّ) كما يتضمّن التّعبير عن أَنَفة الأنا واعتزازها بمواقفها وقيَّمها (لا أرْضى بطاغية، لا أذلّ لسمسار) وعليه فإنّ القوة الإنجازية تبلغ درجة عالية نتيجة المفارقة الحاصلة بين الحالة الشّعورية والموقف.

وإذا كانت الأفعال التّعبيرية لا تحتاج إلى مطابقة ـ حسب "**جون سيرل**" لأنَّ «المحتوى الخــبري

[1] المصدر السّابق: ص 45.

في التّعبيريات من النّاحية النّمطية ليس له اتّجاه ملاءمة؛ لأنَّ حقيقة المحتوى الخبري يُسلَّم به فحسب»[1]، فإنَّ مبدأ الصّدق والإخلاص في هذه المعبّرات يرتبط بالذّات الشّاعرة دون غيرها، لأنّها وحدها خَبَرت المواقف، فصدرتْ عنها هذه البوحيات، وينتقل الشّاعر إلى من علاقته بالحاكم إلى علاقة الشّعب بهذا الحاكم، فيقول:

شَعْبٌ تَرَأَّسَهُ فـــي شَـــرِّ مِحْنَـــتِهِ

عِصـــابَةٌ مِـــنْ مَجانِينَ وزُعْـــرَانِ

مَبادئُ فـــي هَـــوى الدّنيا مُضَيَّعةٌ

وأَنْفسٌ لَـــمْ تُصْخِ إلا لِشَيْـــطَانِ[2]

تتصدّر البوحيات الأفعال الكلامية في هذا المقتطف إذْ تجلي الملفوظات (عصابة، مجانين، زعران) شعور الأنا بالإحباط لتولّي الفاسدين أمْرَ الشّعب، فدلالة هذه الملفوظات يُحيل إلى الذّم والتّحقير، وهو الفعل الإنجازي الذي يمكن استلزامه أثناء تلقي القول، ثم يبرز نتيجة تولي هذه الفئة لمقاليد الحكم اعتمادا على الأفعال التّقريرية الإثباتية التي تتضمّن أفعالا سلوكية ذات مغزى انتقادي، تشير إليها بعض الملفوظات مثل (شيطان)، ويقول في مقطع آخر من نفس القصيدة:

هُمْ يسْهرونَ على أَمْني أَأَشْتُمُـــهُمْ؟!

شُكْرًا لَـــهمْ ضاقَ بِالعِرْفانِ عِرْفاني

لوْلايَ مَـــا وَجَـــدُوا دَرْبًا لِتَسْـــليَةٍ

ولا أنَا خَارِجٌ مِـــنْ جِـــلْدِ قَرْفـــانِ[3]

---

[1] جون سيرل: العقل واللّغة والمجتمع، ص 219.

[2] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 47.

[3] المصدر نفسه: ص 50.

تعبّر الأفعال السلوكية بسخرية عمّا يشعر به المخاطِب تجاه الحاكم العربي؛ الذي يضيّق الخناق على الحرّيات، فتبرز الأفعال التّعبيرية في مفارقة عجيبة (شكرا لهم) (أنا خارج من جلد قرفان) تُجسّد الحالة الشّعورية للمخاطِب.

2 ـ2ـ النّواب

يخاطب الشّاعر في قصيدة " الصّوت الواحد" نوّاب الشّعب الذين كانوا يعارضون سياسة الحاكم، لكنّهم بمجرد انخراطهم فيها بعد انتخابهم تخلّوا عن مبادئهم، لذلك تبرز الأفعال التّعبيرية البوْحية في خطاب الشّاعر حينَ يقول:

أَشْهَدُ أنَّ النُّوّابَ يَظُنُّون الشَّعْبَ رِعَاعًا

يَضَعونَ على الأَعْناقِ مَفاتِيحَ الجَنَةِ كَقَلائِد

بالأَمْسِ لقدَ قالُوا:

(يا مُوسى إنَّا لنْ ندْخُلَها أبدًا ما دَامُوا فيها

فاذْهَبْ أنتَ وربُّكَ ...)

فاتَّفِقَا

إنَّا كُلٌ عَنْ هذا المَجْلِسِ قَاعدْ[1]

يتأسس الاستلزام الحواري في كلّ خطاب على مراعاة ملفوظات القول على غرار العناية بالسّياقات المختلفة؛ إذْ إنَّ الأفعال الكلامية في هذا المقطع تتضمّن أفعالا تقريرية، ولكنّها تتلوّن بمشاعرَ خاصّةٍ؛ تعبّر عن الحالة الشّعورية للمخاطَب، يضمرها للآخر المخاطَب، وتُحيل إليها بعض الملفوظات (رِعاع، مفاتيح الجنة)، وتتمثّل إنجازيتها في السّخرية ممّن نصّب نفسه في الشّعارات وطنيا مخلصًا، ثم راح يدوس على تلك الشّعارات والمبادئ.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 42-43.

تتجلّى القوة الإنجازية لهذه التّعبيريات في اتّكاء المخاطِب على الوسائل اللّغوية التي ترتقي بالأفعال إلى درجة عالية من الإنجاز، مِنْ ملفوظاتٍ (أشهد) أو استراتيجية التّناص الدّيني التي تناسب الموضوع والحالة الشّعورية (قصّة المنافقين مع النّبي موسى)، وهي آليات تؤكّد مبدا الصّدق والإخلاص، لأنّها تؤكّد اعتقاد المخاطِب وإيمانَه بما يدعو إلى إنجازه، وترتفع درجة السّخرية والغضب نتيجة ما يُبديه المخاطِب من أفعال إنجازية لا تتطابق وطموحات الأنا الشّاعرة المعبّرة عن الفكر الجمعي، إذْ يقول:

ويَا للْعَجَبِ ... لقدْ دَخَلَ الكُلُّ على استحياءٍ زائِدْ

يا نُوّابي ... سِيرُوا في غَيِّـكُم الرّاشِدْ[1]

فهذه المخاتلة التي يمارسها المخاطَب تُثير الاستغراب في بادئ الأمْر ثم تدفع على السّخرية، ذلك أنَ المخاطَب يراوغ شعبه في محاولة إقناعه بدخول مجلس النّواب، وهو ما دفع المخاطِب إلى استخدام الأفعال التّعبيرية البوحية لإبراز موقفه وحالته النّفسية في قوله:

مَاذَا سوف يُساوِي...؟!

أَرْبَعَةٌ تتَجمَّعُ في وَاحِدْ

الدّولـةُ والكُرْسي والمَجْلِس والمُومِسُ

يَا سَجّانِي أَسْرَفْتُ بِوَعْيِي

لا تَظْلِمْني

إنِّي عَنْ وَعْيِي عَـــائِدْ[2]

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 43.

[2] المصدر نفسه: ص 43-44.

يخرج الأسلوب الطلبي إلى التّقرير الذي يُثير ذهن المخاطب وهو يعلم أن المخاطَب لا يخالفه في الاستلزام الحواري، إذْ يخرج الاستفهام إلى التّعبير عن السّخرية والتّحقير، فهو يميل إلى إشراك المخاطَب في هذا الاستدلال، لكي يتمكّن من التّأثير فيه بوساطة هذه المعبّرات، وقد اقتنع المخاطِب من خلال تجاربه مع مخاطَبه بأنَّ اجتماع الأطراف الأربعة المذكورة هو سبب بلاء الأنا الجمعي، فيطفو مبدأ صدق الأفعال الإنجازية التّعبيرية على سطح ملفوظات القول.

كما تُعبّر قصيدة "مجلس اللّمة" عن سخرية الأنا من نواب الشّعب، ومن ضمن ما جاء فيها قول الشّاعر:

ألمْ تَرَ كيْفَ أَعْطى رَبُّكَ النُّوّابَ فصْلَ القوْلِ والحِكْـمةْ

وأرْسلَهم إلى أبْنائنا رحْمةْ

فجاوزْنا بهم بحْرَ الرّدَى والبُؤْسِ والظُّلْمةْ

إلى أنْ يقول:

فشُكرا مِن صَمِيمِ قُلوبِنا يا (مَجْلسَ اللّمةْ)[1]

تتضمّن الأفعال الإنجازية التّعبير عن مكنونات الذات الشّاعرة التي سئمت من هذا المخاطب الذي انحاز للآخر الحاكم، إذْ تجلى ملفوظات القول المفارق بين الحقيقة التي يعلمها الأنا وما يدّعيه المخاطَب (فصل القول والحكمة/ أرسلَهم رحمة/ جاوزنا بهم...)، فالأنا تنقل صورة مفارقة تستفزُ المتلقي ليصدر أحكامَه ويُبين عن مشاعره، فالخطاب يحمل بعدا إنجازيا يتجاوز الدّلالة الظاهرة.

ويبدو أنَّ الشّاعر وشعبه قد ضاقا ذرعا بهؤلاء النّواب، إذ تُعبّر قصيدة "دَوْرُ الشّريفة" عن الضّجر وبلوغ الحالة الشّعورية مرحلة تنخر معها أعصاب المخاطِب.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 69.

3ـ الموجِّهات في خطاب الآخر الحاكم

تعدُّ الأفعال الإنجازية التّوجيهية من أكثر الأقوال حضورا في خطاب الشّاعر للحاكم العربي، لكونه أساس مأساة الأنا الشّاعرة، لذلك يتوجّه إليه بخطاب المساءلة والطّلب، لا ليطلِقَ سراحه؛ بل دفعا إلى تعديل أفعاله لتكون إنسانية في المقام الأول؛ تسهرُ على رعاية الأنا المحكومة، وتحمي حقها في الحياة الكريمة؛ بل تؤدي رسالتها المفترَضة، ويمكن تصنيف هذه الموجّهات إلى:

3 ـ1ـ الأمر:

تعتبر الأقوال الطّلبية التي تتّكئ على صيغة الأمر أحدَ الأفعال التّوجيهية، وإذا كان الفعل الكلامي المباشر يُفضي إلى إنجاز فعل حقيقي يتطابق فيه اللّفظ والمعنى، فإنَّ صيغة الأمر في الفعل الكلامي غير المباشر في الخطاب الشّعري تُفضي إلى استلزام حواري؛ يحدّده السّياق، ومن الأقوال التي يتوجّه فيها الشّاعر إلى الحاكم العربي قوله:

أَطْلِقْ خِرَافَكَ في الشَّوارِعْ

كَمِّ الأَفْواهَ وابْتَدئ المَسيرْ

في ظِلِّ قَافِلَةِ الشَّعيرْ

سِـرْ لا تَقِفْ

سُبحانَ مَنْ أعْطى لَقَدْ جَمَعتْ مَطالبَنا الصُّدَفْ[1]

تتصدّر الطّلبيات المقطعَ الرّابعَ من قصيدة "نبوءات الجائعين"، إذْ يتوجّه فيه إلى الحاكم العربي الذي يفرض سلطتَه على فئات الشّعب، فيجعلها أداة طيّعةً تسعى لتلميع صورته حين يخرجها في المظاهرات المؤيِّدة لسياسته، لذلك وردت الأفعال الموجّهة للآخر لإنجاز الأفعال التي تنبو عن الدّلالة الصّريحة لملفوظ القول، إذْ إنَّ إنجازيتها تخرج إلى النّهي عن الاستمرار في هذه السّياسة، وإذا كانَ

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 24-25.

المخاطَب يعلم أنَّ الطلبيات تحمل تقريريات معلومة، فإنّ صياغة الملفوظات ذات بُعدٍ تهكّمي، لأنَّ الأنا الشّاعرة كشفت عن مخطّطات الآخر الدّنيئة، لذلك تحوّلت إنجازيتها من الأمر إلى النّهي بتهكم وسخرية، أو أنّها تتجاوز ذلك إلى التّحدي، وبما يحيل إلى فشل مخططات الأخر؛ التي وإنْ أنجزت ما تتوسّم فيه نجاح سياستها إلا أنَ الأنا تقف في وجه هذه المساعي، فالقول إذًا يضمر وعْديّاتِ الأنا للآخر، ويمكن تقديمها في هذا الجدول التّوضيحي.

القول	الفعل الإنجازي الظاهر	الكلامي غير المباشر			الفعل الإنجازي
		تقرير	أمر	نهي	
أطْلق خرافك في الشّوارع	طلب	×	×	×	النّهي / السّخرية
ـ كمّم الأفواه	طلب		×	×	النّهي / السّخرية / التّحدي
ـ ابتدئ المسير	طلب		×	×	النّهي / التّحدّي
ـ سرْ لا تقفْ	طلب		×	×	التّحدّي / الرّفض

الشّكل (4) الموجّهات في خطاب الآخر (الحاكم)

إنَّ ما تتضمّنه هذه الطّلبيات من أفعال إنجازية يُفترَض إنجازيتها من طرف المخاطَب، إنّما تعبّر عن أفعال إنجازية من المخاطِب، ذلك أنّها تحمل دلالات الاستعداد لمواجهة الآخر، هذه الإنجازية التي استندت على الواقع الذي تعيشه ونقلته عبر الأفعال التّوجيهية يرفع من قوّتها، لأن شرط الإخلاص فيها يتمثّل في إرادة الأنا وعزيمتها على تقويض قوة المخاطَب وإبطال مزاعمه.

أمّا في قصيدة "نحن من أوجاعنا لا نتألم" فإنّه يرسل خطابَه للآخر اعتمادا على الموجّهات الأمرية؛ التي تظهر إنجازيتها في التّهديد والوعيد، لدفع المخاطَب على الكفّ عن عبثه، إذْ إنّ خطاب

التّحدّي يتطلّب ردّ الفعل المفترَض الذي يؤسّس له المخاطِب من خلال استراتيجياته الخطابية وروابطه الحجاجية، فيقول:

فاقطَــعوا إنْ قضَيْتُم وامْنَــعُوا

كَلِماتي أنْ ترَى النُّــورَ وتَنْعَــمْ

هدّدونِي، وانْصحونِي، وعِظونِي

وعِدُونِي أنَّنــي يوْمــــا ســــأَنْدَم[1]

3- 2- الاستفهام

الاستفهام من الصّيغ الطلبية ويستخدم في الخطاب الشّعري لإنجاز أفعال كلامية؛ تخرج في كثير من الاستخدامات عن طلب الفهم والتّفسير، إذْ أنَّ تنوّع أدوات الاستفهام يُحيل إلى استلزامات حوارية متنوّعة؛ تتحدّد بطبيعة هذه الأدوات وسياق الخطاب وطبيعة المخاطَب...، ومن القصائد التي اتّكأت على الاستفهام في خطاب الآخر قصيدة "المتماسِك" التي يصوّر فيها واقع الأنا المحكومة بتحسّر، لأنّها عجزت عن مواجهته بتذمّرها، ولم تصرّح بفساد فئة الوزراء، فيقول نيابة عنهم:

ومَا قالَ يوْمًا لِأَيِّ وزيرٍ بِشَكْلٍ حضَارِي:

لماذا حِسَابُكَ في البَنْكِ (جَــارِي)

ومِثْلي وَرَاءَ اللُّقَيْمَةِ (جَــارِي)؟!!!

لِماذا تُبَعْثِرُ أمْوَالَ شَعْبي بِصَالاتِ لَعِبِ القِمَارِ؟!!

لماذا تَكُونُ أَساسَ الفَسَادِ

وتُغْلِنُ حَرْبا على الفَسادِ الإدَارِي؟[2]**!!**

[1] أيمن العتوم: نبوءات الجائعين، ص 193.

[2] المصدر نفسه: ص81-82.

إنَّ إجراء الخطاب على لسان الغائب يُعدّ استراتيجية خطابية تستهدف دفع كل أنا مستضعفة إلى الرّفض ومساءلة الحاكم وأعوانه، لكنّها تعبّر عن قناعة الأنا الشّاعرة، وإذا كان السّياق الخارجي يُحيل إلى عجز الشّاعر عن المساءلة بسبب السّجن، فإنّ هذا الواقع في الحقيقة هو جزاء المساءلة، إذْ إنَّ الأفعال التّوجيهية من خلال ملفوظات الاستفهام التّقريري تتجاوز هذه الإنجازية إلى الإنكار والتّذمّر.

تتضافر مختلف الأفعال الكلامية في خدمة الغرض الإنجازي المستهدَف من الطّلب بالاستفهام، وهو دفع وزراء الشعب المزعومين إلى تغيير السّلوكات المذكورة والانحياز إلى الشّعب أداءً للأمانة ووفاءً للفئة التي خرجوا من صُلبها، ولعلَ الدّلالات الواقعية لما تحمله هذه الاستفهامات التّقريرية يبرز صدقَ المخاطِب في طلب الإنجاز، لكونه انطلق من العالَم إلى الكلمات حسب "جون سيرل".

4ـ الوعديات في خطاب الآخر الحاكم

تنحصر أفعال الوعد أو ما يدعى الالتزاميات في خطاب الشّاعر للآخر الحاكم أو من يمثّله في إنجازية تفرضها الظروف الخارجية (الواقع) لكون الأنا الشّاعرة تلتزم بما تؤمن به، وبما يمكن أنْ يتحقّق في الزّمان والمكان، ولعلَ معظمَ هذه الالتزاميات يُعدُّ عقيدة راسخة تدفع على مواجهة الآخر، يقول الشّاعر في قصيدة "لنا صبح نؤمّله":

نمُوتُ مِنْ أجْلِ أنْ تَحْـيا عَقيـــدَتُنا

ولا نَـذِلُّ لجبَّـارٍ وطـــاغِـــينا

لقَدْ وَرِدْنَا على حَوْضِ الهُدَى شَرِفًا

فلا السُجونُ ولا التَّعْذيبُ يَثْنيـنَا

لنَا نُفُــوسٌ يَهابُ المَــوْتُ عِزَّتَــها

ولا تَــنَامُ علـــى ذُلٍّ مَآقِيـــنَا[1]

تعدُّ هذه القصيدة افتتاحية الدّيوان، وهي تتضمّن أفعال الالتزام؛ التي تقطعها الأنا على نفسها، إذْ هي تعبّرُ بضمير المتكلّمين توحيدا للجهودِ وإبرازا للاتّحاد والقوة في مواجهة الآخر الظّالم، تتعهّد الأنا الشّاعرة بمواجهة مشروع الآخر لكونه يحارب العقيدة، ومن الالتزاميات البارزة: رفض الذّل، تحدّي التّعذيب والسّجن، إذ يستخدم المخاطِب هذه الأفعال بصيغة الحال والاستقبال بما يُحيل إلى إنجازية مخطّطٍ لها ستتحقّق على الأرض بفعل القناعة الراسخة لبلوغ الغاية، لأنَّ الأمر يتعلق بالعقيدة، والتّصريح بهذا الأمر يُعدُّ فعلا طلبيا يدفع الآخر إلى التّراجع عن العبث، ذلك أنَّ تداخل الغايات الإنجازية للأفعال الكلامية أمرٌ واردٌ حسب "سيرل" ومن منظور المقاربة التّداولية؛ لكونها تفتح باب الاستلزام الحواري على مصراعيه من خلال مراعاة طبيعة الملفوظات في إطار سياقاتها المختلفة.

ويتحقّق مبدأ المطابقة في هذه الوعديات لأنّها تنطلق من واقع الأنا وتُعبّر عنها بملفوظات القول المشحونة بدلالات الاعتزاز.

يتوعد الشّاعرُ مخاطَبَه بأنْ تقفَ الأنا ضدّ مشاريعه الاستبدادية، ومنها مشروع الصّوت الواحد؛ أيْ الاستفتاء على هذا القانون، فيقول في قصيدة "قانون الصّوت الواحد":

يا مجْلسَ أُمَناءِ الثّوْرةْ...

ما جِئْنَا كي نلْعَبَ (شَدَّةْ)

جِئْنَا لِنُصوِّتَ في صَفِّ الدّيمقراطِيَّةِ

مَع قانُونِ الصَّوْتِ الوَاحدِ أوْ ضِدَّهْ

سَنُصَوِّتُ في مَصْلَحَةِ الطُّهْرِ وَضِدَّ العُهْرِ

أو الكَبْتِ الفِكْريِّ

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 11.

وبَيْعِ قضَايَا الأُمّةِ والتّاريخِ بِسِعْرٍ كَاسِدْ[1]

تُسهم مُختلف الأقوال في الإبانة عن موضوع الخطاب وأطرافه الفاعلة، وطبيعة كلِّ طرف، وتعدُّ الأفعال (جئنا لنصوّت/ سنصوِّت) التزاميات المخاطِب بالإنجاز الذي يتضمّن معارَضة فكر الآخر ومواجهة أساليبه الاستبدادية في الحكم، إذْ إنَّ إدراك المخاطب للأبعاد السياسية يُعدُّ دافعا قويا على إنجاز هذه الالتزاميات وتحقيقها كلّيا، وقد تضمّن القول أفعالا كلامية تُعدُّ الحافز على الإنجاز، من خلال الموازنة بين الفعل الإيجابي والفعل السّلبي (مصلحة الطُّهْر) ضدّ (العُهر/ الكبت الفكري)، وهي سياقات تُحفّز الذات التي يعنيها الخطاب، وتتضمّن إنجازيات مضمرة يُفترَض أنْ يقوم بها المخاطَب لتعديل المشروع أو إلغائه.

كما تلتزم الأنا بالثّبات على المبادئ وعدم الخضوع للآخر في قصيدة " نحن من أوجاعنا لا نتألم" التي يقول فيها:

كِبْرِياءً قَدْ سَمَـــوْنا فَــوْقَ أنْ

نَطْلُبَ العَفْوَ مِـنَ الخَصْمِ وَنُرْحَـــمْ

قدْ سَقَــوْنا المُـرَّ لَكِـنَّا فِـدًى

سوْفَ نَسْقي الوَطنَ الظّامِئَ بالــدّمْ[2]

تُظْهِرُ الوعديات اعتزاز الأنا بكرامتها وتنوعّد الآخر بالنّضال والتّضحيّة في سبيل الوطن والمبادئ التي آمنت بها؛ إذْ تأتي هذه الالتزاميات كردّ فعل على العبث والظُّلم، فهي على قدر عالٍ من الثّقة بالنّفس والإصرار على إنجاز هذه الأفعال، إذْ تتجلّى قوّتها في المقابلة بين الفعل وردّ الفعل (سقوْنا

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 42.

[2] المصدر نفسه، ص 92.

المرّ/ نسقي الوطن)، فالثّابت هو الواقع (العالَم) بينما يعدّ ردّ الفعل هو الوعد والالتزام؛ الذي تبرزه الملفوظات الدالة على المستقبل (سوف نسقي)، ممّا يُحقّق مبدأ المطابقة.

وترتفع قوة الوعديات إلى الوعيد حين يخاطب الشاعر الحاكمَ بضمير المتكلّم، فيجعل الصّراع قضية فردية بعدما كان قضية الأمة، فيقول:

حسِبوا أنِّـــي سأبْقَــى صَامِــتًا

قَدْ خَسِئْتُمْ، فَأَنَا لَسْـتُ بِأَبْكَـــمْ

إلى أنْ يقول:

كَلِمَاتِي سَوْفَ تبْقــى تُحْــيِي ثوْرَةً

كُــلُّ حَرْفٍ خَلْفَهُ جَيْشٌ عَرَمْــرَمْ

هــي لِلْمُؤمِــنِ بَــرْدٌ وسَــــلامٌ

وهْــيَ للطّاغي ولِلْباغِي جَهَنّــمْ[1]

تجلّى إنجازية الوعديات في الثّورة ضد الآخر وعدم الاستسلام لضغوطه (لست بأبكم) ثم تتعاظم إنجازيتها لتتحوَّلَ إلى وعيدٍ، نظرا لإيمان الأنا بقوّة سلاحها (تحيي ثورة، هي جهنم) وكون التّجْرِبة ذاتيّةً واقعية فإنَّ مبدأ الصّدق لا يحتاجُ إلى استدلال، وإذْ توفّرت شروط المطابقة والإخلاص والواقعية فقد أَلْزمَت الفعل الكلامي بأن ينمازَ بالوعديات القابلة للتّحقّق حاضرا ومستقبلا.

[1] المصدر السابق، ص 92-93.

ثانيا: الفعل التّأثيري

2.1ـ خطاب الآخر الحاكم

لا شكَ في أنَّ الفعل التّأثيري أحدُ أهمّ الغايات التّواصلية في توجيه الخطاب للآخر الحاكم في الخطاب الشعري في ديوان "نبوءات الجائعين" لأنّه لا يكتفي بإيصال رسالة الرّفض والانتقاد السّلبي القائم على إبراز الآثار السّلبية لسياستِه فحسب، بل يسعى للتّأثير طلبا لتعديل السّلوك أو تصحيح المسار...وغير ذلك، ولبلوغ تلك الغايات لابدَّ من بناء الخطاب وفق استراتيجيات مُسبقة بحسب نيّة المخاطِب سواءً في تقليل المسافة الاجتماعية بيْنه وبين مخاطَبِه والتي تدعى التّلطيف mitigation وهو «استراتيجية لتقليل أو إنقاص قوة فعل الكلام الذي له آثار غير مقبولة»[1]، أو سَعي المخاطِب لزيادة تلك المسافة لإبراز درجة الاختلاف أو الانفصال مع مخاطَبه، فيميل إلى استراتيجية التّقوية والتّعزيز.

إنَّ الخطاب الانتقادي لسياسة الآخر الحاكم تستهدف التّأثير على المخاطَب، ولذلك فإنّ الشّاعر يميل إلى استراتيجية التّقوية والتّعزيز، ورغم عدم بروز الغايات التّأثيرية في كثير من أشكال القول الشّعري لتداخل الأغراض الإنجازية للأفعال الكلامية، إلا أنَّ بعض الملفوظات تُعدُّ موجّهات للخطاب ومُحدّداتٍ للقوّة الإنجازية، يقول الشاعر في المقطع الأخير من قصيدة "نبوءات الجائعين"

يا أَيُها الجُلَساءُ في قاعَاتِ قُرْطُبَةَ وَرُمَا والخليجِ

وَدُورِ آخِرِ سَاعَةٍ في اللَّيْلِ

[1] Janet Holmes; modifying illocutionary Force.

ترجمة: تهاني سهل العتبي: تعديل القوة الإنجازية، جامعة علي لونيسي البليدة 2، مجلة اللّغة العربية وآدابها، م 06، ع 01، 2018/05/20، ص 192.

قَبْلَ الصّفْرِ مِنْ هَدْمِ القِلاعْ

سَأَقولُ: لا تَقِفُوا اسْتَمِرُّوا في النِّقَاشَاتِ المُفيدَةِ

واسْتَعِدُّوا لِلْقَنَابِلِ في بيانَاتٍ أُعِدَّت

قَبْلَ توْزيعِ النُّصوصِ وَقَبْلَ تَفْريخِ الخِدَاعْ[1]

تُبرِز الأفعال الكلامية في المقطع تكثيفا صريحا في خطاب التّهكّم، إذْ ينتقد سياسة الحاكم العربي، ولعلَ إنجازية بعض الأفعال (التّقريرية/ الطّلبية/ الوعدية) تهدف إلى إحداث الأثر الفاعل في المخاطَب بما يمكن تمثيله بالصّدمة التي تحرّك الوعيَ أو تعيد تنشيطه لمراجعة المواقف أو تعديلها، فإنجازيتها مفترضَة مُسبقا يمكن تحقيقها بنسبٍ متفاوتة بحسب طبيعة المخاطَب، ولعلَ أقلَّ آثارها إيجابية ممْكن التّحقيق هو التّنبيه من الغفلة والإهمال.

يُلاحظ في المقطع استخدام استراتيجية التّعزيز من خلال قوة الأفعال ذات التّأثير السّلبي؛ لأنّها تميل إلى الخطاب السّاخر، والتّقليل من قيمة الأفعال المنسوبة إلى الآخر، إضافة إلى استخدام الملفوظات الحاملة لمدلولات الذّم (الجلساء/ آخر ساعة في الليل/ هدم القلاع/ القنابل/ تفريخ الخداع)، وهي أفعال كلامية حادة الوقع على نفسية المخاطَب، وقد تدفعه إلى التّفاعل الإيجابي؛ إذْ هو غاية المخاطِب، كما يمكنها أنْ تبعث على الرفض والانتقام، غيرَ أنَّ مبدأ الإخلاص والصّدق في عرض الأفعال الكلامية يُعدُّ سلاح المخاطِب القوي لالتزامه برسالة الإنسان من خلال المواجهة والكشف والابتعاد عن استراتيجية التّلطيف؛ إيمانا من الأنا الشّاعرة بعدم جدوى خطاب التلطيف للتّأثير الفاعل في الآخر، وتحقيقا للمبدأ الذي يتضمّنه المثل: آخر العلاج الكي، وهذا الجدول يلخص الفعل التأثيري واستراتيجياته في المقطع السّابق.

[1] أيمن العتوم: نبوءات الجائعين، ص 26.

القول	السّياق	إنجازية الفعل التأثيري	الاستراتيجية الخطابية	ملفوظات التّعزيز	الإنجازية على مستوى المخاطَب
يأيّها الجلساء في قاعات ...	الحاكم	الاستهانة		الجلساء	الحرص على مصلحة الأمة.
ودور آخر ساعة في الليل.	العربي	الاستهانة		آخر ساعة في الليل	
قبل الصفر من هدم القلاع.	فـــي المؤتمرات	الغضب		هدم القلاع	ضرورة الحزم
استمروا في النقاشات المفيدة.	واللّقـــاءات	السّخرية		النقاشات المفيدة	الفاعلية
استعدُّوا للقنابل قبل تفريخ الخداع.		السّخرية		القنابل تفريخ الخداع	

الشّكل (5) الفعل التّأثيري في خطاب الآخر (الحاكم)

ولا يزال الشّاعر يعمد إلى التّكثيف في استراتيجيته السّابقة وممارسة نهجه الخَطابي النّاقِد للآخر مستخدما الأفعال الإنجازية ذات البعد التّأثيري، فيقول:

إنَّا مَلَلْنَا الزَّيْتَ في كَاساتِكمْ...

والزَّيْفَ في أَفْواهِكُمْ...

والأَسْوَدَ المَسْمُومَ في الورَقِ المُذاعْ

لسْنا حضُورَ تَفَاهةٍ ... تلهو بنا الأحزابُ

والجبهاتُ تنْقُلُ فكْرَنا بالهاتِفِ النّقّالِ

مِنْ بَحْرِ اجْتِماعٍ لاجْتِماعْ[1]

[1] المصدر السّابق: ص 26.

ينتقل الخطابُ من انتقاد الحاكم العربي على مستوى السّياسة الخارجية إلى عرْض سياسته الدّاخلية وآثارها السّلبية على عموم الأنا المحكومة، إذْ يميل المقطع إلى استخدام الأفعال الكلامية التي تتضمّن زعزعة نفس المخاطَب بخطاب التّقريع؛ لعلَ ذلك يؤدّي دورَ المنبّه له من خطاب الولاء المخدّر، فإنجازية الأفعال التأثيرية (غرضها) من زاوية المخاطَب تتمثّل في إيقاظ الوعي المسؤول، والالتزام برسالة القيادة النّاجعة خدمة للشّعوب.

يتزامن مبدأ المطابقة في هذه الأفعال بين الموضوع وملفوظات القول، فيمكن أن يُلمَح الأثر بعد سماع الأفعال الكلامية، فيُتوقَّع حدوث أفعال إنجازية مختلفة، تتعلّق أساسا باستعدادات المخاطَب وقدرته على الاعتراف أو نيَّته في التّفاعل مع الموضوع، وإنْ كان "جون سيرل" يرى «أنّه ليسَ من الضروري أنْ يكون لكلِّ فعلٍ تأثير في السّامع يدفعه إلى إنجاز فعل ما»[1]، فإنَّ خطاب النّقد السياسي في الشّعري يجد صداه عميقا إنْ على مستوى المخاطَب المباشر، وإنْ على مستوى المخاطَب الافتراضي، فتتعدّد الأفعال التّأثيرية على المستويين، لكون الخطاب يتماس مع الواقع، ويعرض ما تعجزُ الأنا عن البوح به.

وقد اتّكأ الخطاب على استراتيجية التّعزيز في خطاب الآخر، إذْ تعمل ملفوظات القول المعجمية على زيادة قوة الذّم والاستهجان (الزّيف، الأسود المسموم، تفاهة...)، وهي وإنْ كانت ذات تأثير سلبي على المخاطَب، فقد تُنتِجُ أفعالا إنجازيةً تأثيرها إيجابي بدرجات متفاوتة.

ولَعلَ الشّاعر لا يستهدف زيادة مسافة التّباعد الاجتماعي بينه وبين مخاطَبه رغم عمل هذه الملفوظات المعجمية على تحقيقها في ظاهر الدّلالة، وما يشدُّ الانتباه في المقطع قد يكون مستوى المطابقة بين الأفعال الكلامية والواقع الذي فرضه الآخر على حياة الأنا.

[1] محمود حجي الصّراف: في البراغماتية، ص 55.

2 ـ 2ـ الفعل التّأثيري في خطاب الآخر (النّائب)

تسعى المقاربة التّداولية إلى متابعة الفعل التّواصلي في وضع الاستعمال المحدد بالسياق والبحث في أبعاده الإنجازية، أما عن الفعل التّأثيري فهناك مَن يرى أنّه «ليس من الضّروري الاطمئنان لتحقيق الفعل التّأثري للحكم على الفعل الإنجازي بالنّجاح»[1]، فإنَّ طبيعة هذه المقاربة تفتح باب الاستلزام الحواري المُعين على كشف كثير من التأثيرات التي يمكن أنْ تحقّقها الأفعال الإنجازية، وفي خطاب الشّاعر للآخر الذي يُمثّل الحاكم على مستوى هيئة النّواب، يسعى إلى التّأثير لإحداث التّغيير الإيجابي الفاعل، يقول الشّاعر في قصيدة "دَوْرِ الشَّريفة":

عندنا النَّائِبُ مَرْهُونُ بِتَغْيِيرِ القَطِيفَةْ

فهْو قَبْلَ المَنْصِب الرَّسْمي...جِيفَةْ

وهْوَ بعْدَ المَنْصبِ الرّسْميِّ ...

مَسَّاحٌ لِخَلْفِيّاتِ أَوْلاد الخَليفَةْ[2]

يتأسّس الخطابُ في هذه القصيدة على المفارقة التي تُبنى على أفعال كلامية؛ تميل إلى الحكم والتّقرير، لكنّها تستهدف غايات خطابية يمكن استلزامها من خلال تفاعل مختلف الأفعال الكلامية وتقاطع إنجازيتها، إذْ يمكن توقّع ما ينجزه المخاطَب من ردود فعل قد يصنَّف بعضها ضمن الأفعال الإنجازية؛ التي يطمح إليها باثّ الخطاب، دلك أنَّه عندما «نقول شيئا ما يترتّب عليه عادة إحداث

[1] أيمن العتوم: نبوءات الجائعين، ص 43.

[2] المصدر نفسه، ص 67.

بعض الآثار على الآخرين بتعديل أنظمتِهم المعرفية وعاداتهم السّلوكية»[1]، إذْ يمكن أنْ يغيِّر النُّواب (أو بعضهم) من فكرهم السّلبي تجاه وظيفتهم، كمقاطعة الانتخابات النّيابية مثلا.

إنَّ ميلَ الشّاعر إلى تعزيز السّخرية وزيادة قوة الذّم يعمل على نشر ثقافة الاستحياء من هذه الوظيفة ومقاطعتها، فإنجازية القول (مسّاح لخلفية أولاد الخليفة) تثير الحفيظة، وتدفع المخاطَب إلى الحرص على تغيير الصّورة التي انطبعت في خلفية الأنا كنسق ثقافي ثابت، ومن هذه الصّور ما يذكره الشّاعر في قوله:

فإذا أُعْفِيَ مِنْ تِلكَ الوَظيفة

صَارَ ردَّاحًا لإسْقاطِ الحكومَاتِ

بِإعدَادِ البَيَانَاتِ السَّخِيفَةْ

صَار مَنْ كانَ عَمِيلا قَبْلَهَا

يدْعُو لإبْرَازِ العَمالاتِ الحَلِيفَةْ

هكذَا ... في كُلِّ مَبْغَى

تَلْعَبُ المُومِسُ - إنْ لمْ تَشْتَهي - دَوْرَ الشَّرِيفَةْ[2]

ينقل المقطع صورةً واقعية عن المخاطَب في بلاده، وتحوُّله عن مبادئه، إذْ يلبس لكلّ عهد عباءته، إذْ إنَّ تقل هذه الصّورة لا يهدف إلى تقريرها بقدر ما يسعى إلى إحداث الأثر الإيجابي من خلال كشف النّفاق السّياسي لنواب الشّعب، فقد يكون التّطهير وفق نظرية المسرح أحدَ أبعاد الأفعال التّأثيرية

[1] محمود حجي الصّراف: في البراغماتية، ص 43.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 67.

المستترة وراء ملفوظات الاستهجان، (ردّاحا، البيانات السّخيفة، عميلا، المومس)، وهي استراتيجية تعزيز وتقوية إنْ لم تحقّق الأثر الإيجابي المنتظَر من المخاطِب، فإنّها تعمل على نشر الوعي في الأوساط الشّعبية؛ التي تكون مِعْول شقائها لأنّها تُزكّي سياسة الحكم وتنتخب النّواب.

ملخص المبحث الثّاني

يمكن القول أخيرا إنَّ الأفعال الإنجازية في خطاب الآخر (الحاكم العربي، نواب الشّعب) قد أبانت عن مدى تذمّر الأنا الشّاعرة، ومن خلالها الأنا المحكومة من سياسة الحاكم العربي، فعبّرت عن رفضها لأشكال الاستبداد، إذْ أسهمت بعض الأفعال الإنجازية في تقرير الواقع، فكانت حمولتها الشّعورية طافحة بمشاعر التّحسر والغضب، بينما وُكِّلَ بعضُها الآخر بتوجيه رسالة الأنا إلى الحاكم وأعوانه، فكانت الموجّهات أبرز الأفعال الكلامية شيوعا، لحاجة الخطاب إليها، ولوضوح ملفوظاتها عن غيرها (صيغ الطّلب).

لم تكتفِ الأنا في خطابها بتقرير الواقع (العالَم) ووصفه فقد قدّمت من خلال الأفعال الوعدية التزامها برسالة الوطن والحرية، فعزمت على النّضال وتحدّي أساليب الحاكم الاستبدادية.

وقد غلَّب الشّاعر في خطابه استراتيجية التّعزيز والتّقوية لتعديل القوّة الإنجازية لأفعال الكلام؛ التي تضمّنها الخطاب الشعري في ديوان "نبوءات الجائعين"، ولعلَّ التّوجّه إلى هذه الاستراتيجية يهدف إلى إحْداث عميق الأثر في الآخر لحمله على إنجاز الأفعال الطّلبية ومراعاة مشاعر الأنا المحكومة المستضعَفَة (إنجازية الفعل التّأثيري المستهدف)، لذلك توسّم المخاطِب أنْ يكون لأفعال الكلام الأثر الإيجابي على المخاطَب لتعديل مواقفه، وتصحيح منهجه في إدارة الملفّات الدّاخلية والخارجية، رغم اختيار المخاطِب للملفوظات التي تُحيل إلى الأثر السلبي نظرا لتوجّهه إلى الذّم والاستهجان.

المبحث الثّالث: تداولية أفعال الكلام في خطاب الآخر (الأجنبي).

أولا: الأفعال الإنجازية

تعد قصيدة "دمانا عند رب العرش أغلى" القصيدة الوحيدة التي يتوجه فيها الشّاعر إلى الآخر (أمريكا، اليهود) ذلك أنَ نظم ديوان "نبوءات الجائعين" مرتبط بسجن الشّاعر، فأغلب خطاباته يتمحور حول قضية الحرية والنّضال ضد القمع الفكري الذي يمارسه الحاكم، وحول ما يخالجه من أفانين الشوق والذكرى، ولا شك في أنَّ للآخر الأجنبي صلةً من بعيد في سجن الشّاعر، لأنّ سياستَه تجد صداها في البلاد العربية بقمع الحريات، لذلك تأتي هذه القصيدة لتعرض علاقة الأنا الشّاعرة بالآخر الأجنبي،

وتنشطر القصيدة باعتبار المخاطب الأجنبي إلى قسمين، إذْ يخاطب في القسم الأول أمريكا ثم يتوجه إلى خطاب اليهود في القسم الثّاني.

1ـ الإخباريات في خطاب الآخر الأجنبي

1ـ 1 ـ أمريكا

يخاطب الشاعر–باسم أنا العربي–الآخرَ الأجنبي أمريكا مستخدما الأفعال الإخباريّة الإثباتية، التي تقرّرُ بعضَ الوقائع، وتنقل بعضَ الأحكام التي تجسّد علاقتَه بالأنا، فيقول:

دِمـــانَا فِي المَـزادِ فَسَاوِمِـينا[1]

يتضمن السّطر الافتتاحي للخطاب تقريرا واصفا بلغة مجازية تُبِينُ عن مركزية الآخر وهامشية الأنا، وهو حكمٌ مشترك تُجزم به الأنا العربي، إذ تثبت الوقائع تسلّط الآخر، وتدخُّله في إدارة شؤون العالم، لذلك ينقل الشّاعر كثيرا من هذه الوقائع، فيقول :

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 77.

نَمُـــوتُ وليسَ مَنْ يَأْسَـــى عَلْينا

ونُرْمَى فـــي السُّجونِ مُكبَّلِيـــنا

نُسَـــاقُ إلى المَحاكِم دُونَ ذَنْـــبٍ

على اسْـــمِ عَدالَةٍ عَفِنَتْ قُـــرُونَا

قَـــــوَانِـينٌ لـــــغربيٍّ لَـــــئِيمٍ

ومـــازِلنا لـــها مُسْتَعْـــمَرِيـــنا[1]

تمثل هذه المنتخبات من الأفعال التّقريرية صورة واقعية ومشهدا تعيش الأنا وقائعه وتفاصيله، فمال الشّاعر إلى الإعلان عنه بقولٍ يتراوح بين السّخرية من الذات، والتّقريرية الصّادمة، ومن الأفعال التقريرية ما ورد بصيغة الماضي (عفنت قرونا) الذي تبرز إنجازيته في إظهار تجذر الآخر بسلطته على الأنا والضاربة في عمق التاريخ تأكيدا على أن ما تعيشه الأنا اليوم هو تحصيل حاصل، وحتمية قد تعايشت معها، وهي تكتوي بنارها .

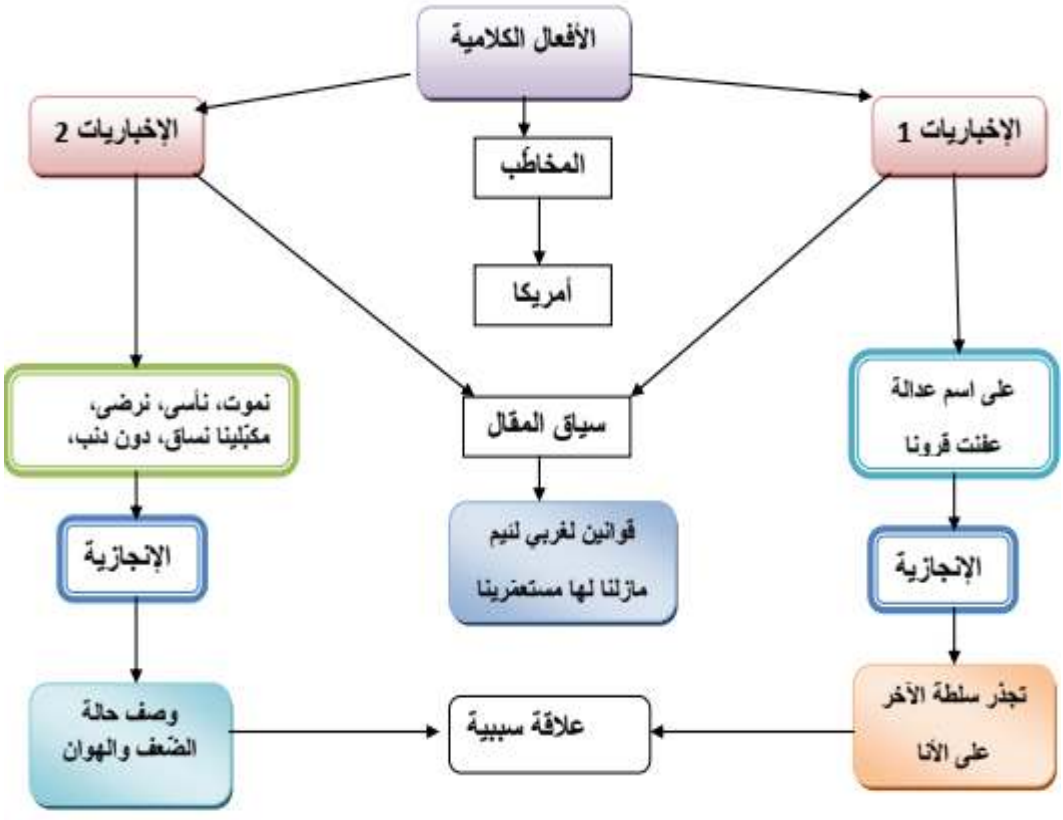
أما التقريريات التي اتّكأت على الزمن الحاضر المستمر (نموت، نرمى، نساق، ما زلنا) فإنجازيتها التقريرية تتمثل في إثبات الحال، بتحويل دلالة الزّمن إلى الماضي المستمر لتكون العلاقة بين فعل القول الأول وهذه الأقوال علاقةً سببية.

تفترض الأفعال الإنجازية الإخبارية تطابقا يكون «من الكلمات إلى العالم–أو من القول إلى العالم–فهي تجعل المحتوى القضوي متماثلا مع العالم»[2]، ذلك أنّ ما تنقله الأفعال السّابقة قد انمازَ

[1] أيمن العتوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 78.

[2] محمود حجي الصراف: في البراغماتية، ص57.

بالصّدق، لأنّ تجربة الأنا الذّاتية تعدّ صورة من صور العالم التي يفرضها الآخر على الأرض، وبناء على ذلك يمكن تجسيد تداولية الأفعال الإخباريّة في المخطط الآتي:



الشّكل (6) الإخباريات في خطاب الآخر الأجنبي (أمريكا)

1ـ 2ـ الإخباريّات في خطاب الآخر الاجنبي اليهود

بعد توجيه الخطاب إلى أمريكا ينتقل الشّاعر في القسم الثّاني من القصيدة إلى خطاب اليهود، فيصور الواقع الذي فرضه هذا المخاطَب بمباركة حليفهِ الأمريكي، ومن الأفعال الإخبارية ما ورد في قول الشاعر:

إذا قتلُوا لنَــا ألْــفًا شَجَبْــنَا

وقُمْــنا بالصُّـــــراخِ مُنَـدّدِيــنا[1]

إذا كان صدر الشّاهد تركيبا شرطيا يتوقف حصول جوابه على حصول شرطه، فإنّ القول يتضمن تقريرا وإثباتا؛ لأنّ فعليْ التّركيب الشّرطي متحققان في الواقع، وتبرز الإثباتيات في السّطر الثّاني، فإنجازيتها تقرّر العجز عن المقاومة وردّ الفعل المناسب عن عبث الآخر اليهودي وأعوانه، فالمطابقة حاصلة حصولا فعليا لا افتراضيا، ونقلها يتجاوز التّقرير إلى إنجازيات مختلفة، وانطلاقا من ذلك فإنّ مبدأ الصّدق والإخلاص تثبته الملفوظات الدّالة على الماضي المستمر (قمنا، منددينا).

ويستمر المخاطِب في نقل صور الواقع وتقريرها، فيقول :

وأمَّـــا اليَهُودُ فلـــهُمْ أَمَـــانٌ

مَتى سَفَـــكُوا دِمَــانا وامْتَطُــونَا

فكــمْ مِن قَاتِلٍ قَـدْ حاكَـــمُوهُ

بِحبْــسِ ســـاعةٍ مُسْتَـــــكْثِرينا

يُغَرَّمُ ثلثَ (سِنْتٍ)، أوْ (أَغُــورًا)

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص78.

ويُطلــــقُ بعدَها حُـــــرًّا مَصُــونَا[1]

تميل الأفعال الكلامية في المقتطف إلى تقرير علاقة الاختلاف والمفارقة بين المتكلم والمخاطَب، فتبرِزُ الأفعال الإثباتية حجمَ الفجوة الغائرة بين المركزي (اليهود) والهامشي(نحن) إذ لا يتوقف إثبات الجرم على المخاطَب وحدَه (سفكوا، امتطونا)، بل يتعداه إلى القوى المساندة له (لهم أمان)، وتبلغ إنجازية الأفعال بُعدا آخرَ حين تُبين عن فلسفة الآخر في التّعامل مع جرائمه بالسّخرية من المظلوم، بما يُصطلح عليه اللعب على الأذقان(حاكموه بحبس ساعة، مستكثرينا، يغرم ثلث سنت، يطلق حرا، مصونا)، إذ يلجأ المخاطِب إلى استراتيجية التّعزيز لشحن الإخباريّات بقوة الإنجاز السّلبي، التي تقتل الأنا مرتين، إذ لا تجد الأنا أمامها سوى اللّجوء إلى رفع معنوياتها بإثبات مكانتها التي نصّت عليها عقيدتها، فيقول :

دِمـــانا عندَ رَبِّ الـــعَرْشِ أَغْـــلَى

وإنْ هَــانَتْ عَلـــى المُتآمِـــرِينا[2]

تعدُّ الأفعالُ الكلاميّة الإنجازية في الشّاهد إقرارا أُحاديَ الطّرف، تتمثّل إنجازيتُه في المفارقة التي تبعث على الثّقة والاعتزاز والتّحدي، لأنَّ صدقَ الأفعال يعتمدُ على الإيمان والاعتقاد الجازم.

2ـ التّعبيريات في خطاب الآخر الأجنبي

2 ـ 1 أمريكا

يتضمّن خطاب الشّاعر للآخر (أمريكا) أفعالا معبّرة عن الحالة النّفسية من جرّاء ما يخلّفهِ فعل المخاطَب على الأنا العربي، لذلك ينتقد سياسته المعادية للإنسانية، فيقول الشّاعر:

[1] المصدر السابق، ص 78-79.

[2] المصدر نفسه، ص 79.

نُسَـــاقُ إلـــى المَحَاكِـمِ دونَ ذَنْبٍ

علـــى اسْمِ عَدَالَةٍ عَفِنَتْ قُـــرُونَا

قَـــوانِينٌ لِـــغَرْبِـــيٍّ لَئِيـــــمٍ

ومَـــازِلْنَا لـــهَا مُسْتَعْمَرِيـــــنَا[1]

إذا كان الشّاهد سياقا تخاطبيا يحدد أقطاب عملية المساءلة؛ فإنّه يترجم شعور الأنا بالإحباط، وهي تُقاد إلى السّجون بريئة، لأنَّ الفاعل يستجيب لسلطة الآخر الأجنبي؛ الذي أسّسَ للاستبداد، فكان الحاكم العربي آلة تنفيذ هذه السّياسة، فملفوظات القول المعبّرة عن الحالة النّفسية (نساق دون ذنب/ عدالة عفنت قرونا/ غربي لئيم/ مستعمرينا) تكشف عن مسافة التّباعد الإنساني بين الباثّ ومُخاطَبه، وإذا كانت التّعبيريات لا تحتاج إلى مطابقة؛ فإنّ إنجازيتها تتعدّى الأنا الشّاعرة إلى كلِّ مُتلقٍ للخطاب بفعل خروجها عن المنظومات القيمية والتّشريعات البشرية.

ويُورد الشّاعر في المقطع الموالي بعضَ نتائج السياسة الآخرية الفاسدة، بما يزيد من تأزّم الحالة النّفسية فيقول:

نَبُوسُ نِعَالَ أمْريكا لِتَرْضَـــى

ونَطْلُبُ وُدَّها مُتذَلِّلِـــــينا

كَذَا تُرْعَـــى كَرَامَتُنا وَتُعْلَـــى

جِـــبَاهُ الأَوْفِيَاءِ الصّـــادِقِينَا؟!![1]

[1] المصدر نفسه، ص 78.

يُوظِّف المخاطِب أفعالا تعبيرية ذاتية؛ لأنَّها وليدة التجربة المريرة مع الآخر، إذْ تتجلّى إنجازيتها في إبراز مدى الألم والتّحسر الذي آلَ إليه وضعُ الأنا، كما تُبين عن الرّفض والانتقاد، وإذْ يستخدم ملفوظات تعزيز قوة الإنجاز (التّحسّر، الرّفض) بدلالة الحاضر والمستقبل فإنّه يستهدف استمرار الموقف والحالة الشّعورية، أمّا استراتيجية المفارقة بين إنجازية الأنا وإنجازية الآخر فإنَّ ذلك تكثيف من استراتيجية التّعزيز، لإبراز حجم المعاناة النّفسية (نبوس/ ترضى)(نطلب/ متذلّلينا) (كرامتنا، الأوفياء/ متذلّلينا).

2 ـ 2 اليهود

إنَّ ذكر ملفوظ (اليهود) في الخطاب الشّعري يُحيل إلى نسق فكري عقدي مختمر في خلفية الأنا العربي، وإيراد هذا المخاطَب يكون في الخطابات مقترنا بذكر الحليف الدّائم (أمريكا)، لذلك فإنّ الشّاعر يتوجّه بالخطاب إلى اليهود في القسم الثّاني من القصيدة مبرزا علاقة التّحالف وأثرها على الواقع وعلى نفسية كلِّ أنا عربي فيقول:

إذا قتلُوا لنَــا ألْفًا شَجَـبْــنَا

وقُمْــنا بالصُّراخِ مُنَـدّدِيــنا

رخُصْنَا بَيْنَ أنْفُسِـنَا وَهُـــــنّا

كَأَنَّا أَلِفْـــــنَا أَنْ نَهُـــــونَا

وأمَّا اليَــهُودُ فلـــهُمْ أَمَـــانٌ

مَتى سَفَكُـــوا دِمَـــانا وامْتَطُونَا

[1] المصدر السّابق، ص 78.

فكمْ مِن قَــاتِلٍ قدْ حاكَمُـــوهُ

بِحبْـسِ ســـــاعةٍ مُسْتَـكْثِرِينا

يُغْرَّمُ ثلثَ (سِنْتٍ)، أوْ (أَغُـورًا)

ويُطـلقُ بـعدَها حُرًّا مَصُـــونَا[1]

إنَّ إيراد هذه الأفعال الكلامية يتجاوز بُعدَها التّقريري إلى التّلميح بما تشعر به الأنا نتيجة هذه الإثباتيات التي تصوّر العالَم، فحالة الأسف والحسرة على مستوى الأنا تترجمها ملفوظات (قتلوا، شجبنا، قمنا بالصّياح، نهون...)، التي تعبّر عن انتقاد الذّات التي بلغ بها الهوان درجة الرضا والتّسليم، كما تبرز الأفعال السّلوكية التي تترجم الحالة الشّعورية التي يتسبّب فيها الآخر اليهودي، وقد حظيت جرائمُه في حق الأنا العربي بمباركة السياسة المركزية العالمية، وقد بلغ الأمر باليهود وحلفائهم أنْ مارسوا القتل مرّتيْن؛ المرّة الأولى حين تقامُ المحاكم الصّورية لمرتكبي الجرائم في حق الأنا، ممّا يجعل المخاطِب يستخدم الأفعال المعبرة عن إنجازية الاستنكار والسّخط (لهم أمان، حبْسُ ساعة، مستكثرينا، يغرّم، يطلق حرا) إذْ يتأسّس الخطاب على مفارقة صارخة تجعل نفسية الأنا تنازعها حالتان؛ حالة تسبّبها الذّات بضعفها، وأخرى ناتجة عن عبث اليهود ومباركة أعوانهم.

إنَّ الاتّكاء على المقابلة بين موقف الأنا وفعل الآخر، أو فعل الآخر ورد فعل الأنا يجعل الحالة النّفسية تتأرجح من انكسار إلى انحسار، وإنْ كان شرط المطابقة غير مطلوب في الأفعال التّعبيرية؛ فإنّ استراتيجية المقابلة قد عملت على تجسيد واقعية الملفوظات على العالَم، وصوّرتْ العالَم من خلال ملفوظات القول.

[1] المصدر السابق: ص 78-79.

أمَّا مبدأُ الصّدق والإخلاص فقد جسّده استخدام ضمير المتكلّمين، لكون المخاطِب تجرّد من الذّاتية، ويمكن القول أنّ عدم ترتيب بعض التّعبيريات قد أحدث خللا جزئيا في انسجام الخطاب؛ لأنَّ تقديم بعض الأقوال عن بعضها، أو الميل إلى الفصل بين بعض التعبيريات كاد يُخرج الاستلزام الحواري عن سياقه، ومثال ذلك اعتماد الفصل بين ما قام به الآخر (القتل) وبين القول الذي يصور هوان الأنا؛ أيْ السطر الشّعري (رخصنا بين أنفسنا...) الذي يعدُّ نتيجة لما يؤول إليه الوضع، فتموضعه لم يكن مناسبا.

أوْرد الشّاعر بعض المعبّرات عن الحالة الشّعورية المخالفة حين توجّه إلى تقرير عاقبة الأنا والآخر من منظوره العقدي، فبيّن مشاعرَ الاعتزاز والرّضا رغم الذّل والهوان المفروض، فيقول:

دِمَـــانَا عِنْدَ رَبِّ العرْشِ أَغْلَـــى

وَإِنْ هَـــانَت عَـلـــى المُتَآمِرِيـنَا[1]

إذا كان الشّاهد يرفع من هِمّة الأنا ويُعيد لها بعض الهدوء النّفسي؛ فإنّه يستهدف استلزاما حواريا يكسر شوكة الآخر ويتوعّده بالفشل.

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 79.

3 ـ التّوجيهيات في خطاب الآخر الأجنبي

3 ـ 1 ـ أمريكا

تحمل الأفعال التّوجيهية رسالةَ الأنا الشّاعرة إلى الآخر الأجنبي، فالمخاطِب لا يكتفي بالتّقرير وتصوير انفعالاته أمام عبث الآخر، إذْ لابد من ردود أفعال تناسب الموقف، ومكانة المخاطِب الاجتماعية، وإمكاناته المتاحة أمام مخاطَب يُعدّ افتراضيا بالنّسبة للأنا الشّاعرة، لأنّه لا يمثّل سلطة سياسية، فالتّوجيهات التي يسعى أنْ ينجزها الآخر تعدُّ طموح الأنا الجمعي، إذْ إنَّ «كلّ توجيه هو تعبير عن رغبة بأنْ يقوم المستمع بالفعل الموجّه»[1]، ومن التوجيهيات التي تضمّنتها قصيدة "دمانا عند رب العرش أغلى" ما جاء في قول الشّاعر:

دِمـــانَا فـــي المَزَاد فَسَاوِمِينَـــا

وَصُبِّـــي الكَأْسَ مِنها واشْرَبِيـــنَا[2]

يميل الخطاب الشّعري إلى استخدام الأفعال الكلامية ذات الإنجازية البارزة في هيئة الطّلبيات التي افتتحت بها القصيدة (ساومي، صبّي، اشربي، كم تدفعي)، إذْ يعدّ ذلك استراتيجية يعمَد إليها المخاطِب الذي له سلطة على الآخر، فينحرف عن استراتيجية تهيئة ذهن المخاطَب واستمالته قصد الإنجاز، إذْ إنَّ هذه الطّلبيات تجعل المخاطَب ذا سلطة تدفعه إلى إصدار الأوامر رغم سلطته المحدودة وفاعليته السّلبية في الموضوع، إذْ يعدّ مفعولا به في مضمون القول.

وذا كانت ملفوظات القول التّوجيهي لا يتطابق فيها اللّفظ مع المعنى؛ فإنّ الإنجاز يحتاج إلى استلزام حواري، لابد أنْ يلتفت إلى السّياق الخارجي المرتبط بالقول، إذْ يمكن للأمر أو النّهي أن يكون

[1] جون سيرل: العقل واللّغة والمجتمع، ص 218.

[2] أيمن العتوم: نبوءات الجائعين، ص77.

فعلا كلاميا غير مباشر، وإنجازيته تحافظ على طبيعته الطّلبية، فإنّ اعتبار الأنا سلعة تعرضُ نفسها للبيع في ظل سيطرة الآخر على السّوق يجعل الأنا تطلب مقابلا مناسبا لقيمتها، ذلك أنّ إنجازية هذا الطّلب هو دفع الآخر إلى تقرير الأمور وحسن النّظر، أيْ أنَّ الأنا تحتاج إلى ردّ اعتبار وتقدير، فبُعدُه التّداولي يقرر حقيقة الأنا، وحقيقة تعامل الآخر معه.

يمكن تأويل إنجازية الأفعال التّوجيهية (صبّي، اشربي، كمْ تدفعين) على النّهج السّابق، إذْ يُفترَض أنْ يلتفت المخاطَب إلى أفعاله، ويراجع مواقفه، ويكفّ عن سوء تقديره لما تفترضه العلاقة مع الآخرين، فالإنجاز مُفترَض، ويمكن قبوله أو رفضه وإهماله، ولعلَ الإنجازية الثابت تحقّقها تتمثّل في المكاشفة والتّصدّي للآخر بالتّصريح التزاما برسالة الأنا في ظل صمت مَنْ تُوكَل لهم هذه المسؤولية.

ويستمر المخاطِب في توجيه أوامره للمخاطَب مستخدما الأفعال الكلامية غير المباشرة ذات البعد التّوجيهي بطريقة السّخرية، فيقول:

ضَعِي ثَمَنًا كَما قدْ شِئْتِ بَخْــسًا

وَكُــونِي فــي عِــدَادَ الزَّاهِــدِينَا

فَإِنَّــا أُمّــةٌ وَسَــطٌ وَلَسْــنَا

نُرِيدُ سِــوى رِضَاكِ فَسَامِحِــينَا[1]

يحيل ظاهر اللّغة إلى موضوع المبادلات التّجارية، فهو خطاب ضمني لا يفهمه الآخرون، لأنَّ المخاطَب الحقيقي فيه هو المخاطِب نفسه، أو هو فئة من فئاته، لذلك يمكن اعتبار الإنجاز المطلوب على مستويَيْن بحسب المخاطَب (الحقيقي/ الافتراضي) والذي يعنينا هنا هو المخاطَب المصرَّح به

[1] المصدر السّابق، ص 77.

(أمريكا)، فإسقاط موضوع التّجارة على واقع الأنا في تعاملها مع الآخر يجعل الاستلزام الحواري يحدّد طبيعة طرفيْ التّخاطب، وإذا كانت ملفوظات التّوجيه تميل إلى استراتيجية التّلطيف، فإنَّ ذلك يعود للبعد التّهكّمي للخطاب؛ الذي يبْعث على الرّفض، لكون المخاطب قد بنى توجيهاته على الواقع الذي تعيشه الأنا (قد شئت) واستعار من أفعال الحياة ما يُترجِم حاجة الأنا وطلباتها.

3 ـ 2 ـ اليهود

ينتقل الشّاعر في القسم الثّاني من القصيدة إلى خطاب اليهود مستخدما الأفعال الكلامية التي تقرر الوقائع، كما يستخدم الموجّهات المباشرة؛ التي تتّكئ على الأساليب ذات الصّيغة الطّلبية غير المباشرة، التي تتضمّنها الأساليب الخبرية؛ التي تخرج إلى الإنشاء، يقول الشّاعر بعد أن يحدد المخاطَب ويُعدّد جرائمه:

يُغَـــرَّمُ ثُلْـــثَ سِـــنْتٍ أوْ أَغُـــورًا

وَيُطْلَقُ بَعْدَها حُـــــرًّا مَصُـــونَا

فيَا لَلْحُزْنِ ماذَا قَدْ تُسَـــاوِي دِمَـانا

مِـــــنْ دِمَـــــاء الكَافِـــرِينَا؟!![1]

يتضمّن القول توجيها ضمنيا، فالقول يُشير إلى استفهام إنكاري، لذلك فإنَّ إنجازية المساءلة تحيل إلى الرّفض والإنكار لدفع المخاطَب إلى الكفّ عن الفعل، وما يلبث المخاطِب أنْ يستخدمَ فعل التّوجيه المباشر تكثيفا للأفعال الكلامية، إذْ يتضافر نداء التّحسّر واستفهام الإنكار لتحقيق الإنجازية الأولى.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 79.

لقد تضمّن الشّاهد مِن الملفوظات ما يُحيل إلى المطابقة في الخطاب التّوجيهي الذي ينطلق من العالَم إلى الملفوظات حين ينقل بعض الصّور الواقعية (يغرّم، يُطلَق)، وإذا كان مبدأ الإخلاص في الموَجِّهات يعود إلى رغبة المخاطِب التي تبرزها طبيعة الموضوع وقيمته وما يوظّفه من أدوات بناء الخطاب؛ فإنّ استخدام "نحن المشتملة **Inclusive we**"[1] يعطي الخطاب بُعدَ الشّموليّة؛ الذي يحيل إلى توحيد الصّوت المخاطِب، ثم يقول:

دِمانَا عِنْدَ ربِّ العــرْشِ أغْـــلى

وَإنْ هَانَتْ عـــــلى المُتآمــرينَا[2]

يعدُّ الشّاهد ردّا على عبث الآخر واستبداده، وإنْ كانَ ظاهر اللّغة يحيل إلى أفعال إنجازية تقريرية واصفة، فإنّ البعدَ التّداولي لهذا الخطاب في إطار السّياقات السّابقة يتضمّن فعلا إنجازيا غرضه التّحذير، إذْ يقدّم ما يدفعه على التّراجع والكَفّ عن عبثه حين يذكّرُه بعقيدة الأنا، وتلك استراتيجية تعزيز لقوة الفعل الإنجازي.

[1] جورج يول: التّداولية، ص 191.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 79.

4ـ الالتزاميات في خطاب الآخر الأجنبي

يفرض موضوع الخطاب الذي يتوجّه فيه الشّاعر إلى الآخر الأجنبي (أمريكا، اليهود) أفعالا إنجازية؛ يتوعّد فيها مخاطَبه بالمواجهة والرّفض، وتحدّي التّسلّط والعبث، ومن منظور "جون سيرل" فإنَّ فعل التّهديد من الإلزاميات، إذ يقول: «والتّهديد إلزامي أيضا، ولكنّه بخلاف بقية النّماذج، ضدّ مصلحة المستمع ولا يعود عليه بالنّفع»[1]، وفي قصيدة "دمانا عند ربّ العرش أغلى" تبرز الإلزاميات في القسم الذي يتحدّث عن سياسة الفساد في الأرض العربية، إذْ يقول الشّاعر:

نُحبُّ بِلادَنَا ونَمُـــوتُ فِيـهَا

ولا نَرْضَـــى لَها صُلْحًا مُشِـــينَا

ونَحفِـــرُ لِلْيَهُودِ بِـها قُبُـــورًا

ونَحْمِلُ ضِدَّهُـــمْ حِـــقْدًا دَفِـــينَا[2]

يؤشِّر الخطاب في هذا المقطع على سياقٍ خارجي يتحقّق فيه مبدأ التّعاون، فالحديث عن الصّلح يقتضي وجود الصّراع على الأرض، وهو مؤشِّر على مفاوضات السّلام المزعومة ودعوات التّطبيع مع اليهود، لذلك فإنَّ الفعل الكلامي الذي يقرّرُ مكانةَ الأرض عند الأنا يُعدُ مِن الوعديات لوجود الإصرار على التّمسّك بها، فالفعل الإنجازي (نموت فيها) يتضمّن تعهّدًا صريحا بعدم التّنازل مهما كانت حالة الأنا، وهو بدوْره يُحيل إلى تعهّد آخر؛ تتمثّل إنجازيتُه في عدم التّخلي عن أيِّ شبرٍ منها (لا نرضى لها صُلحا مُشينا)، لأنّ عرضَ الصّلح موصوفا بفعلٍ سلبيّ يُحيل مُسبقا إلى طبيعة التفاوض ونتائجه، وهو ما يجعل المخاطِبَ يُصرُّ على الإنجاز الصّريح أيْ الدّفاع عن الأرض.

[1] جون سيرل: العقل واللّغة والمجتمع، ص 218.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 79.

يبعث استخدام الوعديات بدلالة الحاضر والمستقبل (نموت، لا نرضى) على قطع الطّريق أمام الآخر في قضيّة تنازل الأنا عن تعهّداتها في أيِّ زمن، وقد تجاوزت الالتزاميات بعْدَها الإنجازي الأول فخرجت إلى التّهديد والوعيد، بتفعيل استراتيجية التّقوية والتّعزيز؛ التي تُبين عن الرّغبة القويّة الصّادقة والتّدرّج في مواجهة الآخر.

إنَّ انسجام الخطاب العام وبنائه المنطقي (عرض الفعل، الالتزام بردّ الفعل، الوعيد) واستخدام الملفوظات ذات البعد المعجمي الصّريح (نحب، نموت، نحفر، نحمل) مع طاقاتها الدّلالية المنفتحة في إطار السّياق العام، كلُّ ذلك يرفع من حجاجية الخطاب وقوّته الإنجازية.

تتعاظم الالتزاميات في القصيدة، فتتعدّد إنجازيتُها لكنّها تصبُّ في مصلحة الأنا وأرضها، بما يثبت التّشبّعَ بقيم العقيدة والإيمان بقضيّتها في صارعها مع الآخر، وفي ذلك يقول أيمن العتّوم:

بِلادِي لِلْيهودِ لَظَــى جَحِيــمٍ

ونَأْنَفُ مِثْلَهُــمْ أَنْ يَخْدِمُــونَا

أَنَأْمَنُهُمْ وَهُــمْ أَحْـفَادُ غَــدْرٍ

وَمَــنْ مَكَــرُوا بِقَـتْلِ المُرْسَلِينَا

فَكَيْفَ نَمُــدُّ أَيْدِيــنَا إِلَيْــهِمْ

ونَرْضَــخُ لِلْــوُلاةِ الخَائِنِــينَا[1]

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 79-80.

إنَّ انتقال الشّاعر من التّعبير باستخدام "نحن المشتملة" إلى المفرد المتكلّم يبعث على التّحدي الصّريح؛ لأنّ الخطاب يعبّر عن الإنجازية المؤكدة، وغرضه من هذا التّهديد هو إبراز ما تُكنّه كلُّ "أنا" للآخر من رفضٍ ومعاداة تحفِّز على ردّ الفعل المناسب لجرائمه، ومن ذلك طموح الأنا في جعل الآخر خادما لها، وهو التزام مُضمرٌ، يُحيل إلى انقلاب تسعى إليه الأنا (نأنَف أن يخدمونا)، وقد يعود عدم ذكر الوسائل المؤدية لهذا الغرض من طرق الخطاب الشّعري الذي يميل إلى الحذف، ويدفع إلى استغلال الطّاقات الذّهنية في الاستلزام الحواري.

يخرج الخطاب الشّعري الذي يستخدم الأساليب الطّلبية (الاستفهام) في الأسطر الشّعرية الموالية إلى الدّلالة الخبرية ذات البعد الالتزامي، وعن إمكانية محافظة الجملة «المستخدمة في إنجاز الفعل الكلامي غير المباشر بمعناها الحرفي أو تجردها منه وتحولها إلى إفادة المعنى غير المباشر(أو المجازي بتعبير البلاغيين العرب) تبنى الفيلسوف "**سيرل**" مقاربة استدلالية **inferential** و ذهب إلى أنّ الجملة تحتفظ بمعناها الحرفي ويضاف إليها المغزى أو القوة غير المباشرة المقصودة من إطلاق الجملة»[1]، لذلك فإنّ الاستفهام الإنكاري مُعَزَّزٌ بالأفعال التّقريرية (أَنأْمنهم، هم أحفاد غدر، مكروا بقتل المرسلين)، وهو ما يحوِّلُ مدلولات الاستفهام إلى الالتزام بمبدأ معاداة الآخر مع تقديم الحجّة التي تقنع المخاطَب والسّامع معا، لأنَّ الرّجوع إلى التّاريخ ومسلّماته من خلال تجارب الأنا مع الآخر يكفي لانتهاج الأنا لهذه الإنجازية، فالاتّكاء على الخلفية التّاريخية والعَقدية يجزم بإيمان الأنا برسالتها، ويحقّق للخطاب مصداقيَتَه (أحفاد غدر، مكروا، قتل المرسلين).

ينصرف الخطاب إلى مخاطَب ثانٍ يُعدُّ عونا للآخر في صراعه مع الأنا، إذْ يوحي الاستفهام الإنكاري (كيف نمدّ أيدينا إليهم؟!) إلى ولاة العرب الذين خانوا القضيّةَ، وعليه فإنّ إنجازية هذا القول

[1] ينظر: هشام إبراهيم عبد الله خليفة: نظرية الفعل الكلامي، ط1، لبنان، مكتبة ناشرون، 2007، ص 510.

تُغلق باب الرّضوخ للسّلطة التي تمثّل الأنا، فتهدّد مشروعها في إخضاع الأنا للآخر، إذْ يمكن استلزام البعد التّداولي لهذه الاستفهامات التّقريرية بما يؤكّد عزمَ الأنا على الرفض والتّهديد والوعيد، ولعلَ الواقع خارج نصّي يثبت فشل هذا المشروع؛ إذْ لولا معارضة الأنا الشّعبي لبلغَ التّطبيع ما خَطّط له الآخر.

ويبلغ خطاب الوعيد درجات أخرى من القوة الإنجازية، حين تتحدّى الأنا كلَّ القوى الدّاعمة للآخر، وفي ذلك يقول الشّاعر:

إذا كَــانَ الجِــهَادُ يُعَدُّ جُــــرْمًا

وَإِرْهَـــــابًا فَـــــإِنَّا مُجْــرِمُــونَا

وَإِنْ كَانَ التَّــطرُّفُ في يَهُــودٍ

فَـــــــإِنَّا أَوَّلُ المُتَطَرِّفِيـــــــنَا[1]

ينقل الخطاب الشّعري واقعَ الأنا في صراعها مع الآخر، إذْ يبرز تحالف القوى الفاعلة على إخضاع الأنا، فيعد دعوة الجلوس إلى المفاوضات بداعي الصّلح المزعوم، تفرضُ هذه القوى منطق تجريم الأنا وسياستها المقاوِمة، وإذا كان الخطاب يُوجز هذه الأفعال وينْأى عن التّصريح بها؛ فإنَّ ذلك من باب تحقّق مبدأ التّعاون في الخطاب، لأنَّ أطراف عملية التّواصل تدرك تفاصيل الأمر، وعليه يلجأ المخاطِب إلى تحدّي هذه القوى ويتوعّدُها بالجهاد المُحرَّم في تشريعاتها الظّالمة (إنّا مجرمونا...).

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 80.

تُحيل ملفوظات القول الالتزامي إلى الدّلالة السّلبية من زاوية أثرها على الآخر، وللأنا حقّها في تحويل دلالتها لإيمانها بأنَّ القوة الإنجازية للوعيد ذات بعد إيجابي؛ يغلق أبواب الصّلح أمام الآخر وكلِّ أعوانه.

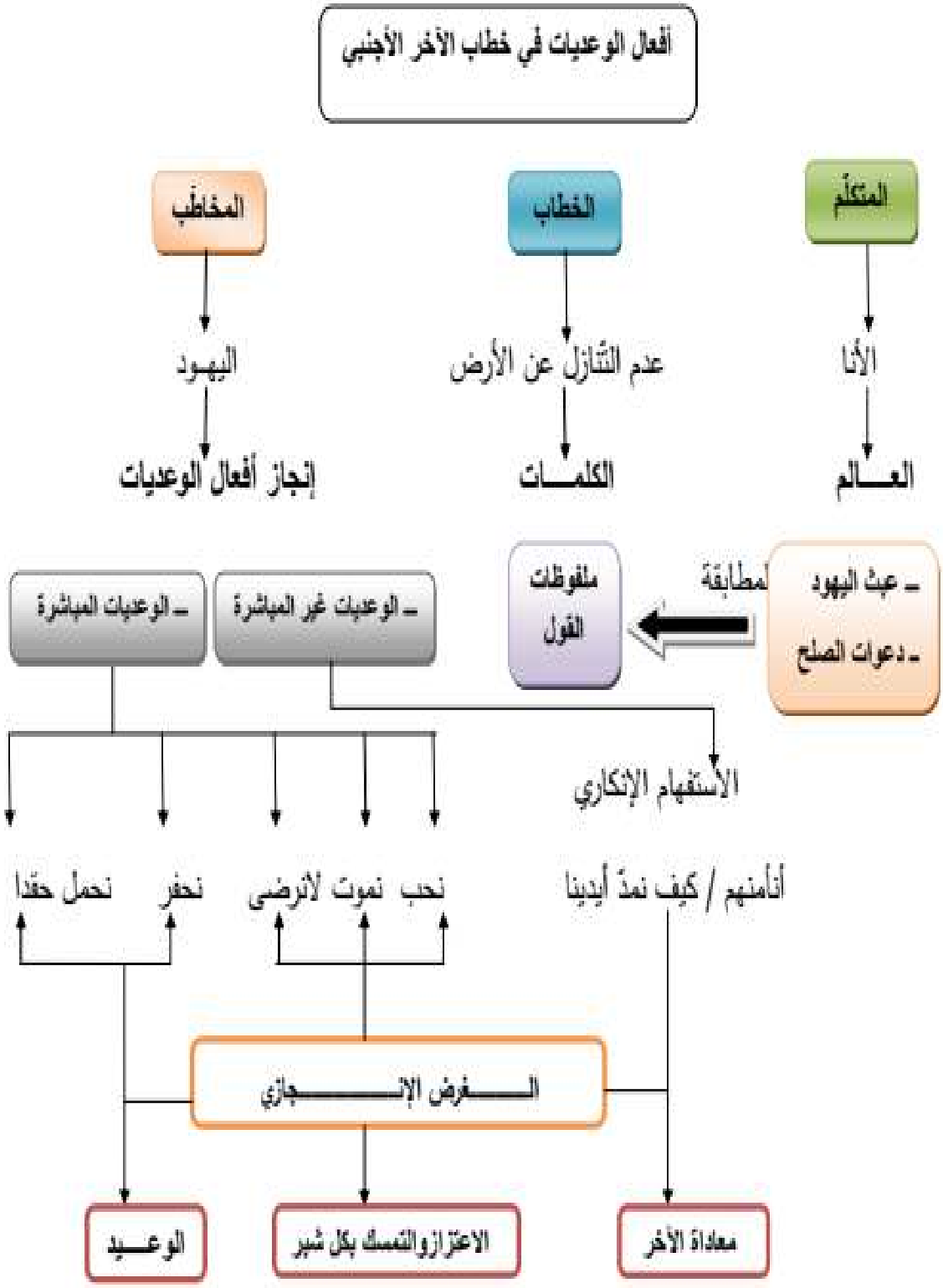
إنَّ استخدام الجملة الخبرية المؤكّدة لإبراز البعد التّداولي لأسلوب الشّرط يعدُ استراتيجية حجاجية، تتضمّن تقويةً وتعزيزا لفعل الالتزام، يمكنه أنْ يحقّق للمخاطِب غايتَه في آخر القصيدة إذْ يقول الشّاعر:

لــنَا عِنْدَ الإلَــهِ جِــنَانَ خُــلْدٍ

وهُمْ وَسْطَ الجَحِيمِ مُخَلَّدُونَــا[1]

ترفع الأنا الشّاعرة من طاقاتها الحجاجية في الرّفض والوعيد ببيان عاقبة الصّراع مع الآخر، وإذا كان منطلق هذه القناعة هو عقيدتها الرّاسخة، فإنَّ اللّجوء إلى هذا القول الذي يتضمّن وعدًا للأنا الجمعي بتحقيق غاياتها يعدُّ تحذيرا أوّلا للآخر الذي يعمل على خيانة القضيّة، ومن خلاله توعّد الآخر اليهودي بخسارة القضيّة، وتوعّده بالعقاب اللائق.

[1] المصدر نفسه، ص نفسها.



الشّكل (7) الوعديات في خطاب الآخر الأجنبي

ثانيا ـ الفعل التّأثيري في خطاب الآخر الأجنبي

يرى "**سيرل**" أنَّ «الأفعال التّأثيرية لا يجب أنْ تؤدّى قصديا بالضّرورة، قد تُقنع شخصا بشيء ما، أو تدفعه إلى فعل شيء أو تزعجه أو تُحيِّره دون أنْ تقصد ذلك»[1]، وهذا الأمر ينطبق كثيرا على اللّغة العادية في عملية التّواصل؛ التي قد تظهر آثارها من خلال إنجاز المخاطَب أو السّامع لفعل ما، أو إبداء التّفاعل بالإيماءات المختلفة، غير أنّه في الخطاب الشّعري يصعب تحديد الآثار التي تحدثها الأفعال الكلامية؛ إذْ يمكن أن تُسْتلمَح بعض الأثار على السّامع أو القارئ، لكنّ المخاطَب الحقيقي قد يكون تلقيه مفترَضا أو قد لا يتلقّى الخطاب المباشر، وإذا أردنا البحث في تأثيرية أفعالنا في الخطاب الشّعري؛ فإنّ السبيل المُعين على ذلك هو بنية الخطاب وقدرة المخاطِب على الإقناع، وبما أنَّ الشّاعر في قصيدة "دمانا عند ربّ العرش أغلى" يخاطِب الأجنبي، فهو يسعى لإنجازه أفعال تّأثيرية بحسب الموضوع.

2 ـ 1 ـ أمريكا

يخاطب الشّاعر أمريكا فيتناول قضية تدخّلها في شؤون الأنا العربي، ويبعث برسائل الرّفض والاستنكار عبر الخطاب الشّعري، وسواء استهدف التّأثير مسبقا أو لم يلتفت إليه لاعتبارات مختلفة أهمّها مكانة المخاطَب (شخص معنوي)، فإنّ اللّغة الشّعرية في إطار السّياق تحمل بعضَ ملامح الفعل التّأثيري؛ فيما لو أمكن إيصالها إلى الآخر بالطّريقة التّداولية الصّحيحة (ترجمة، اللّغة الأصلية)، ومن الأفعال الكلامية التي تختزن طاقات التّأثير ما وردَ في قول الشّاعر:

دِمـــانَا فـــي المزادِ فساوِمـــينَا

[1] جون سيرل: العقل واللّغة والمجتمع، ص 203.

وصُبِّي الكَأْسَ مِنْها واشْــــرَبِينَا[1]

يُحيل مطلع الخطاب الشّعري إلى فعل القول الذي يبعث على الاشمئزاز والاستنكار (صبّي/ اشربي) لأنّ السّياق القبلي يحدّد طبيعة الفعل فيشحنُه بدلالات سلبية لا إنسانية، إذْ يقع القولُ في النّفس السّليمة موقع الرّفض، ممّا يترك أثرَه على كلِّ مُتلقٍّ أو سامع، فافتتاحُ الخطاب بهذا القول مؤسّسٌ على افتراض مسبق من المخاطِب؛ يستهدف أفعالا تأثيرية، إنْ على مستوى المخاطَب المصرّح به (أمريكا)، وإنْ على مستوى المخاطَب الضّمني (الأنا العربي).

يبني الشّاعر خطابَه للآخر بناء مُنْسجما، إذْ يذكر علّةَ تلك الأفعال الكلامية التي ينسبها للمخاطَب، فاستراتيجيته تعتمد على عرض النّتيجة المرفوضة، التي تضمّنها مطلع القصيدة، ليثير في المتلقّي لهفة البحث عن الأسباب، فيتعلّق بالخطاب الشّعري، ويتهيّأ للاستلزام الحواري المنطقي، ومن تلك الأسباب التي تُعبّرُ عنها الأفعال الكلامية ذات البُعد التّأثيري ما جاء في قول الشّاعر:

قَـــوانـــــينٌ لِـــغَرْبِيٍّ لَئِيـــمٍ

ومَـــــازِلْنَا لَـــها مُسْتَعْمَـــرِينَا[2]

تُحيل التّقريريات الواصفة إلى رفض استعمار الأنا فكريا، وهي تدفع المخاطَب إل الانسحاب من حياة الأنا، ومن التّدخّل في شؤونها، فوصفُ الآخرِ باللّئيم والمستعمِر يُثير المخاطَب ويستهدف ردّ فعله بما تتطلّعُ إليه الأنا.

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 77.

[2] المصدر نفسه، ص نفسها.

واللّافت للنّظر في خطاب الآخر الأمريكي هو بروز الأفعال التّأثيرية ذات البعد السّلوكي، بما يُحيل إلى أنَّ استخدام الملفوظات ذات العلاقة بالتّأثير النّفسي هو أوّل استراتيجية لدفع المخاطَب إلى مراجعة مواقفه، وتصحيح فلسفة العلاقة مع الآخر.

2 ـ 2 ـ اليهود

يحتل خطاب الآخر اليهودي معظم مساحة النّص الشّعري في قصيدة "دمانا عند ربّ العرش أغلى" لأنّه يتناول قضية الصّراع العربي اليهودي وأبعاده، وإذْ يعرض الشّاعر جرائم المخاطَب؛ فإنّه يبعث برسائل الأنا المختلفة، وأهمّها التّمسّك بالأرض، ولذلك تبرز الأفعال الكلامية؛ التي تستهدف التّأثير في الآخر لثنيه عن عبثه ومحاولاته اليائسة في الاستحواذ على الأرض، وتقويض القوّة المعنوية للأنا العربي، وفي ذلك يقول الشّاعر:

وأَمَّـــا اليَهُودُ فَلَـــهُم أَمَـــــانٌ

مَتى سَفَكُوا دِمَـــانَا وامْتَطُـــوْنا[1]

يضمِر الشّاهد الشّعري مساءَلَة الآخر عن جرائمه، بما يفترض تقديم العلّة أو الاعتذار عن الجرم، ذلك أنَّ ملفوظات القول (سفكوا، امتطوا) تُبرِز القيمة السّلبية التي ينكرها المخاطِب، وتحتاج من الآخر ردّ الفعل الإيجابي، إذْ يعتبر القول تقريرا وانتقادا ومساءلة؛ تستوقف المتلقي والسّامع، وترغِمه على إبداء الموقف والحُكم، إذْ يطمح المخاطِب إلى استجابة في مستوى تطلّعاته، ويسترسل المخاطِب في عرض استنكاره لجرائم اليهود، فيقول:

فكمْ مِـــنْ قَاتِلٍ قَـــدْ حاكَمُـــوهُ

بِحَبْسِ سَـــــاعَةٍ مُسْتَكْثِرِينَا

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 78.

يُغَرَّمُ ثُلْثَ "سِنْــتٍ" أَوْ "أَغُــورًا"

وَيُطْلَــقُ بَعْدَها حُــرًّا مَصُــونَا[1]

يركّزُ المخاطِب على الإثباتيات التي تستفزُ المتلقي للتّأثير فيه إيجابا أو سِلبا بحسب موقعه من الموضوع، ولَعلَّ هذه عرض القضية بعد تعداد جرائم القتل والاحتقار يعدٌّ جريمة أخرى؛ تعمل على إضعاف الأنا نفسيا حين ترى القاتل يَمرُ على المحكمة في مشهد صوري، ثمّ تتمُّ تبرئتُه، عندئذ يصيبها الغمّ ويسيطر عليها اليأس، وإذْ يلتفت المخاطِب إلى هذا الفعل فإنّه يعبّر عن التذمّر ويقدِّم مساءلته للآخر لدفعه إلى الكفّ عن هذا العبث، كما يبعث برسائل المساءلة إلى حليفه (أمريكا) لإبداء الموقف، ثم طلب العدالة والقصاص للآخر بما تقتضيه الشّرائع.

يستخدم المخاطِب استراتيجية التّقوية والتّعزيز من خلال التّكثيف في الملفوظات التي تثير السّامع والمتلقي، وتطلب ضمنيا فعلا تأثيريا على مستوى الموقف والحالة الشّعورية، وإذا كان التّأثير على المشاعر أضعف الإيمان؛ فإنّ الواقع يثبت أهمّية ردود الفعل التي انطلقت أساسا من التّأثير العاطفي، وحرّكت الضمير العالمي فخرج مساندا للأنا في قضيتها (المظاهرات المناهضة لليهود ومن اليهود أنفسهم أنموذجا).

كما حملت الوعديات في الخطاب الشّعري بعدا تأثيريا واضحا حين يتوعّد المخاطَب بالعقاب الذي يناسب جرائمه، فيقول:

ونَحْفِــرُ لليَــهُودِ بِها قُبــورا

ونحمِلُ ضِدَّهُــــم حِقْدًا دَفِينَــا

بلادي لِليهودِ لَظَــــى جَحــــيمِ

إلى أنْ يقول:

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 79.

لنَا عِنْدَ الإلَـــهِ جِنَـــانَ خُلْـــدٍ

وَهُـــمْ وَسْطَ الجَحِيمِ مُخَلَّـــدونَا[1]

يتضمّن المقطع أفعالا إنجازية يتعالق فيها الوعد والتّأثير، فيبرز خطاب التّخويف في ملفوظات (نحفر، قبور، حقد، دفين، لظى، جحيم)، إذْ إنَّ التّكثيف في المعجم اللّغوي للوعديات يرفع من القوة الإنجازية التّأثيرية؛ التي تستهدف دفع المخاطَب إلى تصحيح مواقفه، والتّخلي عن فلسفته، والجلاء عن الأرض، لأنّ النّهاية تقرّرها عقيدة الأنا، وانطلاقا من استخدام آلية المقابلة (لنا/ هم) (جنان خلد/ وسط الجحيم مخلدون)، فاللّجوء إلى العقيدة يُبين عن مبدأ التّعاون في الخطاب؛ إذ يُحيل تداوليا إلى إدراك الآخر لقيمة العقيدة في نفس الأنا، وتخوُّفه من أحكامها التي تقرّر عواقبه.

ملخص المبحث

تعدّ قصيدة "دمانا عند ربّ العرش أغلى" القصيدة الوحيدة في ديوان "نبوءات الجائعين" التي يخاطِب فيها الشّاعر الأجنبيَّ (الأمريكي، اليهودي)، إذِ اتّجه الخطاب إلى المكاشفة والتّهديد باعتماد استراتيجيات خطابية تتواءَمُ وموضوعات الخطاب، وتُعين على أداء رسالة المخاطِب كاستراتيجية المفارقة وربط المسبِّبات بالأسباب، وقد اتّجهت الدّراسة إلى البحث في الأبعاد التّداولية للأفعال الإنجازية وأبعادها التّأثيرية في الخطاب.

أمّا الإخباريات (الإعلانيات) فقد كشفت بعض مشاهد العالَم، إذْ قرّرت ما تعيشه الأنا في ظلّ تسلّط الآخر وتعدّد جرائمه وتدخّله في شؤون الأنا العربي، والتفتت التّقريريات إلى صراع الأنا مع الآخر اليهودي، فصوّرت جرائمه على الأرض بمباركة حليفه وكلّ قوى التّسلّط في العالم، فمالت الأقوال إلى استخدام المفارقة لإثبات مسافة التّباعد بين طرفيْ الخطاب، وقد برزت مطابقتها المفترضة

[1] المصدر السّابق، ص 80.

في هذا النّوع من الأفعال الكلامية التي تنطلق من العالم الذي تعيشه الأنا إلى الملفوظات التي تترجم هذا الواقع.

أمّا التّعبيريات فقد حملت الواقع النّفسي للأنا من جرّاء تكالب أفعال الآخر بطرفيْه الأمريكي واليهودي على الأنا العربي فعلا وقولا، مما ضاعف من حالة التحسر والانكسار، أمام ضعفِ الأنا الرّسمي وتطبيقه لفلسفة الأخر بالعمل على إضعاف إرادتها وقمع حرياتها.

وقد صوّرت الأفعال الإنجازية التّعبيرية (السّلوكية) لجوء الأنا إلى ما يخفّف من معاناتها النّفسية بالاحتكام إلى عقيدتها، ممّا جعل الحالة النّفسية تميل إلى التّوازن بعد الاضطراب.

وممّا لا شكَّ فيه أنَّ طبيعة الخطاب في القصيدة موضوع الدّراسة يفرضُ استخدام الأفعال التّوجيهية لإبراز رغبة الأنا في التّخلّص من وضعها الذي تعيشه، إذْ تمثّلت إنجازيتها المفترَضَة في دفع الآخر إلى الكفّ عن عبثه، ونظرا لكونها تحمل طابع التّهديد والوعيد فإنَّ قوتها الإنجازية ذات بعد سلبي على المخاطَب، وإذا كان تحقّقها واقعيا مستبعدا فقد مال المخاطِب إلى استخدام استراتيجية السّخرية خاصّة في خطاب أمريكا، لما تحمله هذه الاستراتيجية من طاقات حجاجية، أمّا مبدأ الصّدق فاعتمد على إيمان الأنا بقضيّتها وقناعتها بأهمية المواجهة مهما كانت الوسيلة.

وأثناء توجيه رسالة الأنا إلى مخاطبها المتموقع بتحالفاته فإنّ الأنا تتوعّده بالتّحدي؛ والإصرار على فضح جرائمه، وعدم التّنازل عن الأرض محور الصّراع، فاستخدم المخاطِب الالتزاميات التي تُبين عن طبيعته وإيمانه بعقيدته، فغلب التّهديد والوعيد على الوعديات، واللّافت في هذا القسم استخدام الأفعال الكلامية المباشرة بدلالات سياقية يتعالق فيها الحقيقي بالمجازي، إضافة إلى استخدام الأفعال الكلامية غير المباشرة؛ التي تحرّر الأسلوب الطّلبي ـ خاصة الاستفهام ـ من مطابقة لفظه لمعناه، فينتقل من الإنشائية إلى الإخبارية التّقريرية ذات البعد الالتزامي.

لكلّ خطاب غاياته المستهدَفة التي يُؤسِّسُ لها المخاطِب، وفي قصيدة "دمانا عند ربّ العرش أغلى" يحمل الخطاب غايات تأثيرية على مستوى المخاطَب؛ تتمثّل إنجازيتها في بثّ الضعف والوهن في نفسه، من خلال كشف القناع عن وجهه المتنكّر، وفضح منهجه الفاسد وانحيازه لكل ما هو مركزي بقوّته المادّية، إضافة إلى استهداف تقويض كيانه اعتمادا على قوّة الأنا المعنوية؛ المتمثّلة في العزم على التّحدّي والنّضال لامتلاك الأنا للعقيدة الصّحيحة التي تهدّد كيان الآخر وسلطته.

ملخص الفصل الأول

وقفت الدّراسة في هذا الفصل على مقاربة الخطاب الشّعري في ديوان "نبوءات الجائعين" من منظور تداولي لإبراز الأبعاد التّداولية في خطاب الشّاعر للآخر على مختلف مستوياته (ابن الوطن، الحاكم، الأجنبي)، إذْ ركّزت على تداولية الدّرجة الثّالثة أو ما يصطلح عليه بأفعال الكلام، فبحثت في الأفعال الإنجازية التي كان لها الحضور الفاعل في خطاب الآخر، سعيا لاستقراء البعد التّأثيري للخطاب الشّعري في نماذج من القصائد التي تحقّق الغرض.

وإذا كان منظّرو التّداولية وخاصّة "أوستين" و «**سيرل**" قد رأوا أنّ الإنجازيات خمسة ضروب هي الإعلانيات، الإثباتيات، التّعبيريات، التّوجيهيات، والوعديّات، فإنّ الدّراسة استبعدت الإعلانيات وركّزت على الضروب الأخرى لحضورها الفاعل وقدرتها على استجلاء أهم الأبعاد الإنجازية للخطاب الشّعري، فقد أبانت الأفعال الإخبارية الإثباتية عن الواقع وصفا وتقريرا وحُكْما؛ بما يُعين على نقل العالَم، لكونه أحد عناصر الخطاب المعينة على إدراك البعد التّداولي للخطاب، إذْ تمَّ نقل العالَم بلغة فنّيّة تجمع بين الواقعية والتّخييل.

وقد عملت المعبّرات (التّعبيريات) على تصوير المشاعر والكشف عن الحالة النّفسية المصاحبة لخطاب الأنا للآخر، فتنوّعت تلك المعبّرات بحسب موقف الأنا من الآخر، فمالت إلى الرّضا والاعتزاز حين تعلق الأمر بالوطن وأهله المستضعفين، وإلى الخط والتّذمّر حين تناول الخطاب علاقة

الآخر بالأنا، إذْ غلب عليها اتّجاه المطابقة الفارغ لكونها تعبّر عن المشاعر الذّاتية لعدم وجود مشكلة في تحقّق المطابقة بين المحتوى القضوي والواقع.

بينما انمازت التّوجيهيات بكونها أكثر الأفعال الإنجازية بروزا على مستوى الخطاب الشّعري لسببين؛ أما أحدُهما فيعود لطبيعة الخطاب الذي يتضمّن توجيه الرّسائل المختلفة؛ كطلب الوصل من المحبوبة أو النّضال ومواجهة الظلم، أو الدّعوة إلى الكفّ عن العبث، وأمّا الآخرُ فيرجع إلى صيغة الطّلب البارزة التي تميّز الأفعال التّوجيهية، وهي تُبين عن رغبة الأنا في «جعل العالَم متماثلا مع الكلمات»[1] وما تنبغي الإشارة إليه أنّ بعض الصّيغ الطّلبيّة تخرج عن مطابقة صيغتها لمعناها، فقد تكرّر استخدام الاستفهام بمدلولات التّقرير، كما خرج الخبر إلى الإنشاء فحمل توجيهات مستترة خلف القول الخبري، ولذلك تمّ الالتفات إلى ذلك من منظور تداولي للبحث في معنى المعنى.

أما الالتزاميات (الملزمات) فقد استخدمها الشّاعر استخداما مفارقا بحسب مكانة المخاطَب ودرجة القرب منه، إذْ أبرزت الالتزاماتُ الوفاءَ للوطن والوقوف إلى جنب المخاطَب المستضعَف أو المستكين رغم خطاب الانتقاد، بينما تمثّل النّوع الآخر في التّعهّد بمناهضة المخاطَبِ الظالمِ ومقاومتِه، وتحدّي سياساته وعبثه، فمال الخطاب إلى التّهديد والوعيد.

واللّافت للنّظر في استخدام الشّاعر للأفعال الكلامية الإنجازية هو التّنويع في الاستراتيجيات الخطابية بحسب الموضوع وعلاقة الأنا الشّاعرة بالآخر، فبرزت المفارقة بأنماطها المختلفة؛ (اللّفظيّة، السّاخرة، المقامية)، ولزيادة القوة الإنجازية للفعل الكلامي استخدم الشاعر استراتيجية التّلطيف في بعض المقامات التي تقتضي تقليص المسافة الاجتماعية، بينما لجأ إلى استراتيجية التّعزيز من خلال

[1] صلاح إسماعيل عبد الحق: التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، ط1، بيروت، دار التّنوير للطباعة والنّشر، 1993، ص 226.

التّكثيف وانتقاء الملفوظات ذات الدّلالة القيمية المتضادة إيجابا وسلبا في مقام زيادة مسافة التّباعد بين الأنا والآخر.

ولم تغفلِ الدّراسة التّركيزَ على الفعل التّأثيري في كلّ خطاب شعري، رغم عدم وضوح الرؤية أثناء مقاربة الخطابات، لأنّ طبيعة هذه الأفعال مفترَضَةٌ وضمنية، ويمكن تحقّقها وبروزها في الخطاب العادي، بينما يصعب إثباتها في اللّغة الشّعرية لانزياحها المعلوم عن مطابقة اللّفظ لمعناه من جهة، ولأنّ المخاطب افتراضي في كثير من الخطابات، أو ذا مكانة مفارِقة لمكانة المخاطِب تنأى به عن التّأثّر وإبداء ردود الفعل.

ولذلك فإنّ استقراء البعد التّأثيري لأفعال الكلام تمّ بناء على طبيعة ملفوظات القول في إطار السّياق مع مراعاة المسافة الاجتماعية بين الأنا والآخر، إذ حملت بعض الأفعال الكلامية تأثيرا عاطفيا؛ يستهدف مشاعر المخاطَب لحمله على التّفاعل مع الموضوع، بينما بُنيَ الخطاب بناء منطقيا عقليا في بعض الخطابات؛ يعتمد على ربط المسبِّبات بالأسباب، لجعل التّأثير أكثر اتّزانا ومنطقية، وهو ما عرفه خطاب الشّاعر للآخر الأجنبي، إذ اتَّجه إلى تعداد جرائمه ليدفعه إلى مراجعة مواقفه وتعديل منهجه.

الفصل الأول

البنية الحجاجية (الجهاز الحجاجي) في خطاب الآخر في ديوان "تبوءات الجائعين

***حجاجية الصّورة في خطاب الآخر**

*** المبحث الأول: حجاجية الصّورة الاستعارية**

***المبحث الثاني: حجاجية الصّورة الكنائية**

***المبحث الثالث: حجاجية الصّورة التّشبيهية**

الفصل الثاني: الجهاز الحجاجي في خطاب الآخر (حجاجية الصّورة البلاغية)

1ـ مفهوم الحجاج

إنَّ الحجاج من أهم المحاور التي تشتغل عليها التداولية في مقاربة النّص الأدبي لأنه يقوم على «دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أنْ تؤدي بالأذهان إلى التّسليم مما يُعرض عليها من أطروحات، أو تزيد في التّسليم»[1]، لأنَّ العملية التواصلية تتطلب شروطا دقيقة ليحقق الخطاب غاياته المحددة، إذْ ينبغي توفّر بعض التّقنيات اللّغوية وغير اللّغوية في كلِّ خطاب (البنية اللّغوية/السّياق)، ويرى الدّرس التداولي أنَّ الملكات التي تحقق الكفاءة التّداولية في التّواصل، تتحدّد في الملكة اللّغوية، الملكة المنطقية، المعرفية، الإدراكية والاجتماعية.

لقد عني القدماء بالحجاج إذْ تمتدّ جذوره إلى الفلسفة اليونانية التي تربطه بالخطابة، ويمكن العودة إلى الحركة الفلسفية والسفسطائية في القرن الخامس قبل الميلاد؛ حيث تميّز روادها بالكفاءة اللغوية والخبرة الجدلية، وقد تصدّى "أفلاطون" لحركة السفسطائية وأساليبها، ففرّق بين نوعين من الإقناع، فجعل أحدَهما يعتمد على العلم، والآخر يقوم على الظّن، من منطلق فلسفته المثالية، أمّا تلميذه "أرسطو" فقد جعل الحجاج قاسما مشتركا بين الخطابة والجدل؛ إذْ يعدّ الحجاج عنده «فنّ الإقناع، أو هو مجموع التقنيات التي تحمل المتلقي على الاقتناع أو الإذعان، وهو يستدعي مصطلحا آخر هو الجدل»[2].

أمّا في الدراسات اللسانية الحديثة فقد عرف "**شاييم بيرلمان**" **Ch. Perlman** الحجاج بأنّه «جملة من الأساليب التي توظف في الخطاب لاستثارة المتلقي وحمْلِه على الاقتناع والتّصديق بما يعرض عليه من

[1] صولة عبد الله: الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، بيروت، دار الفرابي، ص 27.

[2] هشام الريفي: الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، د ط، منوبة، تونس، مطبوعات جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، سلسلة آداب، مج01، د – ت، ص 63.

أطروحات، أو الزيادة في حجم التّصديق»[1]، غيرَ أنَّ "**أوزفالد ديكرو O.ducrot**" وزميله "**جان كلود انسكومبر J.c. anscombre**" في مؤلفهما (الحجاج في اللّغة) قد أوْليا أهمّية أكبر للحجاج، إذْ اعتبرا أنّه «خطابٌ يقوم على اللّغة بالأساس بل يكمنُ فيها»[2]، أيْ أنَّ الحجاج خاصية طبيعية في اللّغة ذاتها، فالوظيفة الحجاجية وظيفة أساسية للّغة، ذلك أنَّ الأقوال اللّغوية في نظر "**ديكرو**" «تحمل في جوهرها مؤشرات لسانية ذاتية تدل على طابعها الحجاجي، دون أنْ يكون ذلك متعلقا بالسّياق التداولي الخارجي، فاللّغة من خلال الأدوات اللّسانية والرّوابط المختلفة التي تتوفر عليها تعدّ وسائل مناسبة لتوجيه مقاصد الخطاب، ويمكن القول بأنَّ "**ديكرو**" وزميله يعتبران التّداولية المدمجة بديلا عن المعالجة التقليدية للدلالة، فقد عمدت هذه الأخيرة إلى دمج الظواهر التداولية في الدّلالة اللّسانية، وأصبح الحجاج عنصرا ضروريا ومهما في اللّغة»[3].

تعرف التّداولية بأنّها البلاغة الجديدة من منطلق عنايتها بالبلاغة، وربط اللّغة بشروط العملية التّواصلية، إذْ تتضافر هذه العناصر لتحقيق مقاصد الخطاب المختلفة، فإذا كانت البلاغة ذلك القول الذي «يعصف القلوب النافرة ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبيّة المستعصية، وتبلغ به الحاجة، وتُقام به الحجّة»[4]، فإنّه يتضح جليا وجود علاقة بين البلاغة والحجاج، ذلك أنَّ المحاجج في كثير من السّياقات لا يجد بديلا عن الصّورة البلاغية في السّعي للتّأثير في المتلقي أو دفعه إلى تعديل موقفه، وعليه فإنَّ «البلاغة تداولية في صميمها إذْ أنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسّامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما مستخدمين

[1] عبد الهادي بن ظاهر الشّهري: استراتيجيات الخطاب، ص 444.

[2] سامية الدريدي: الحجاج في الشعر العربي القديم–من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، د ط، الأردن، عالم الكتب الحديث 2008م، ص 22.

[3] جبايلي عمر: نظرية الحجاج اللّغوي عند ديكرو وأنسكومبر، جامعة المسيلة، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، ع 03، 2018م، ص 197.

[4] أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي، ط2، لبنان، دار الفكر، ص 100.

وسائل محددة التّأثير على بعضهما»[1]، وبما أنَّ الحجاج يتّكئ على بنيات لغوية تواصلية تستهدف تحقيق غايات خطابية متنوعة فإنّ الخطاب الحجاجي خطاب تداولي.

2حجاجية الصّورة البلاغية

تعدُّ الأدوات البلاغية وسائل خطابية تقوم بأداء وظائف تواصلية في الخطاب الأدبي «قد تؤثر وتستميل وتمتع، لكنّها لا تقنع وتُفحم إلا إذا تلاحمت مع الحجج والمحاجّة»[2]، وعليه تقوم الدّراسة في هذا الباب على استجلاء الصّور البلاغية التي اتّخذها الشاعر "أيمن العتّوم" دعامة حجاجية في خطابه للآخر في ديوان "نبوءات الجائعين" إذْ إنَّ السياق المرتبط بنظم هذا الديوان يتمثّل في تعرُّض الشّاعر للسّجن، لذلك فإنَّ الشّاعر يدافع عن أفكاره وفلسفته في الحياة، ممّا جعل الخطابات الشّعرية تتنوّع حسب طبيعة المخاطَب وعلاقته بالشّاعر، والغايات الحجاجية تختلف من خلال ذلك في هذا الدّيوان.

[1] محمد سالم محمد الأمين طلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008، ص 176.

[2] المرجع نفسه: ص 179.

المبحث الأول: حجاجية الصّورة الاستعارية في خطاب الآخر

1- الاستعارة

تعدُّ الاستعارة من المجاز اللّغوي، فهي «ضرب من المجاز الذي يتأسس على فلسفة المشابهة والمشروط بنمط من القرائن اللّفظية والعقلية التي تعدل بالكلام عن مساره الحقيقي نحو الدّلالة المجازية على جهة النّقل فإنّها تتوفر على إمكانات ثرّةٍ تتيح فهم أدبية الخطاب في كلّيته وشموليته»[1]، إذْ تتماهى فيه القواعد المعيارية والحدود المرتبطة باللّغة، فالخروج عن هذه القواعد والأصول في نظر البلاغيين هو «ضرب من المناورة الكلامية؛ التي تتيح للمتكلم بلوغ مقاصد أوسع من اللّغة التي تخضع للقاعدة»[2].

وقد احتفى الخطاب الأدبي منذ القديم بالأسلوب الاستعاري باعتبار الاستعارة «أفضل المجاز وأوّل أبواب البديع، وليس في حلى الشّعر أعجبُ منها، وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها ونزلت موضعها»[3]، وفي البلاغة الجديدة التي تهتم بكل عناصر العملية التّواصلية فإنَّ مفهوم الاستعارة والتّعامل معها في الخطاب الأدبي قد أخذّ منحى أكثر شمولية، فهي «تتجاوز الوّحدة اللّغوية المفردة، ولا تتمثَّل في عملية نقل واستبدالٍ؛ ولكنّها تحْدثُ مِن التّفاعل والتّوتر بين ما يُطلق عليه "بؤرة الاستعارة" والإطار المحيط بها»[4]، هذا التّفاعل في إطار البنى النّصية التي تتضافر مع السّياقات الاجتماعية والنّفسية يخلق تفاعلا دلاليا يُخرج الاستعارة من دائرة الزّخرفة اللّغوية فتغدو بنية معرفية وحجاجية، لذلك فإنَّ «القول الاستعاري يتميّز عن القول

---

[1] محي الدين صبحي: نظرية النقد العربي وتطورها إلى عصرنا، ليبيا، الدّار العربية للكتاب، 19984م، ص 136.

[2] نوال جوايلية: حجاجية المجاز وفق نظرية المساءلة لميشال ماير، جامعة الوادي، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنّقدية واللغوية، م04، ع04، ديسمبر 2021، ص 621.

[3] ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مج1، ط5، بيروت، دار الجيل للنشر، 1981م، ص268.

[4] صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النّص، الكويت، عالم المعرفة، ع 164، أوت 1992، ص140.

الحرفي بكونه يؤدي عدَّة وظائف في عملية التّخاطب وعمليتي الفهم والتّأويل بين المتكلّم والسّامع، ولذا فإنَّ القول الاستعاري يُعدُّ آليةً حجاجية بامتياز»[1]، ومن هذا المنطلق وجبت العناية بالتّركيب الاستعاري ضمن بنية الخطاب الأدبي؛ عنايةً تتجاوز الدّلالات السّطحية للملفوظات، في إطار كلّيةٍ علائقية تقتضي تشغيل كلّ الإمكانات العقلية قصد بلوغ مرامي المرسِل، لأنَّ الاتّكاء على هذه البِنيات يجعل الخطاب حقلا فنّيا متشعّب الدّلالات، بعيد المرامي، وقد أضحت الاستعارة في الخطاب الأدبي المعاصر تضطلع بأدوارٍ مختلفة؛ معرفية وإفهامية وحجاجيّة.

1ـ 1 ـ حجاجية الاستعارة في خطاب الآخر المستبد (ابن الوطن)

عاش الشاعر "**أيمن العتوم**" تجربة السجن، فهو سجين الرأي والكلمة، وقد جسّد مرارة هذه الحقبة من حياته في ديوان "نبوءات الجائعين"، وإذْ يتنوع الخطاب الشعري بين التقرير والتّصوير، فإنّه يحمل رؤية الشّاعر إلى الآخر على اختلاف طبيعته وصُوَّره (الآخر/ الأجنبي) (الآخر/ الداخلي).

في قصيدة (لنا صبْحٌ نؤمّله) يتوجه الشاعر بالخطاب إلى والدته التي تحمل همّه وهمَّ الوطن محاولا التخفيف من المعاناة المشتركة، إذْ يبعث برسائله إلى الآخر الذي يقف أمام إرادة الوطن في التحرر والانعتاق، يقول:

يا أمَّ أيْمنَ لا شكْوَى تُرَدِّيــنا

إلا إلـــى الله؛ إنَّ الله يحْمِـــينا[2]

يستخدم الشّاعر الأسلوب الاستعاري لإبراز قوّة التّحدي والثّبات على الموقف (لا شكوى تردّينا) فالاشتكاء مِن مواقف الرّفض التي يُعاقَبُ عليها المُشتكي، وقد يؤول ذلك إلى الانتقام والتّصفية الجسدية، وقد استعار لفظا يُثير مشاعر المتلقي (تُرَدِّينا) فيخالُ فعل الشكوى جُرما على ضعفه، الأمرُ الذي يدفعُه إلى

[1] عبد السّلام عشير: عندما نتواصل نغيّر. مقاربة تداولية معرفية لآليات التّواصل والحجاج، د ط، المغرب، دار أفريقيا الشّرق، 2006، ص 119-120.

[2] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص11.

التّأويل وإبداء الموقف، وبما أنَّ الاستعارةَ تتطلبُ وُجود تفكيرٍ مُشترك بين المرسِل والمُرْسَل إليه في إطار سياق تداولي معين فإنَّ ذلك التّفكير «يتعلَّق بالإنجاز والتّأويل؛ إنجاز المتكلم وتأويل المخاطب»[1]، وإذا كان المخاطب بملفوظه الصّريح يدرك السّياق المرتبط بهذا الخطاب، فإنَّ المتلقي يحتاج إلى التّأمل في الملفوظات النّصية التي تؤشر لمنطوق الخطاب لتوجّه تأويله وإنتاج الدلالة، أو بلوغ معنى المعنى، ومن ذلك (إلا إلى الله) إذْ يتوصل إلى أنَّ المرسِل لا يخشى الرّدى لأنّ مآل الموقف محمودُ العواقب، وهنا تبرز قيمة هذه الاستعارة تداوليا لأنها تحوّل الخطاب من صورته السلبية (الردى) من خلال المعنى السطحي (اللغوي) إلى معنى التّلفظ الاستعاري الذي يرتقي بخطاب المرسل إلى القيم الإيجابية من خلال النّضال بالكلمة الحرّة التي لا تأبه بعقاب الجسد.

يتضمن الخطاب الشعري في القصيدة موضوع الدراسة الحديثَ عن الآخر الذي يرفض مواقف الأنا الشّاعرة، فيذكر طبيعته ومواقفه، يقول:

أنَا رَضِيتُ بِما أُوذِيتُ مِــنْ بَلَــدي

وكــلُّ جُرْحٍ بِصَدْري فَــاضَ نِسْرِيــنَا[2]

يتضمّن الشّاهد تصويرا استعاريا يُعدُّ الخطاب فيه ردّا على الآخر المستبدِّ؛ الذي تعرّض للأنا فجعلها تتأذى جسدا وروحا، غير أنَّ الخطاب الاستعاري (كلّ جرح بصدري فاض نسرينا) يخلُق مسافة توتر بين المرسل وتأويل المخاطب (أوذيت/ فاض نسرينا) إذْ إنَّ ما ينطبع في خلفية المتلقي هو أنْ ينزفَ الجرحُ دما، فيجسدُ عمق الألم، غيرَ أنَّه تحوّل إلى نسرين عبقٍ، فاستعار الشّاعر الفعل (فاض) الذي يتضمن مبالغة في تجسيد الألم ، ثم يعْدِلُ عن هذه الدلالة باستخدام الملفوظ (نسرين) فيجعل الألم ذا عاقبة مستساغة، ممّا يكسب الأسلوب الاستعاري قوّة حجاجية، لأنّه ورد بمثابة النتيجة لموقف الأنا (رضيت بما أُوذِيتُ) وهو ما

[1] إبراهيم عبد الفتاح رمضان: اشتغال التداولية في المجاز والكناية، جامعة المنوفية، مصر، مجلة كلية اللغة العربية، ع 35، ديسمبر 2020، ص 4546.

[2] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 12.

يحمِلُ الآخر ـ الذي عبّر عنه بلغة المجاز المرسل (ذكر المحل وإرادة الحال) ـ إلى التّسليم بضعف الموقف وفشل سياسة العقاب، ويستمر خطاب الرّفض والنّقد للآخر ـ يشير إليه ضمنيا في الخطاب الشّعري ـ ولعلَ عدم الذّكر تقليل مِنْ شأنه، وإنكار لوجوده في وجدان الأنا وعلى مساحة النّص الشعري، يقول أيمن العتّوم:

أوّاهُ يا بلدًا تُشْـــــرَى كَرَامَتُــهُ

ويَسْتَبِيحُ حِمـــــــاهُ المُستبدُّونا[1]

يستنكر الشّاعر أفعال الآخر المستبدّ الذي يستغل سلطته ويتعدى على حقوق الأنا الجمعي؛ بل يمنع عنها الكرامة الإنسانية، وقد استخدم الأسلوب الاستعاري الذي يقرر هذه الحقيقة، فاستعار من السّلع المادية وكُلّ ما يُتاجَر به فعلَ الشّراء ونسبه إلى الكرامة، إذْ يتضمن هذا الخطاب مساءلةً مِنْ منظور "**ميشال ماييِر**" الذي يدعو إلى «استغلال وظيفة المساءلة في نطاق الملفوظ الذي يجري التّصريحُ به، فبمجرد التّلفظ بخطابٍ في الأصل نعبِّرُ عن موقف أو إفصاح عن شعور ورغبة، وبعبارة أدقّ: هو مجاهرة بسؤال، وطرْح قضيّة للنّقاش، بل وإلزام للسّامع بالبحث عن جوابه الذي يفترض أنْ يكون في موقف المعارض أو المتردد»[2]، وقد تضمن الشّاهد ضمنيا موقف الرّفض ودعوة من المنظور التّداولي على التّعليق وإبداء الموقف.

إنَّ تصوير الكرامة الإنسانية سلعة تُعْرضُ في ساحات الأسواق، ويتمُّ التّفاوض على ثمنها وقيمتها يتضمّن تساؤلات مبطّنة في ثنايا الخطاب تُقحم المتلقي في فضاء الخطاب الاستعاري، وتفْرضُ أنْ يكون له موقف ممّا يعرضُ عليه، وقد اشتمل السّياق النّصي على ما يشير إلى فعل الرّفض (أوّاه)، ويتعاظم التّكثيف في الخطاب الشّعري المدعّم لحجاجية الأسلوب الاستعاري بما يُصرح به المرسل مِن ملفوظات تزيد من حجم الهوّة بين الأنا والآخر (يستبيح/ المستبدّون) التي تعدُّ سياقات نصيّة تؤطر الخطاب الاستعاري، وتُعين على

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 12.

[2] نوال جوايلية: حجاجية المجاز وفق نظرية المساءلة لميشال ماييِر، ص 623.

إنتاج الدلالة، وتمنح البعد التّداولي للخطاب الشّعري عامة في هذا النّص، ويُرْدِف الشّاعر تأثّر كُلِّ أنا شاعرة بالفعل السّابق (شراء الكرامة) فيقول:

أنا الأسِـــيٌ علـــى جرح يُمزّقُـــه

وإنْ يصحْ كُنتُ مِـــن بلْواه مطعونا[1]

فقد استحال الوطن بفعل سياسات الآخر جسدا يتمزّق بفعل الجراحات المتكررة، وهو انزياح استعاري يقوم على تشخيص يُثير المتلقي بملفوظ (الجراح/ التمزيق) في تكثيف مضاعف يبرز معاناة الأنا، ويحقق الاستلزام الحواري الأنسب لهذا الخطاب الاستعاري؛ الذي يعدُّ هدفا منشودا مُسبقا ذلك أن الاستلزام <<شيء ينبع منطقيا ممّا قيل في الكلام، أيْ أنّ الجمل هي التي تحوي الاستلزام، وليس المتكلمون>>[2]، فتصوير أساليب الآخر في حق الأنا اعتمادا على التّشخيص ودفع المتلقي إلى التّفاعل وإبداء الموقف من خلال جمالية التّأليف الانزياحي يعدُّ غاية حجاجية في الخطاب الاستعاري لأنَّ «أهمية الوسائل البلاغية تكمن فيما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، ومن ثمة توجيه سلوكه الوجهة التي يريدها له»[3]، فالعدول الأسلوبي ذو وظيفتين إحداهما جمالية والأخرى تداولية.

ينطبع في خلفية الأنا العربي صورة قاتمة عن الحاكم العربي (الآخر) الذي تخلى عن مسؤولياته تجاه رعيته؛ إذْ تعدُّ هذه الخلفية سياقا واضحَ المعالم في الشّعر السياسي الحديث والمعاصر، وعليه فإنَّ ذِكر بعض أساليب الآخر يُحيل إلى طبيعته وعلاقته بالأنا (الفردي /الجمعي) يقول أيمن العتّوم في قصيدة (نبوءات الجائعين):

هم يشربون مدامعَهْ

هم يصنعون فجائعَهْ

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 12.

[2] جورج يول: التداولية، ص 51.

[3] سامية الدّريدي: الحجاج في الشّعر العربي بنيته وأساليبه، ط2، إربد، عالم الكتب الحديث، 2011، ص 120.

هم يسرقون مواقفَــهْ

هم ينخرون أضالعَــهْ[1]

يتضمن الخطاب الشعري تغييبا للآخر استنكارا لأفعاله التي أوردها الشاعر بصيغة الفعل المضارع المستمر في تكثيف بارز يُشير تداوليا إلى درجة الرفض الصّارخ، وقد عبّر عن ذلك بالأسلوب الاستعاري الطّاغي على حساب بقية أساليب التّصوير الأخرى، ذلك أنَّ الاستعارة «تقوم على الانحراف نحو المعنى المستلزم من تفاعل الدلالة الوضعية مع السياق والقرينة، لتصرف ذهن المتلقي عن إرادة المعنى الحقيقي، وتوجيهه للمعنى الثاني، فيسهم في توجيه المتلقي إلى جانب معين، فهو نوع من ممارسة الفعل على المتلقي، فينتج عن ذلك مظهرٌ حجاجي»[2]، ويبرز الانحراف في تركيب الاستعارات في هذه الشّواهد في قوله: (يصنعون فجائعه/ يسرقون مدامعه/ ينخرون أضالعه) وإذْ هو يستعير من الماديات بعضَ خصائصها فإنّه ينسبها إلى ما يُحيل إلى الأنا في تراكيبَ تستدعي عقلَ المتلقي وتستثير عواطفه، فمعاناة الأنا لم تعد طارئة عارضة؛ بل هي تُصنَع في مخابر الآخر، وفي مصانعه المُعدَّة للسيطرة على طاقات الأنا لكبح جماح تفكيرها.

إنَّ ملفوظ الصناعة يحيل إلى السياسة المركّزة والتخطيط الممنهج، وهو لا يتناسب في تركيبه مع الملفوظ (الفجيعة) وهو طرف الصّورة الاستعارية، لكنّ الشّاعر أحدث علاقة تشابه بين المصنّعات على اختلاف قيمتها وشكلها ومكوناتها والفجائع التي تعيشها الأنا، إذْ أقنع المتلقي بأنَّ واقع الأنا المستعبدَة أقوى من طاقاتها وحمولتها، فهي تُصنَّع على أحسن ما يكون الإنتاج الصناعي، ومع الاقتناع يحدث التّأثير الذي يتجسّد في فعل الرّفض من جهة، والتّعاطف من جهة أخرى.

[1] أيمن العتوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 20.

[2] إبراهيم عبد الفتّاح رمضان: اشتغال التداولية في المجاز والكناية، ص 4517.

ويمارس الشّاعر فعل الاستفزاز على المتلقي بتراكيب استعارية تتَّفِق في تركيبتها اللّغوية، وتتفاوت في مدلولاتها وحمولاتها الفكرية، إنّه المرسِل الواعي بما يختزن في الخلفية الفكرية للأنا التي تتلقى الخطاب، لأنَّ السّياقات الخارجية في البلاد العربية متشابهة متشاكلة، لذلك فإنَّ تداولية هذه الاستعارات تحقِّق بُعدها الفكري، وتُمارس سلطة الإقناع والتّأثير، ويأتي التركيب الاستعاري الموالي (يسرقون مواقعه) ليجسّد فلسفة الآخر في استغلال ضعف الأنا، فاستعار فعل النّصب واللّصوصية في انزياح لغوي يكسر أفق التوقع، لأنَّ الدّور هذه المرة يأتي على المواقع التي تؤكد قيمة الأنا ووجودها، بعيدا عن الماديات والشّكليات؛ التي تصبح عديمة القيمة، وذلك الأمر يدفع المتلقي إلى المغامرة في فعل التّأويل؛ الذي يتطلب خلفية فكرية وسياسية ووعيا بالوجود.

وينحو التركيب الاستعاري الموالي هذا المنحى (ينخرون أضالعه) إذْ ينطبع في الذهن أنَّ عظام المريض أو الميت هي التي تؤول إلى هذه الحال، فهي في وضع غير طبيعي، يؤكد الضّعف وقرب النّهاية، لكنَّ استعارة الملفوظ (ينخرون) وإلحاقه بالأضلع ينزاحُ عن المألوف، ويدعو إلى التّأمل في هذا الفعل والسّعي لاستنتاج غاياته، وهنا تتحقق نظرية المساءلة حسب "**ميشال ماييير**"، فيجد المتلقي فسحةً للتّأويل والبحث في معنى المعنى أو في الدلالة المستترة وراء اللغة الانزياحية. فالتّركيب يتضمن ادّعاء بأنَّ هذا فعل إقناعٍ؛ ليس من طبيعة الأنا الحاكمة التي تربطها بالآخرين علاقات الراعي برعيته، وقد تحققت حجاجية هذا الادّعاء لأنّ «الادّعاء كفعل حجاجي يستوجب إدخال المستعار له في جنس المستعار منه على وجه الحقيقة، وذلك بخلق عالم ثالثٍ هو العالم الممكن، فيصير المستحيل ممكنا عن طريق الخيال، لذلك اعتبره الجرجاني من أدوات الإقناع»[1].

[1] محمدي يسية: الآليات البلاغية ودورها الحجاجي، جامعة الجلفة، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية الإنسانية المعمّقة، ع 10، أكتوبر 2021، ص111.

إنَّ هذا التّكثيف الاستعاري في الشواهد السابقة موجَّهٌ ضمن استراتيجية حجاجية قائمة على الإثبات بآليات متعددة مختلفة في طبيعتها، تحرِّك الضمير وتثير الوجدان، فتؤثِّر وتُقنع؛ إذْ تدرّج في تركيب هذه الاستعارات وفق استراتيجية تصاعد الخطاب حجاجيا في درجة تسلّط الآخر لتحقق التراكيب الاستعارية قدرتها الحجاجية (تركيبا فنيا واقتناعا عقليا) فتطورت الحجج من شرب الدموع كحيلة لامتصاص الغضب وتزييف للحقيقة (تعبير كنائي) إلى صناعة الفجيعة وصولا إلى سرقة المواقع، وبذلك يتمكن الآخر من قهر الأنا وطحنها والاستيلاء عليها أخير، ويمكن الاستعانة بالسّلم الحجاجي في ترتيب الاستعارات ودرجة حجاجيتها على النحو الآتي:



الشّكل (7) السّلم الحجاجي للاستعارة في خطاب الآخر (ابن الوطن المستبدّ)

يتموضع فعل الصناعة بعد اللّغة العادية أسفل السلم الحجاجي ثم يتلوه فعلُ السّرقة باعتباره جُرما صريحا، ثم يتموضع نـــخْرُ الأضْلُع في قمة السّلم الحجاجي؛ لأنّه أشدُّ قُبحا وسوءا من الأفعال الإجرامية السّابقة.

1ـ 2 ـ حجاجية الاستعارة في خطاب الآخر المستضْعف (العربي)

يشكل الخطاب الشّعري الموجّه إلى الآخر المتّحد مع الأنا قطبا تخاطبيا بارزا في الخطاب العربي المعاصر عامة، نظرا للتّشاكل الحاصل في جميع المجالات، ممّا يستدعي خطابا نَهضويا قصد الوعي بالمرحلة وإدراك أبعاد الوجود، إنّها رؤيا العالم من منظور إبداعي، وفي المقطع الخامس من قصيدة (نبوءات الجائعين) يوجه الشّاعر خطابه إلى الآخر الذي يشاركه الهموم والتّطلعات، إذْ يحمل الخطاب رسالة الثّورة والانتفاضة، ومن الخطابات الاستعارية المستخدمة لهذا الغرض ما جاء في قول أيمن العتّوم:

يا أيّها المزروع في قلب العروبة

أيّها المطعون بالحزن الدّفين

المُولع ... المهووس بالعرب...المعبّأ بالتياع

غيِّر مكانَك ... فجِّر الرّوتين...

أشْعلْ صفحة المتآمرين[1]

يستخدم الشاعر ملفوظات استعارية تبرز طبيعة الآخر المخاطَب (المزروع/ قلب العروبة) إذْ يُلفت هذا التّركيب انتباه المتلقي نظرا للاستخدام اللّغوي المنزاح عن اللغة العادية، فهو قد شبّه مخاطبه بالنّبات الذي يُرجى من زراعته وفرة المحصول، لكنَّ الملفوظات التالية تغيِّر دفة التّأويل (قلب العروبة) التي تعدُّ استعارة مكنية؛ يتشكّل تركيبها المجازي من مضاف ومضاف إليه، لكنّ طرفيْها مفترقان في طبيعتهما (مادي/معنوي) إذْ عدَّ الشّاعر العروبة في مرتبة الإنسان العاقل صاحب الشّعور والإحساس، فاستعار منه ما يناسب الخطاب (القلب).

ويلجأ المتلقي إلى الجمع بين ملفوظات التّركيب لتشكيل الصّورة الاستعارية في بادئ الأمر لينتقل إلى مرحلة تشكيل الدّلالة (المزروع في قلب العروبة)، فحجاجية هذا التّشكيل الاستعاري تتجلّى في براعة التّأليف

[1] أيمن العتوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 27.

وتوافق مدلول الزّراعة مع المعاني التي يحيل إليها ملفوظ (القلب)، الأمر الذي يحمل المتلقي على التّفاعل الإيجابي مع منطوق التّركيب الاستعاري نظرا لجلال المعنى المختزن وراء اللّغة، فيشعر أنَّ الخطاب موجَّهٌ لذاته عينِها، فينشئ بذلك علاقة ارتباط وتعالق مع الخطاب الشّعري؛ تدفعه إلى الاقتناع والتّأثر ـ وتلك غاية من غايات الخطاب الحجاجي ـ ومتابعةِ الخطاب تلبيةً لرغبة النّهم الفكري، وإشباعا للرغبة الجمالية.

وقد استهدف الشّاعر ذلك حين جعلَ التّركيب الموالي استعاريا يكسر أفق المتلقي لاختلاف المدلول اللاحق عن السّابق (أيّها المطعون بالحزن الدّفين) فوصفُ الآخر بالمطعون يلفتُ النّظر ويثير عاطفة الشّفقة، غيرَ أنَّ الصّورة الاستعارية تَستخدِم وسيلةً أخرى للطّعن إنّها (الحزن) فاستحال التّركيب مجازا بديع التأليف، فيه تناقضٌ بين مكوِّنات التّركيب الاستعاري، فالحزن على ضعفه غدا يَطعن خصومَه كما تفعل الوسائل الحادّة، ويترك ضحيته غارقة في دمائها وآلامها، فالحزن إذا كان دفينا(الكمد) حبيس القلب فإنَّ تأثيراته لا تفتأ تفتك بالمحزون وتنخر قدراته وصحته.

وممّا يزيد من قوّة هذا التّصوير نذكر السّياقات النّصية بما في ذلك نص العتبة الأولى (العنوان) فهذه التراكيب الانزياحية تملك قوّة حجاجية باعتبار التركيب يعتمد على مبدأ السببية، فالحزن المكتوم يجعل صاحبه في مرتبة المطعون، إنّه بالإضافة إلى جمال التّصوير يملك الأسلوب الاستعاري موضوعيةً في التعليل، تحمِلُ المتلقي على التّصديق.

ولا يفتأ الشّاعر يرصف استعاراته الحجاجية ويمارس التّكثيف الدّلالي ليحْمِل الأنا المخاطبة على مراجعة مواقفها أو إدراك حقيقتها وما يستلزمه الموقف، مستخدما صيغ اسم المفعول التي تثبت طبيعة هذه الأنا (مولَع، مهووس، معبَأ) وما يشد الملتقي مبالغة الشاعر في إثبات عروبة الأنا إلى درجة تصويرها تشحن باللّوعة مستعيرا بعض خصائص المادّيات (التعبئة) وينسبها للأنا، ثم يجعل حرقةَ الشّوق وهي حالة شعورية تملأ جوف الأنا، إذْ أكّد في التركيب الاستعاري المجسِّد لوفاء الأنا لأناها الجمعي ما يعتبر حجةً ودليلا للتّركيب السّابق، وعليه يكون السّلم الحجاجي على النحو الآتي:



الشّكل (8) السّلم الحجاجي للاستعارة في خطاب الآخر (ابن الوطن المستضعف)

إنّ حشد هذه التّراكيب الاستعارية يعدُّ استراتيجية خطابية انتهجها الشّاعر ليهيئ الأنا المخاطبة للرسالة المراد تبليغها، ولعلّها استراتيجية إقناعية للمتلقي الذي يشترك مع هذه الأنا في الخصوصية والقومية، يهدف إلى تغيير الموقف أو تعديل المنهج، أو تقديم السّند للأخذ بيد الأنا المستضعفَة، وتأتي هذه الرّسائل تلتمس التّغيير (غيِّر مكانك) ثم الانتفاضة (فجِّر الرّوتين) التي عبّر عنها بملفوظات تختلف طبيعتها وقوّتها (القوة/ الوهن) (المعنوية/ المادية)، إذْ هو يدرك خطر التّنميط الحياتي الذي تعيشه الأنا في ظل الاستعباد ف (الرّوتين) على ضعفه يكتسب بالتنميط طاقة القهر، فاستعارة التّفجير كصفة مميزة للبراكين وإلحاقها بالمستعار له (الروتين) تأسيسٌ لتوجُّه جديد لدى المخاطب أو المتلقي مُفاده أنَّ بعضَ الظروف يتطلب ثورة على الواقع لصناعة المأمول، فملفوظ (التفجير) يحرِّك النّفس برهبته ويدفع إلى تصوّر الحركة والفعل ورد الفعل، لأنَّ الاستعارة «تعدُّ عاملا رئيسا في الحفز والحثِّ، وأداة تعبيريةً، ومصدرا للترادف وتعدد المعنى،

ومتنفسا للعواطف والمشاعر الانفعالية الحادة»[1]، ويكتسب هذا الأسلوب الاستعاري تداوليته الحجاجية من خلال توافق المدلول النّصي مع الوعي الجمعي انطلاقا من تضافر السّياق النّصي والخارج نصي.

إنّ السّياقات النّصية التي تحيل إلى الغاية من الخطاب الشّعري في هذه القصيدة بارزة بوضوح من خلال تنوع الأساليب التّعبيرية، والشّاعر يحفل بالتّركيب الاستعاري وعيا ببلاغته وجماليته، ومن تلك السّياقات النّصية قوله:

ضم موطنك الكبير على الصدور وجهز الرشاش

أحرق بالرصاص الآن وجه الراجعين إلى الوراء

ومد موتا من ذراع[2]

إنَّ الرّسالة الموجّهة للأنا هي حلم الأنا المرسِلة يتضمنها التّركيب الاستعاري (ضمَّ موطنك الكبير على الصدور) إنّه الولاء للأنا الجمعي الذي يتحدّد بملفوظ (الوطن الكبير) فقد غدا شخصا عزيزا له حق على الأنا في أنْ تحميه وتضمنَ له الأمن والأمان، وقد عمَدَ الشّاعر إلى الاستعارة التّشخيصية لإثبات العلاقة الوثيقة بين الأنا ووطنها، وهنا تنتفي الحواجز بين أطراف العلاقة (القريب، البعيد) (الممكن، المستحيل) (المتحرك، السّاكن)، هذا الاتّحاد بين صفات المستعار منه وإلحاقها بالمستعار له يضمن تعدّد الدّلالة، وانفتاح التّركيب على أكثر من معنى في نطاق السّياق المحدّد سلفا ينسج علاقة الارتباط الوثيق بين المتلقي والخطاب الشّعري، ممّا يجعل التّفاعل النّصي على قدرٍ من الأهمية.

ويعدُّ هذا التّركيب استراتيجية خطابية لجأ إليها المرسِل ليحمل المرسَل إليه على التّفاعل الإيجابي مع الرسالة التي ينوي بثَّها، فهو هنا بمثابة تهيئة النّفس من خلال الاستمالة العاطفية (الضّم على الصّدر) ليأتي الدّور على الخطاب الصّريح (جهّز الرّشاش، أحرق بالرّصاص) ثم هذا التّركيب الاستعاري (مدَّ موتا من

[1] يوسف أبو العدّوس: الاستعارة في النّقد الأدبي الحديث. الأبعاد المعرفية والجمالية، ط1، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، 1997، ص11.

[2] أيمن العتوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 27.

ذراع) الذي يُلهبُ مشاعر الأنا من خلال التّركيب البديع الذي تتحقق فيه الغرابة والمنافرة بين طرفي الاستعارة، إذِ انتقل من التّجريد إلى التّشخيص، فاستحال الموت إنسانا يمدُّ ذراعيْه في حركة لبعث الحياة من جديد، فاختار من المستعار منه الذّراع لأنّها الجزء القادر على التّغيير، فتضمّن التركيب الاستعاري حقيقة مُحاجا لها؛ تجعل المخاطب يدرك عمقَ الرسالة، بينما يغوص المتلقي في إنتاج الدلالة، ولا ينفكُّ مرتبطا بالسّابق واللاحق يفكك ويركّب ويحفر في ما وراء اللّغة، فإذا ما تمكّن المعنى في قلبه شعرَ بدقّة المعنى المراد وجمال تأليفه.

لا يخرج الشّاعر عن استراتيجيته الخطابية في الاعتماد على حشد الاستعارات تكثيفا للمعنى وإلحاحا على أهمية الرّسالة في تدرّجٍ متقنٍ لعرض الوسائل والسبُل التي تمكّن الأنا من بلوغ غايتها، وعن أهمية هذه الاستراتيجية يقول "**عبد القاهر الجرجاني**": «وممّا هو أصلٌ في شرف الاستعارة أنْ ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصدا إلى أنْ يلحقَ الشكل بالشّكل، وأنْ يُتمَّ المعنى والشّبه فيما يريد»[1]، ويقول أيمن العتّوم في موضع آخر:

فاحمل آخر الأنفاس واصعد وارتفعْ...

هذا زمان الإرتفاع

يا أيّها المحمي بالموت الجميل...[2]

لقد تدرّج الشّاعر في خطاب الآخر من الدعوة إلى حمل الوطن في القلب (ضمّ موطنك) إلى إحياء كلِّ فكرة نضالية أو قيْمية (مدَّ موتا من ذراع) إلى الدّعوة إلى التّحدي والصّمود وبذل كلِّ رمق للارتقاء، معبّرا عن ذلك بالتّركيب الاستعاري (واحمل آخر الأنفاس) الذي يحيل إلى قول "**محمود درويش**" في تناصٍ

[1] الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، د ط، د ت، القاهرة، مكتبة الخانجي، ص 79.
[2] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 28.

مناسب: :(سقطت ذراعك فالتقطها)[1]، إذ يتضمن الأسلوب الاستعاري تحفيزا للأنا وشحنًا لمعنوياتها، فهو صاحب قضية عادلة، وهذا النَفَسُ الباقي ينبغي ألَّا يدَّخرَ في سبيلها، إذْ عمدَ الشّاعر إلى التّجسيد لتكتمل الصّورة في ذهن المتلقي، فيحرِّك خياله ويدفعه إلى تحويل التّركيب اللّغوي الاستعاري إلى صورة ذهنية، صورةٍ سينمائية يتحرّك طرفاها أمام مرمى العين، تُشكِّلُها هذه الملفوظات المتنافرة في أصلها مع السّياقات النّصية السّابقة، وما يختزن في ذاكرة الأنا حول هذه القضية، وعليه يكون السّلم الحجاجي على هذا النحو.



الشّكل (9) السّلم الحجاجي للاستعارة في خطاب الآخر (ابن الوطن المستضعَف) خطاب التّحدي

[1] محمود درويش: الأعمال الأولى، الجزء 2، قصيدة مديح الظل العالي، ط1، بيروت، رياض الرّيس للكتب والنشر، 2005، ص 348.

1ـ 3 ـ حجاجية الاستعارة في خطاب الآخر المختلف (الأجنبي)

يشغل الآخر المختلف حيزا واضحَ المعالم في الخطاب الشّعري العربي المعاصر، لأنَّ فلسفةَ الغرب في التّعامل مع الآخر تقوم على نزعة التّميز والتّفوق، ومازالت هذه الفلسفة تنتج سياسات التّسلط، وخططُها تستهدف الذّات العربية والإسلامية، فهو «يسعى إلى صهر جميع الثقافات في مركزيته الأوروبية ذات المرجعية اليونانية والرّومانية واليهودية المسيحية، وكرّست هذه المقاربة ثقافةً تجعل من المؤامرة على الهوية رِهانا يتطلب التّجنيد والحذر والرّفض من كلِّ ما هو غربي»[1]، إذْ لا تخفى سياسات الآخر الغربي في مختلف ميادين الحياة المعاصرة في محاولة احتواء الأنا العربي واستيلاب كلَّ مقوماته، الأمر الذي دفع إلى التّصدي للغزو الثّقافي الآخري، وقد حمل ديوان الشاعر "**نبوءات الجائعين**" خطاب الرّفض الذي يتصدى لثقافة الاستيلاب، ومحاولات المسخ والاحتواء، يقول في قصيدة (دمانا عند ربّ العرش أغلى):

دِمانا في المزاد فساومينا

وصبِّي الكأس منها واشْرَبِينا

إذا ما جئتِ حتى تشترينا

فيا (أمريكيا) كمْ تدْفعينا؟!![2]

يبرِز الشّاهد طبيعة الآخر المختلف بأفعاله اللا إنسانية (أمريكا) في تعامله مع الأنا الجمعي (دمانا، ساومينا) ويظهر التّركيب الاستعاري في مطلع القصيدة (دمانا في المزاد) حالة الأنا في تركيب انزياحي حوَّل الأنا من خلال ملفوظ (الدماء) إلى سلعة معروضة، وقد عبّر بالجزء عن الكلّ لأنَّ الدّماء تجمع بين القيمة المادية والمعنوية، واستعار لها الصّفة الأنْسبَ للمقام من البضاعة والسّلع (المساومة)، وإذْ يؤشرُ هذا الانزياح الاستعاري على طبيعة الخطاب الشّعري؛ فإنّه يُحرّكُ ضمير الأنا ويخلخل مشاعرَها، فيستفزُّ صمْتَها، وهذا

[1] سعد الله مكي: المختلف. مقاربة ابستيمولوجية في التّأصيل والمرجعية، المغرب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، فئة بحث عام، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، 23يناير 2018، ص 03.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 77.

التّجسيد الاستعاري لحال الأنا الجمعي يُصوّر الواقع ويقدِّمُ الدّليل في محاججة صريحة؛ تكشفُ السّياقاتُ النّصية اللّاحقة طبيعتَها، وإذا كانت السّلعة تُعْرَضُ أوّلَ الأمر فيتمُّ التّفاوض حول قيمتها فإنَّ الشّاعر يستخدم الأسلوب السّاخر اعتمادا على الانزياح اللّغوي (جئت تشترينا) (ضعي ثمنا بخسا) (كوني في عِداد الزّاهدين) هي صورٌ تجسّد هوان الأنا في مقاربة الآخر؛ مقاربة مؤسّسة على ثقافة المادّة والمنفعة دون غيرها، إذِ الأنا تُباع وتُشرى في أسواق الآخر، والتّنافس الحاقد بلغ مداه، وقد تعدّد الآخر لكنَّ فلسفته واحدةٌ (كوني من الزّاهدين) وأمام هذا الوضع تعتصر قلبَ الأنا المنافحة عن أناها وقيّمها حرقةٌ شديدةٌ فيقول:

ألا مِنْ صرخةٍ يا نزْفَ جُرْحي

تُذكِّرُنا فإنّا قدْ نسينا[1]

إنَّ جراح الأنا النّازفة في عوالم الآخر المختلف لا ينبغي لها الانكفاء على ذاتها وقمع صوت الألم، إنّه يطلب من الجِراح أنْ تصرخَ لتحيا بالصرّاخ ضمائرُها؛ التي تعوّدت الألَمَ حتى نسيته، أو تناست طعمَه، فاستعار الصّرخة من الإنسان المتألِمِ الغاضب ونسَبَها للجراح النّازفة، فالأنا بحاجة إلى مثيرٍ جديد يتعاضد مع الجراح التي تنزف لتحقق الغايةَ (تذكّرُنا)، هذا الذي يبعث الحياة في الجماد (الصّراخ في الجماد) يتضمّنُ محاجّة منطقية؛ تُقنِعُ كلَّ أنا رضِيت بجراحها وأَلِفتْ هوانها، فهي بحاجة إلى صوت يقضُّ مضاجع صمتها، ويُعددُ الشّاعر بعضَ أساليب الآخر التي سببت هذه الجِراح فيقول:

نُساق إلى المحاكم دونَ ذنْبٍ

على اسم عدالة عَفِنت قرونا[2]

إنَّ السّياقات الخارجية لهذا الخطاب ـ نخص ما دوّنه الشّاعر مُحددا زمن الكتابة ومكانها (سجن السّواقة 1996/12/01) ـ لا ينبغي إغفالها في المقاربة التّداولية لفهم منطوق هذا الخطاب، وإذْ ينصُّ الشّاهد على تعرّضِ الأنا ومن خلالها الأنا العربي إلى السّجن. سجن الرأي حينَ تعارض السّياسات المحلية التي هي

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 77.

[2] المصدر نفسه، ص 78.

امتداد لسياسات الآخر؛ الذي وطَّنَ فلسفته في حكم الآخرين، وجعل الأنظمة العربية تبعا له، حفاظا على مصالحه، وقد عبَّر عن فساد العدالة التي تعدُّ أحدَ الأجهزة ذات الخطر البالغ في حُكْم الأقلية للآخرين، مُستخدما الانحراف الأسلوبي المُسْتفزِ لكل متلقٍ لأنّه يجسدُ عظمة الفساد (عفنت قرون) فالأنا التي تتلقى الخطاب تدرك حقيقة الأمر، إذْ تحقق هنا شرط من شروط التّداول لفهم منطوق الخطاب، فقد نجد بيْنَ الشاعر والمتلقي جسرَ تواصلٍ واتفاقا على ما يحمله مضمون الخطاب الشّعري، فاستعارة صفة (العفن) من الجثث ونحوها يثير الأحاسيس، ويبعث على الاشمئزاز، ممّا يزيد من قوّة التّركيب الاستعاري وحجاجيته في تكثيفٍ دلالي مشحون في ملفوظ الزّمن غير المُحدّد (قرونا)، إذْ تتراءى الصّورة المشهدية القبيحة بعيدةَ الأثر في مخيال الأنا المستضعفة بفساد جهاز عدالة الآخر، فتستحضر من يومياتها نماذجَ واقعيةً تجعل الخطاب الشّعري يحقّق غاياته المفْترضَة مُسبقا في إطار العقد المبرم بين المرسل والمرسل إليه. ذلك أنَّ الافتراض المسبق «شيء يفترضه المتكلِّم يسبق التّفوُّهَ بالكلام؛ أيْ أنّ الافتراض المسبق موجود عند المتكلّمين»[1].

إنَّ الافتراض المسبق لمرسل الخطاب تحملُ مؤشراته بعض ملفوظات الخطاب في القصيدة، إضافة إلى السّياقات الخارجية المرتبطة بعلاقة الأنا بالآخر من خلال جهاز عدالته المحليّة، يقول أيمن العتّوم:

قوانين لغربي لئيم

وما زلنا لها مستعمرينا

نبوس نعال أمريكا لترضى

ونطلبُ وُدَّها متذلّلينا[2]

ينطلق الشّاعر في خطابه مِن الآخر (أمريكا) لِيُعمِّمَ صورة الآخر المُستحكم على حرية الأنا من خلال ملفوظ (الغربي اللئيم)، ويتّكِئُ الشاعر على المجاز المرسل (أمريكا) ليشمل الخطاب كلَّ غربي أو أمريكي،

[1] جورج يول: التداولية Pragmatics، ص 51.

[2] أيمن العتوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص78.

ثم يصوِّر حالة الأنا اعتمادا على أسلوب الكناية المُجسّد لصورة العبودية (نبوس النّعال)، ويكثف من الدلالة انطلاقا من الاستعارة المكنية (نطلب وُدَّها) إذْ تُعدُّ الصّورة تدليلا واضح المعالم يبرر الفعل الأول (نبوس النعال)، هذا الانزياح اللّغوي في الأسلوب الاستعاري يدفع المتلقي إلى تثبيت موقفه السّابق من الآخر؛ بل يزيد من الإصرار على ضرورة التّصدي والإقلاع عن هذه الأساليب، وكأنَّ مقصدية المرسِل هي تحقيق التّطهير، إذْ تجاوز التعبير الاستعاري مستوى التّصوير الفنّي إلى استهداف غايات تداولية، فالاستعارة من هذا المنظور «ليست مقتصرة على الهدف الجمالي والقصد التّشخيصي، ولكنّها أيضا ذات قيمة عاطفية ووصفية ومعرفية، أو بتعبير شامل "تحيا بها"»[1]، ويبرز الشّاعر في أسلوب ساخر ناقدٍ لمواقف الأنا التي تسعى إلى إرضاء الآخر (أمريكا) نتائجَ ذلك التّذلل وقد تجد من يدافع عنها من منطلق فلسفات فاسدة مبطّنة الغايات، فيقول:

كذا تُرْعَى كرامتنا وتُغْلى

جباهُ الأوفياء الصّادقينا؟!![2]

فالتّركيب الاستعاري يرتقي بالكرامة الإنسانية ويجسّدها في صورة الرّعية التي لها حقوق على راعيها من باب التّمثيل، وقد ضمن الشاعر قوّة إنجازية لهذا الفعل المجازي باعتبار أنّه عقد شراكة مسبقةً مع المتلقي حينَ مهَّدَ لهذا الخطاب مُسبقا، مستعيرا صورا من واقعِ الأنا (نبوس نعال أمريكا لترضى) إذْ تُعدُّ علّةً حجاجية **Raison argumentative** تجعل منطوق الخطاب الاستعاري اللاحق لا يخرج عن سياقه المُؤطّرِ له، ممّا يحملُ المتلقي على الرضا والقبول.

[1] محمد مفتاح: تحليل الخطاب الشّعري. إستراتيجية التّناص، ط3، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1992، ص 84.

[2] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 78.

ملخص المبحث

استغل الشّاعر الطّاقة الحجاجية للاستعارة في خطابه الشّعري للآخر على اختلاف مسافة القرب أو البعد منه، إذْ حفلت قصائد ديوان "نبوءات الجائعين" بالأساليب الانزياحية التي تتّكئ على الاستعارة لأداء رسالة الشّاعر ذات الأبعاد التّوجيهية الإصلاحية، أو النّضالية التّحررية، أو القومية التي تستهدف الرّد على الآخر الأجنبي في القضايا الوطنية وفي السّياسة المحلية.

إنَّ الأساليب الاستعارية وعلى غرار طاقاتها الفنّية الجمالية ذات حمولة فكرية؛ تتكشفُ أبعادها الدّلالية بمراعاة سياق الخطاب الشّعري في هذا الدّيوان؛ الذي مهّد له "أيمن العتّوم" بخطاب البدايات والنّهايات، ممّا يُوسِّع دائرة التّأويل إنْ على مستوى الحالة الشّعورية للأنا الشّاعرة، أو الموقف الشّعري، وإنْ على مستوى المخاطَب لإبراز دوْرِه الفاعل في تحريك دفّة الخطاب وكشف حقيقته (مظلوم/متواطئ/ظالم/فاعل مباشر/غير مباشر)، وإنْ على مستوى المتلقي لإقحامه في العملية التّواصلية ليكون شريكا في الخطاب وشاهدا وحكما.

والمُتأمّل في خطاب الشّاعر للآخر المحلي يُدركُ استخدام "أيمن العتّوم" للاستراتيجيات الخطابية التي تُبِينُ عن علاقته بهذا الآخر، إذْ يميل الخطاب الاستعاري إلى التّعاطف مع الآخر من خلال التّحفيز وشحن الذّات بطاقات التّحدي، وإظهار الخطر المُحْدق بالأنا الجمعي أمامَ استبداد الآخر الحاكم الظالم، بينما اختلفت الاستراتيجيات الخطابية حين تعلَّق الأمر بخطاب الآخر (الحاكم/ الأجنبي) إذْ جسّد الأسلوب الاستعاري فلسفة الآخر ومنهجه الفاسد في علاقته مع الأنا، فكانت الحمولة الفكرية تُجسّد المفارقة بين المركز والهامش؛ إذْ تقتضي العلاقة (أنا/آخر) ضرورة التّكامل وتقليص الفجوة بين الحاكم والمحكوم فتتماهى حينئذ الحدود الفاصلة بين طرفي العلاقة.

وقد أسهمت ملفوظات الخطاب الاستعاري في الإبانة عن طبيعة الآخر، ومن خلال ذلك اكتسى الخطاب الشّعري بعدا حجاجيا إقناعيا حينا وإفحاميا حينا أخرى حسب موقع المخاطَب.

إنَّ تأويل الدّلالات الاستعارية في خطاب الآخر لابد أنْ يُراعي علاقة الملفوظات داخل السّياق إضافة إلى ارتباط التّركيب الاستعاري بمختلف البنى النّصيّة المشكّلة للخطاب داخل نسيج النّص الواحد.

المبحث الثّاني: حجاجية الكناية في خطاب الآخر في ديوان نبوءات الجائعين

1ـ مفهوم الكناية

الكناية تركيب لغوي ووسيلة فنية من أهمّ وسائل الأداء الشّعري، وقد عرّفها "عبد القاهر الجرجاني" بقوله: «أنْ يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللّفظ الموضوع له في اللّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردِْفُه في الوجود، فيومئ به إليه، ويجعله دليلا عليه»[1]، فهي اللّفظ الظاهر الذي يخفي معنى، أو يومئ إليه، أو يرمز إليه، مع أنَّ اللّفظ الظاهر يمكن أنْ يكون مقصودا لذاته، لكنَّ السيّاق هو الذي يخرجه من الدلالة اللغوية الظاهرة إلى المعنى الخفي، وتستخدم الكناية لغايات مختلفة ذلك أنّها «تستطيع أنْ تسمو بالمعنى، وترتفع بالشّعور إلى مستوى التّعبير الفنّي والأداء الإيحائي الشّفّاف؛ الذي لا يثير المخيّلةَ فحسب، ولكنه ينفذ إلى الذّهن عن طريق الحسّ، فيصدمُه أولا بصورة المعطى الحسّي التي هي صورٌ غير مقصودة، ثم يفجؤه بعد ذلك بما يخفيه هذا المعطى الحسّي من دلالات نفسية وفكرية، وذلك بواسطة الإيماءات السّريعة، واللّمحة الخاطفة التي يتلقّفها العقل والشّعور مبهوريْن ببهجة الاكتشاف ومسرّة المفاجأة»[2].

2 ـ حجاجية الكناية:

لقد أشار الجرجاني منذ القديم إلى البعد الحجاجي للكناية في قوله: «أمّا الكناية فإنَّ السبب في أنْ كان للإثبات بها مزية لا يكون للتّصريح أنَّ كلَّ عاقل يعلم ـ إذا رجع إلى نفسه ـ أنَ إثباتَ الصّفة بإثبات دليلها

[1] الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق: أبو فهر محمود محمد شاكر، ط5، القاهرة، مطبعة الخانجي، 2004م، ص66.

[2] عيكوس الأخضر: الصّورة الكنائية في القصيدة الجاهلية، جامعة منتوري قسنطينة، مجلة الآداب، مج 04، ع 01، 1997م، ص90.

وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدّعوى من أنْ تجيء إليها هكذا ساذجا غافلا»[1]، فهو تأكيد على قيمة المعنى المُعبَّر عنه بلفظ الكناية.

ومِنْ منظور الدرس اللساني المعاصر فقد اعتبر "ديكرو" أنَّ اللغة حجاجية بطبيعتها، فهو يرى أنَّ الأقوال اللغوية «تحمل في جوهرها مؤشرات لسانية ذاتية تدلُّ على طابعها الحجاجي دون أن يكون ذلك مُتعلقا بالسّياق التّداولي الخارجي»[2]، فالكناية أحد الأساليب اللّغوية التي تتضمّن حقيقة مصحوبة بالدّليل، وإيرادها في السّياقات المناسبة التي تخرجها من الحقيقة إلى المجاز يهدف إلى المحاجة بها، وعليه فإنَّها من منظور الحجاج أحدُ أهم الوسائط الخطابية المهمة في الخطاب الأدبي، فهي «أقوال إضمارية، وتكون معانيها معانٍ استلزامية، لأنَّ المتكلم لا يذكرها باللفظ الموضوع لها في اللغة، إنّما يأتي إلى ألفاظ تلزمها فيذكرها قاصدا بها طلبَ ملزوماتها»[3]، فهي تدفع الذهن إلى البحث عن المضمر عن طريق القياس والاستلزام.

[1] الجرجاني عبد القاهر: دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر، ط5، القاهرة، مطبعة الخانجي، 2004م، ص 72.

[2] جبابلي عمر: الحجاج اللغوي عند ديكرو وأنسكومبر، ص 197.

[3] بنعيش عبد العزيز: التواصل بين القصد والاستقصاء. مقاربة تداولية لفاعليتيْ التدليل والتّأويل، أطروحة دكتوراه، جامعة فاس المغرب، 2003-2004، ص 320.

2ـ 1 ـ حجاجية الكناية في خطاب الآخر (ابن الوطن)

تعد الكناية أحد أهمّ البِنيات الأسلوبية المُشكِّلة للخطاب الأدبي منذ القديم، وقد ارتقى الخطاب الأدبي المعاصر بالأسلوب الكنائي؛ فلم يعُد تشكيلا جماليا لتزيين الكلام فقط، بل غدت من الوسائط الفاعلة في الخطاب والمحاجّة.

اتّكأ الخطاب الشّعري في ديوان "نبوءات الجائعين" على أسلوب الكناية باعتباره نُظِم بين قضبان السّجون، ولعل كثيرا من الرّسائل المُبطّنة في ثنايا النّص الشّعري السجني تميلُ إلى التّلميح لغايات مختلفة؛ قد يتعلق بعضها بحياة القصيدة وانتشارها، وقصيدة (لنا صُبحٌ نُؤمّله) من النّصوص الشّعرية التي تتضمن خطابا إلى الآخر الذي يقاسم الأنا الشّاعرة بعضَ همومها ومِحنها، إلا أنّ الحال مختلفة، فوضع الآخر أكثر حريةً غيرَ أنّه أسوأُ حالا، يقول "أيمن العتّوم":

لنا نفوسٌ يهابُ الموتُ عزَّتها

ولا تنام على ذُلٍّ مآقِينا[1]

يُؤشِّر الشّاعر للسّياق المُرتبط بالخطاب الشّعري في هذه القصيدة التي نُظمت في (سجن المخابرات، زنزانة 67)، فيوجِّه الخطاب المباشر لأمّه (يا أمَّ أيمن) ليخففَّ من وطأة الفراق، غيرَ أنّه يستهدفُ فئات أخرى من أبناء شعبه، فيبُثُّها رسائل مناسبة حسب طبيعة كلِّ فئة ومواقِفها، وهذا الشّاهد وإنْ كانت ملفوظاته تُبرِز افتخارَ الشّاعر بنفسه، فالمعنى المستلزم من وراء اللغة يختلف عن المُصرَّح به، فالأقوال الكنائية «أقوال إضمارية، وتكون معانيها استلزامية، لأنَ المتكلم لا يذكرُها باللّفظ الموضوع لها في اللّغة، إنّما يأتي إلى ألفاظ تلزمها فيذكرها قاصدا بها طلب ملزوماتها»[2]، فالذّات الشّاعرة من خلال القول (لا تنام على ذلّ مآقينا) لا شكَّ أنها تستند إلى الملكات التدليلية والقرائن الحالية التي يتضمّنها السّياق الداخلي (الملفوظات) أو السّياق

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 11.

[2] بنعيش عبد العزيز: التّواصل بين القصد والاستقصاء، ص 320.

الخارجي المرتبط بالنظم، مع إدراكها المسبق أنَّ المتلقي بإمكانه الوقوف على مقاصد الخطاب، وانطلاقا من ذلك يمكن أنْ نرصد أهم مراحل الاستدلال على المقصود وهي:

*1. عدم النوم (لا تنام) يدل على الحرص

*2. الحرص يقتضي رفض الاستغلال والإذلال.

*3. رفض الذّل يتطلب الانتباه الشّديد لكل أفعال الآخر عن طريق المراقبة.

*4. الانتباه الشّديد (مآقينا) يؤدي إلى رد الفعل المناسب.

*5. رد الفعل يُثبت نزوع النّفس إلى التّحدي والمقاومة الذي أشار إليه مسبقا

*6. التّحدي والمقاومة يثبت الوجود ويُقوِّض سياسة الآخر.

وعليه فإنَّ التّعبير (لا تنام على ذل مآقينا) يثبت صفة الإباء والتّحدي وإبطال مكائد الآخر، وتتجلى حجاجية هذا التّعبير الكنائي في كون المعنى المستلزَم مُؤسس على مدلول اللّغة الظاهرة، إذْ يعتبر التّعبير الكنائي في عجز الشّاهد دليلا وشاهدا قويا على الحُكم؛ الذي قرّرَته الأنا الشّاعرة في مطلع الشّاهد، ممّا يُحْدِثُ تعالقا إيجابيا تضافرت فيه ملفوظات الشّاهد الشّعري التي تحمل المتلقي أو الآخر على التّصديق والتّسليم أو تغيير الموقف إنْ كان قد أصْدرَ أحكاما مسبقَةً على الذّات الشّاعرة.

تقوم فلسفة خطاب الآخر الذي يتقاطع مع الأنا الشّاعرة في هذه القصيدة على جعل التّجربة الشّعورية مشترَكة بين كثير من الذّوات التي تحمل رسالة الإنسان ورسالة الحياة ضد الآخر الذي يوظِّف فلسفات القمع والحصار، فيعبِّر الشّاعر بالأنا الجمعي عن تجربة ذاتية ممّا يحمل المتلقي على التّصديق، فتتشكّل لديه صورة واضحة المعالم عن العلاقة بين الآخر وباقي الأنوات التي يُعدُّ أحدَ أطرافها، باعتبار موقعه في الخطاب، وهي فلسفة حجاجية تجعل رسالة الشّاعر تحقق أهدافها، يقول أيمن العتّوم:

إنّا صبرنا على ضَيْمٍ نُساقُ له

وإنْ يكُ الصَّبرُ في الأحشاء سِكِّينا

فلا تخافي لنا صُبْحٌ نُؤمِّلُه

يَهْدي السُّراة الحيارى حينَ يَهدينا[1]

يتضمّن الخطاب الشّعري ملفوظات تؤشّر لحالة الأنا، فالسّياق المقامي بارز بوضوح من خلال الملفوظات (صبرنا، ضيم نساق له، الصبر في الأحشاء سكين) ثم تهتدي الأنا الباثّ للخطاب إلى توجيه الرّسالة التي تعيد الثّقةَ لمتلقي الخطاب (لا تخافي) إذْ يُرْدف الخطاب بما يقود إلى التّصديق؛ ونقصد التّعبير الكنائي المُكَثَّفَ (لنا صبح نؤمّله) (صبح يهدي السُراة الحيارى) وعليه يمكن أنْ يكون الاستدلال على المقصود من الخطاب على النّحو الآتي:

*1. إنَّ الضّيْم الذي تتعرض له الأنا (ضيم نساق له) يستوجب الصّبر لتحقيق الهدف

*2. الصّبر الذي تشبّثت به الأنا (إنّا صبرنا) يُقوِّضُ حتما فلسفة الآخر في احتواء الأنا ومواقفها.

*3. إزالة الشّكوك وبعث الثّقة في المخاطب (لا تخافي) يبُثُ الأمل في نجاح مشروع الأنا في مواجه الآخر.

*4. الأمل في نجاح المشروع (لنا صبح نؤمّله) يستلزم تثبيت معالم الأنا وفشل الآخر (يهدي السّراة الحيارى).

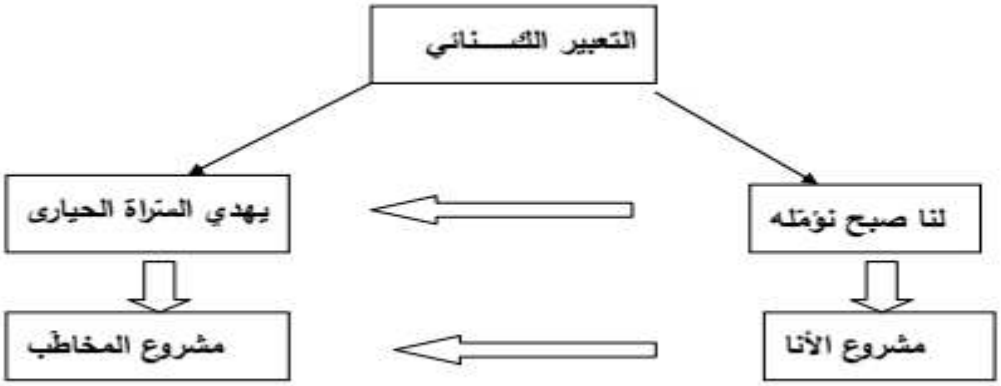
إنّه بناء على هذا التّأسيس يبدأ المتلقي (المخاطَب) في بناء الاستدلال العقلي انطلاقا من اللازم (الملفوظات في السّياق) إلى الملزوم (معنى المعنى) على النّحو الآتي:

*اكتساب قدرة على مواجهة الظلم بعدَ تعدُّد تجارب الظلم وكثرتها

*الاقتناع بفشل مشروع الظلم يُعزز ثقة المخاطب في نجاح مشروع الأنا

*ثقة المخاطَب في نجاح مشروع الأنا هو ثقةٌ في نجاح المشروع المشترك

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 11.



الشّكل (10) حجاجية الكناية في خطاب الآخر (ابن الوطن)

تتعدّد أشكال الخطاب ورسالاته إلى الآخر الذي يشترك مع الأنا الشّاعرة في مشروع النّضال والحياة، فمن خطاب التّطمين وبعث الثّقة في القصيدة السّابقة إلى خطاب النّقد والعتاب في قصيدة "نبوءات الجائعين" ومن ضمن ما جاء فيها قول "أيمن العتّوم":

ستمرُّ أعوامٌ كأعوام الرّمادة في بلادي

لا شيءَ غيرَ الجوعِ ... والفحشاءِ...

والأحزابِ ... والفِرَقِ العديدةْ

سيَمرُّ مَنْ أكَلوا التّرابَ على البَيادِرِ

ثم يبتَدِئونَ أُغْنيَةَ الحَصِيدةْ:

نحنُ العجينةُ للحُكوماتِ الرّشيدةْ

وسيهتِفون برُوحِ قائِدهم وأيْديْهِ المديدةْ

وسيَجْلِسون على الحَديدةْ

وسيهتِفونَ.... ويهتفونَ...[1]

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 19.

يتعالق الخطاب في هذه القصيدة تعالقا شديدا مع قصائد "**نزار قباني**" الشّاعر الثّائر على الأنظمة العربية في نقده وجلده للذّات العربية حاكمة ومحكومة، وفي هذا المقطع يبرُزُ التّعبير الكنائي الذي يصوِّرُ وضْعَ الآخر (أبناء الوطن) في التّركيب (مَنْ أكلوا التّراب في البيادر) فملفوظ (البيادر) يؤطر مدلول التّركيب الكنائي، إذْ أنَّ (أكل التّراب) هو الحلُّ الأخير لمن ضاقت عليه الأرزاق، وانقطعت به السّبل، فلا يجد ما يُرْضي به نهمَ الغريزة إلا اللجوء إلا التّراب في محاولة يائسة، لكنَّ الشّاعر يمارس فلسفة إثارة المتلقي حين يربط الصّورة الكنائية الدّالة على شدّة الفقر أو الجوع بموْضِع الوفرة والزّاد، وهنا ينكسر أفق التّلقي، ويدفع المتلقي إلى التّساؤل مرة والإجابة في الأخرى، فيعيد إنتاج الدّلالة، وقد يصل إلى نتيجة، كما يمكن أنْ يهدم نظريةً اجتماعيةً، أو يعيد التّأسيس لفلسفة جديدة، هذا التّركيب الكنائي الذي يتناص مع القول الذي يُنسب لأكثر من شاعر ومنهم إلى طرفة بن العبد (من الكامل):

كـالعِيسِ فـي البَيْداءِ يقتُلُها الظّمـأُ والماءُ فوقَ ظُهورِها مَحمُـــول

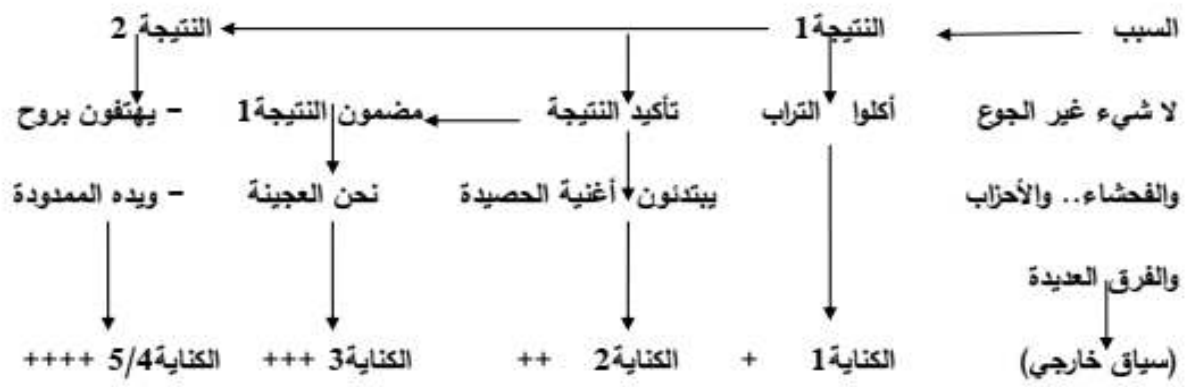
فالقارئ الإيجابي الذي له خلفية فكرية يستحضر مضمون هذا الشّاهد فيَعْمَدُ إلى المقارنة بين الموقفين، ويبني استدلاله بالقيّاس، لأنَ ربط الجوع أو ما تحيل إليه الصّورة الكنائية بالبيادر أشبه (بالموت عطشا رغم حمل الماء على الظهور)، فقد جعل الممكن مستحيلا، وهذا ما يستدعي البحث في الأسباب، وقد أشار الشّاعر إلى بعضها في السّياقات القبلية (لا شيءَ غير ... والأحزاب..والفرق العديدة) وهنا يستحضر المتلقي الصّورة النّمطية للمجتمعات العربية التي تحكمها فلسفات الاستغلال وتناحر الأحزاب على حساب الفكر الهادف والمشروع الجامع، وما يعْضُدُ هذه الفكرة هو تكثيف الشّاعر في خطاب النّقد عن طريق الأسلوب الكنائي في التّركيب (يبتدئون أغنية الحصيدة) إذْ ينطبع في المخيال الجمعي للمجتمع العربي الفلاحي بَعضُ العادات الحسنة في موسم الحصاد.

تعتبر هذه الصّورة من أجمل الصّور كونها تمثّل الخاتمةَ السّعيدة لنهاية الموسم ونجاح المشروع الفلاحي، غيرَ أنَّ الإحالات السّابقة تجعل المدلول الكنائي يسير في الاتجاه السّلبي وفقَ مقصدية ناقدة

ساخرة، تدفع إلى الاستغراب والبحث في علاقة التناقض بين مقصود الكنايتين، وممّا يزيد من حدّة الرّفض وتأجّجُ عاطفة الاستهجان ما يُورده الشّاعر عن مضمون هذه الأغنية (نحن العجينة للحكومات الرّشيدة)، إذْ تمثّل العبارة نحويا جملة مقول القول، وقد أوردها الشّاعر بلسان المتكلم، فأنْطَق الجائعَ المستعبَدَ ليعترفَ بنفسه، فتكون الحجّةُ عليه أقوى مِنْ أنْ يوردها الشّاعر بلفظ الغائب (قالوا)، هذه الاستراتيجية الخطابية تجعل المتلقي يستحضر أطراف الصّورة، ويتمثّل المشهد، فيكون الشّاهدَ والحَكَمَ في آنٍ واحدٍ، وهو ما يحقق للخطاب الكنائي مقصديته؛ تعاطفا أو نقدا أو تطهيرا.

إنَّ تصوير الذّات المستضعَفَة بهذه الصورة (العجينة) يُحيل إلى مدلول التّشكيل السَّلِسِ والحرية المطلقة في التّعامل مع هذه الذّوات التي تعدُّ نظريا أساس المجتمع والسّد الحصين أمام فلسفة الآخر الظّالمة، وكلّما ارتفع سقف الطّموح في مواجهة مشروع الآخر تعاظمتِ الخيبة في نفس الشّاعر، ومن خلاله كلّ أنا ترفض الانقياد، لأنَّ الذّات المستضْعفَة فقدت كلَّ قيمتها وإنسانيتها، فرضيت بالذّل والهوان.

يستخدم الشّاعر إستراتيجية حجاجية في هذا المقطع تقوم على الانطلاق من سياق مُؤشِرٍ للخطاب ثم عرْض الحجج التي تدعِّم اللّاحق منها بالسّابق في تكثيف كنائي يشُدُّ الانتباه، إذْ بعد الاستسلام للآخر (نحن العجينة) يُورِد تعبيرا كنائيا آخر يبرزُ حدَّة الانفعال والغضب، لأنَّ هذه الذّوات لم تكتفِ بالاستسلام والتّسليم؛ بل راحت تهتف للقائد (الآخر الظّالم) تعبيرا عن الرضا، وإشادةً بسياسته التي بسطت نفوذها فاستحكمت، فوظّف ملفوظات تُحيل إلى درجة العبودية، وتكنّي عن تمكُّن الآخر من احتواء الأنا (يهتفون، بروح قائدهم، وأيديه المديدة)، ويبرز موقف الشّاعر الرّافض من خلال التّعبير الكنائي (سيجلسون على الحديدة) في إشارة إلى الضياع المطلق، وفَقْد المقوِّمات المادية والمعنوية، ويمكن أن نمثّل لهذه الإستراتيجية الخطابية انطلاقا من التّراكيب الكنائية وعلاقتها بباقي الملفوظات في إطار السّياقات الدّاخلية والخارجية بهذا المخطط.



الشّكل (11) الأبعاد الحجاجية للكناية في خطاب الآخر (ابن الوطن المستضعف)

يبرز المخطط الاعتماد الصّريح على الأسلوب الكنائي المكثّف للتّعبير على حالة الأنا التي أسهمت في استشراء مخطط فساد الآخر، ولعل حجاجية هذا الرّصد الكنائي البديع تجسّدت في التّدرج الواضح في درجة الاستسلام والتّسليم، ومع هذا الوضع يضيع الوطن، ويتأثر الجميع، فيشربون (دماء عزّتهم) وتفتقد الكرامة، لكنَّ الذي يتأثر بدرجة أكبر هو صاحب الطّموح والفكر الجموح عن تفكير القطيع، وهو الأنا الشّاعرة التي تحمل مشروع الإنسان، يقول "أيمن العتّوم":

فما أجادوا غير تصفيق لأصحاب السّعادة

ويشربون دماء عزّتهم

ويقتتلون من أجْلِ الكرامات الفقيدة

وتنزُّ من جرحي على جرحي إلى جرحي القصيدة[1]

هذه النّتيجة التي تُحرِّك المشاعر وتستثير جراحَ الأنا؛ التي تتلقى الخطاب، جعلت الشّاعر يُغيِّر دفّة الخطاب، ويُخففُّ من وطأة الضّغوط على النّفوس المُنْهكة، فيوجِّه النّقد الصّارخ في مطلع القصيدة الأخير إلى الآخر الذي استغلَّ الظروف الاجتماعية والسّياسية، وعرضَ ذلك في تعابير كنائية بسيطة الملفوظات؛ بعيدة الدّلالات، فيقول:

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 19 –20.

وانتهى شعبٌ تمرَّسَ في النّضال لهم وواجهَ مصْرعه

هُمْ يشربون مدامعه

هم يصنعونَ فَجائعَه

هم يسرقونَ مواقِعَه

هم ينْخرونَ أضالعه

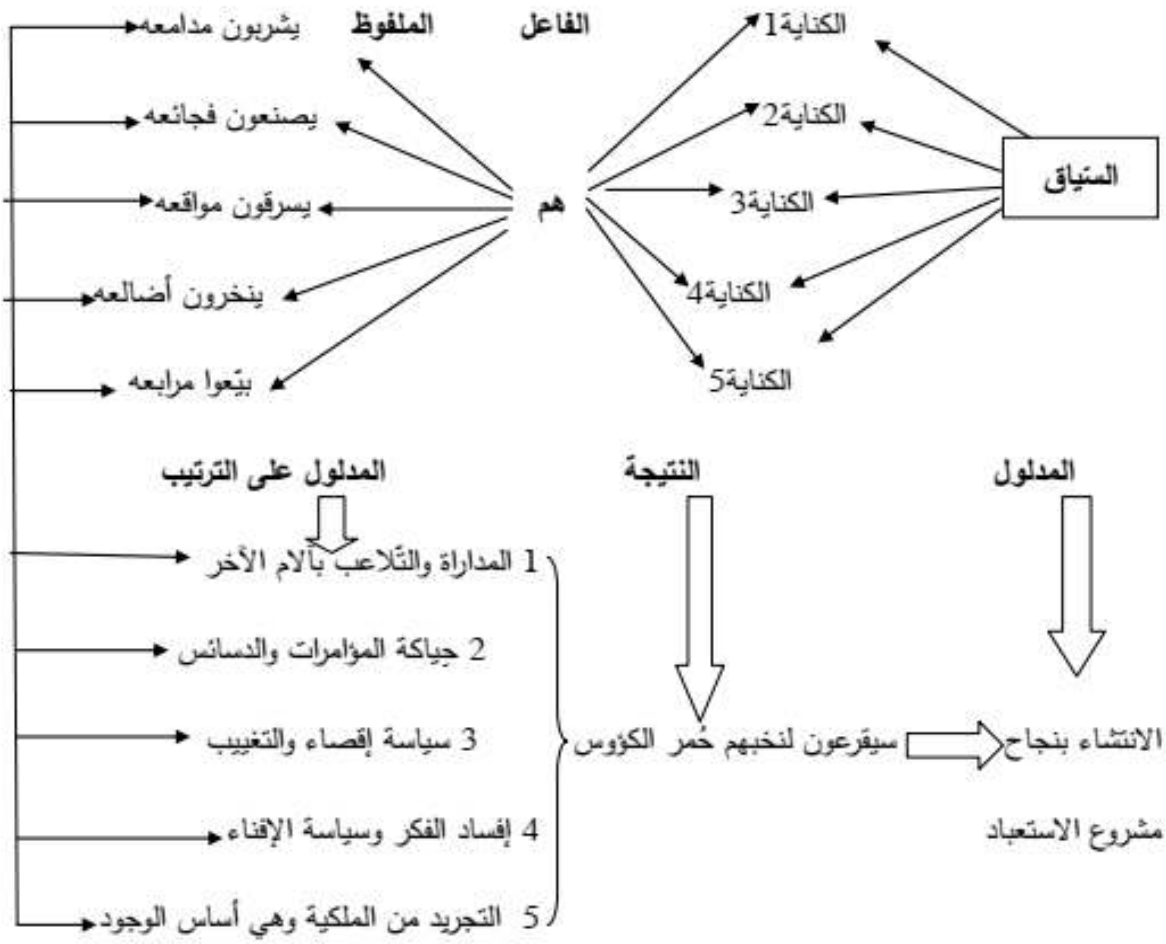
هم بيَّعوا أوْطانَهُ ومرابِعَه

ويوقِّعونَ على انتهاء الموقعه

وسيقرعون لِنخْبهم حُمْرَ الكؤوس المُتْرَعَةْ[1]

يورِد الشّاعر أساليب الآخر الظالم بتعابير كنائيةٍ تتجلّى حجاجيتها في اتّكاء الدّلالة على ظاهر اللّفظ أيْ أنَّ كلَّ كناية تتضمّن حقيقة تُثْبتُ ملفوظاتها صِحّةَ المعنى المراد التّكنية عنه، ثم يتدرّج في عرض الأساليب حسبَ درجة القوّة أو التّسلط أو قيمة تأثير الفعل على الذّات أو في السّلم القيمي المشترَك، أو على مستوى خسائر الأنا التي رأى أنَّها تمرست في النضال للآخر، ولتوضيح ذلك يمكن الاستعانة بالمخطط التوضيحي الآتي:

[1] المصدر نفسه، ص 20-21.



الشّكل (12) الأبعاد الحجاجية لمضمرات الخطاب الكنائي في خطاب الآخر (ابن الوطن)

2. 2 ـ حجاجية الكناية في خطاب الآخر (العربي المُستضعف)

سبقت الإشارة إلى أنَّ قصيدة "**نبوءات الجائعين**" ـ التي تعدُّ عنوان الدّيوان الشّعري موضوع الدّراسة ـ تتنوّع خطاباتها، وتختلف الاستراتيجيات الخطابية فيها تبعا لطبيعة كلِّ خطابٍ وأهدافه، بمراعاة خصوصيات المخاطَبِ وانتمائه وأيديولوجيته، إذْ نجد الشّاعر يُخاطب في المقطع الأخير منها الأنا العربي عساها تدرك عمق الخطاب الذي تضمّنته المقاطع الأربعة الأولى، يقول أيمن العتّوم:

أيُّها المزْروعُ في قلب العروبة

أيُّها المطْعون بالحُزْن الدّفين...

المولع... المهووس بالعرب... المُعبَّأُ بالتِيَاع

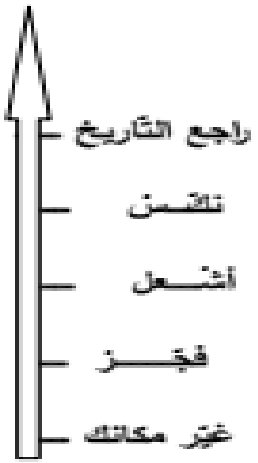
غيِّرْ مكانَك ... فجِّرْ الرُّوتين... أشعلْ صفحةَ المُتآمرين

ونكِّسْ الأعلامَ للمستسلمين... وراجِعِ التّاريخ[1]

تحمل السّياقات النّصيّة الأولى من هذا المقطع إحالة مُسبقة تُعدُّ أرضية الخطاب التي يتّكئ عليها المتلقي في مسار إنتاج الدّلالة وتأويل ملفوظات الخطاب الكنائي اللّاحق، إذْ تُجْلي هذه السّياقات طبيعة المخاطَب (المزروع في قلب العروبة) (المولع، المهووس بالعرب) (المعبّأ بالتياع) والوضع الذي يعيشه (المطعون بالحزن) وتأتي رسالة الشّاعر إلى المخاطَب (الآخر) الذي يرتبط معه أيديولوجيا وعقديا وسياسيا، فيستخدم التّعبير الكنائي الأقدر على تبليغ الرّسالة بطاقاته الفنّية العالية.

يحشد الشّاعر في المقتطف أفعال الحركة لبعث الحياة وتجاوز القيود والمعوّقات (غيِّر، فجِّر، أشْعلْ، نكِّسْ، راجعْ) إذْ يبني خطابه على استراتيجية التّغيير الهادئ الذي يتدرّجُ في الفعل رغبةً في إقناع الآخر بضرورة بناء إستراتيجية ناجعة في التّغيير الذي ينْشُدُه حتى يحققَ الهدفَ، ومن خلاله كُلّ مُتلقٍ للخطاب يشترك مع هذا المخاطَب، إذْ يمكنُ تمثيل ذلك على السّلم الحجاجي الآتي:

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 27.



الشّكل (13) السّلم الحجاجي للكناية في خطاب الآخر (ابن الوطن المستضعف)

ومن خلال السّلم الحجاجي يمكن بناء الاستدلال على النّحو الأتي:

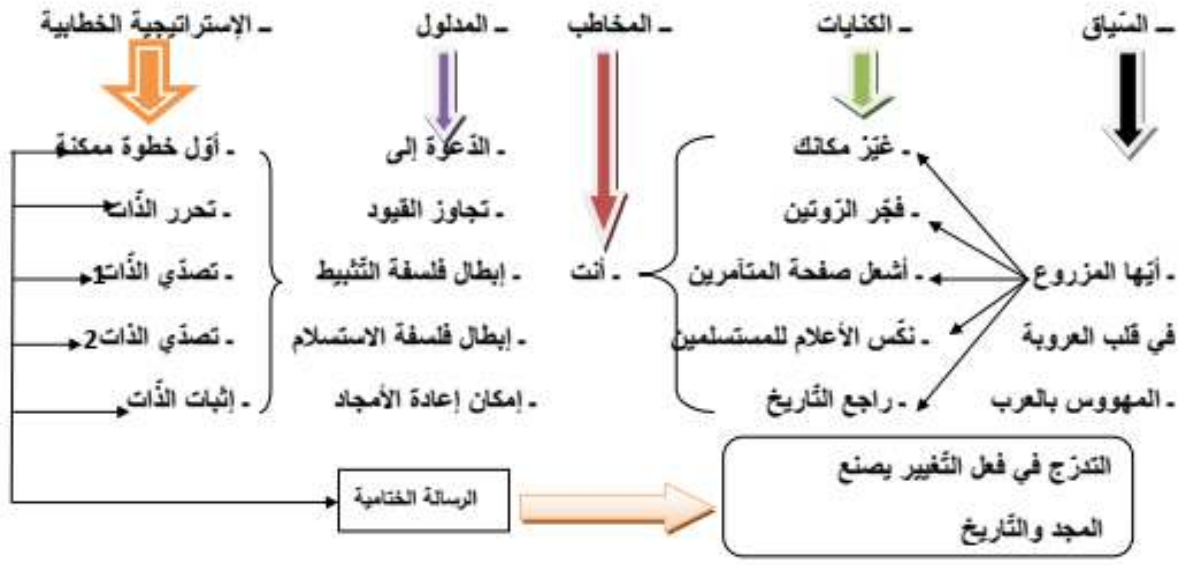
*1ـ تغيير المكان يتطلب تجاوز الوضع السّائد (الرّوتين)

*2ـ تجاوز الروتين يُشجِّعُ على فعل أقوى (أشعل صفحة المتآمرين) وهو رفض التآمر

*3ـ فعل الرّفض ينطلق من إبطال فلسفة التآمر على الذّات والوطن هو أول خطوة للتحرر.

*4ـ تجاوز المتآمرين والمستسلمين خطوة تشجّع على مراجعة التّاريخ أيْ تغيير الخلفية التي تنطبع في الذّات المستضعَفة بأنّها ذات محكوم عليها .

وعليه فإنَّ الرّسالة التي يتضمّنها القول هي رفض الواقع والتّمرد عليه وصناعة المجد.



الشّكل (14) حجاجية الكناية واستراتيجياتها في خطاب الآخر (ابن الوطن المستضعف)

ويستمر نهج الخطاب في هذا المقطع بين التّقرير والتّوجيه وبثّ الرّسائل اعتمادا على الأساليب التّصويرية فيقول:

لا تلتفتْ أبدا لخلفٍ

ضُمَّ موطنك الكبيرَ على الصّدور وجهِّز الرّشاش

أحْرقْ بالرّصاص الآن وجْهَ الرّاجعين إلى الوراء

ومُدَّ موتا مِن ذراع

هي أرضُك السّمراء ... إمَّا أن تموتَ لأجلها

أو تموت ... كلاكما للموت..

لكن أنت لن تُشترى وأرضك لن تُباع[1]

لا يختلف الخطاب في هذا المقطع عن طبيعة الخطاب السابق تكثيفا واستراتيجية، فالشّاعر يبني خطابه بناء متكاملا مراعيا التّدرج في التّوجيه بلغة التّكنية الفنّية، فمراجعة التّاريخ تدفع الآخر المخاطَبَ إلى المُضي

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 27-28.

قدما لصناعة تاريخ جديد مشرِّف انطلاقا من التعبير الكنائي (لا تلتفت إلى الخلف)، لأنّه يعلم هو ومخاطَبُه حقيقةً أو افتراضا أنَّ الالتفات إلى الخلف يُضعِفُ العزيمةَ ويبُثُّ الوَهنَ، وهو يُحيلنا بهذا التّصوير إلى مضمون خطبة طارق بن زياد بعد حرق سفن جيشه دفعا بهم إلى التّقدم لا إلى التّقهقر.

إنَّ الكناية بهذه الملفوظات التي تبدو معانيها مطابقة لألفاظها، تجعل المتلقي يطمئنُّ إلى المدلول المقصود، لأنَّه يتمثَّلُهُ في واقعه، فيقع التّقبّلُ موقعا حسنا من عقله وقلبه، وتأتي الرّسالة الموالية أشدُّ جرْأةً، لأنّها تُحدّدُ الوسائل التي يجب الاتّكاء عليها لتحقيق الهدف المنشود (جهِّز الرّشاش، أحْرق الرصاص) وهي كنايات عن استخدام القوّة، لأنَّ الموقف يفرضها، والآخرُ يعلم مدى الحاجة إليها في هذه المرحلة، ويبقى التّدرّجُ في الفعل سِمةً بارزةً في القصيدة، فالبدْءُ بالمُثبِّطين مِنَ المستسلمين (الراجعين إلى الوراء) هو أول التّغيير لأنَّ خطر هذه الفئة أكبر من العدو نفسه، فالكناية عن الموصوف (الراجعين إلى الوراء) تتضمّنُ استراتيجية تلميحية عن طبيعة هذا الموصوف من خلال أبعاد الملفوظات اللّغوية (الوجه، الرجوع، الوراء) لتتشكّلَ الصورة الكنائية من خلال ربط التّركيب بالسّياقات القبلية.

ولا ينفكُّ الشّاعر يقدِّم الحجج التي تحملُ المخاطَب (الآخر) على التّسليم وتعديل الموقف بعد كلِّ خطابٍ توجيهي، فقد أورد بعد رسالته تلك ما يدفعه إلى تقبُّل الرّسالة اللاحقة (هي أرضك السّمراء...) التي تعدُ استراتيجية استمالة تُرَغِّبه في الحفاظ على الأرض؛ لأنَّ ضياعها ضياع محتوم لهما معا، ويستخدم الرّابط الحجاجي (لكن) الذي له قيمته التّداولية؛ إذْ «يفيد التّعارض بين القضايا التي يربط بينها، فهو لا يقع إلا بين متنافييْن بوجه ما، إمّا التّناقض أو الضّد»[1]، فالتّركيب (لكن/ أنت لن تُشترَى+ أرضك لن تُباع) تعبير كنائي مُحفِّز على الفعل، لأنَّ فعل الشّراء مُرتبط بالماديات لا بالأرواح في جانبه الأول، وبيع الأرض تفريطٌ فظيعٌ في أكبر مقوّمات الوجود، فالمحاجّة بهذا التّعبير الكنائي الذي يُحيل إلى العبودية والتّشرد يُبرز الكفاءة

[1] المرادي حسين بن قاسم: الجنى الدّاني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، ص 616.

التّداولية لهذا الخطاب، إذْ إنَّ مفهوم الكفاءة التّداولية «يُشير إلى قدرة مُستعمل اللّغة على استيعاب العناصر خارج لغوية وتوظيفها أثناء التّخاطب سواء في توجيه الكلام أو في تأويل ما يسمعه»[1]، فقد قدّم الشّاعر الافتراض المسبق المتّفق عليه، ودفع المخاطَب إلى الفعل تحقيقا للرّسالة التي يستهدفها من الخطاب، ويمكن الاستعانة بهذا المخطط الذي يتضمن بعضَ عناصر المقاربة التّداولية للخطاب.



الشّكل (15) البعد التّداولي للكناية في خطاب ابن الوطن المستضعف

إنَّ إبراز قيمة الحرّية والأرض عامل مُحفّزٌ على التّضحية بالنّفس، وقد هيّأ الشّاعر المخاطب تدريجيا لتقبّل الرّسالة، فعظّمَ الموت وأحاله حياةً أخرى إذْ يقول:

أيّها المحمي بالموت الجميل

تحزّم المتفجّرات اللاهبات تجدْهم مِزقًا

ودوْلتُهم متاع

لا حلَّ إلا القفزُ فوق النّار

هو يا أبي قدرٌ يجيءُ غدا ولنْ يُجدي الفرار

هو يا أبي ...

قدرٌ يحيطُ بنا... يُلاحقنا...

[1] موساوي فريدة: الكفاءة التّداولية: قراءة في الأساس الاجتماعي للّغة، جامعة الوادي، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنّقدية واللغوية، م04، ع04، 2021/12/30، ص 272.

ولن تخشى نُباح الكلب قافلَةُ السّباع[1]

يتجلّى في المقطع حال المخاطَب في تعبير انزياحي بديع يكسر أفق التّلقي، حين يستحيل الموتُ حياةً للإنسان، وحين يُوصف الموتُ بالجمال، ممّا يبدِّد سلطةَ الخوف في نفس المخاطَب، ويجعله يُغيِّرُ موقفَه ويُعدِّل سلوكَه، إنّه الخطاب الشّعري الذي يرتقي بالذّوقِ، ويُنقّي النّفس من شوائب الفشل ودَرَنِ الاستعباد، لقد استحال القبيح جميلا، والفناءُ حياةً، تلك فلسفة الجمال في الفنّ؛ التي تجعل المتلقي يرتبط بالخطاب، ويسعى لفكِّ شفراته عسى أنْ يضفر ببعض الدّلالات العميقة، فصورة المخاطب في هذا التّركيب الكنائي تُحيلُ إلى واقع التّناقضات الذي يتطلّب موقفا حازما، وشجاعة تُعيد الثّوابت إلى ثباتها، حينها تنْدَحر آلة التّسلُّط العمياء.

يذكر الشّاعر الفعل اللازم والنّتيجة الحتمية (تحزّم المتفجرات اللاهبات) (تجدْهم مزقا ودولتهم متاع)، إنّه تركيب كنائي يتضمّن سببا يُحيل إلى الأسلوب المنتَهج والنّتيجة تُحيلُ إلى قيمة الهدف المُحقق، لذلك يمارس الشّاعر تقنية التّكثيف في التّحفيز حين يستخدم التّعبير الكنائي الموالي (لا حلَّ إلا القفز فوق النّار) الذي يكنّي عن صفة التّحدي، ولعلَ المحاجة بمثل هذا التّركيب الذي تشير ملفوظاته إلى الفعل الجاد في مغالبة الصّعاب (القفز، فوق، النّار) ليبرز عظمة الهدف وعظمة السّاعي إليه، ممّا يبعثُ في النّفس الافتخار، ويختم الشّاعر خطابَهُ الشّعري المُدعِّم للآخر؛ الباعث على الإكبار والإجلال، بما يشبه الحكمة التي استقى مدلولها من المثل السّائر على الألسنة (القافلة تسير والكلاب في نباح)، فحوّل مدلول القافلة حين وصفها بقافلة السّباع، ليتضمّن التّركيب تكنية عن العظمة والتّحدي.

ويمكن تلخيص مضمون الخطاب الإجمالي في هذا الجدول الذي يراعي عناصر الخطاب التّداولي.

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 28.

المُرسل	المرسَل إليه	سياق المقال	سياق المقام	الرسالة	الوسيلة (الكناية)	الهدف
لا تبرز ملامحه إلا من خلال الخطاب والسياق المرتبط بالنظم . المضطهد بسبب الكلمة	المزروع في قلب العروبة المطعون بالحزن الدّفين المولع المهووس بالعرب . المعبّأ بالتياع	سجن الجويدة /06/29 1996م	. تعرفْ كيف تُرتّجع البلاد وكيف تلتهب البقاع . ضمّ موطنك الكبير . قف في وجه الظالمين.	. المقاومة . التّحدي . الثورة	. غيّر مكانك . نكّس الأعلام . راجع التّاريخ . لا تلتفت إلى أبدا لخلف . أحرق الرّصاص . أنت لن تُشترى . أرضك لن تُباع . تحزّم المتفجرات . تجدهم مِزقا	. الوطن . الحرية . الحياة

الشّكل (16) تداولية الخطاب الكنائي في خطاب ابن الوطن المستضعف

2 -3 ـ حجاجية الكناية في خطاب الآخر المختلف (المستبد)

إنَّ الحديث عن معاناة الذّات في القصيدة العربية المعاصرة يتجاوز الوصف والسّرد إلى البحث في جذور العلاقة بين الذّات والآخر على اختلاف أشكال هذا الأخير وصوره، لإبراز تأثير كلّ طرف على الآخر، وإذا كان الأمر يتّضح بصورة جليّة حين يتحدّد مفهوم الآخر وطبيعته كونه المغاير والمختلف فكرا وثقافة وأيديولوجيةً، وذلك من خلال طبيعة الخطاب ومجالاته، فإنَّ الأمرَ قد يلتبس على المتلقي حين تغيب هذه المؤشرات المقامية، ولعلَ الشّاعر "**أيمن العتّوم**" وهو ينظم قصائدَه في سجون بلاده يتجاوز أحيانا الزّمان والمكان، ويخاطب الآخر المختلف؛ الذي لا تظهر له سلطةٌ مباشرة على وضع الأنا الشّاعرة، فما هي تمثّلات هذا الآخر؟ وما الدّافع إلى هذا الخطاب؟ وكيف تتحدّد علاقته به من خلال الخطاب الكنائي؟

إنَّ قصيدة **(دمانا عند ربّ العرش أغلى)** تُحيلُ إلى علاقة التّصادم والاختلاف بين الأنا والآخر، الذي لا يظهر في الملفوظات اللّغوية التي تُكوّنُ العنوان، إذْ غَيَّبه الشّاعر وحذف ما يُحيل إليه، فالتّقدير (أغلى من دمائكم)، ومن الخطابات الكنائية في القصيدة قول الشّاعر:

دمانا في المزاد فساومينا

وصبِّي الكأسَ منها واشرَبِينا

إذا ما جئت حتّى تشترينا

فيا (أمريكا) كم تدفعينا؟!

ضعي ثمنا كما قد شئت بَخْسا

وكوني في عداد الزّاهِدينا[1]

يُحيل مطلع القصيدة إلى الفعل التّجاري وما يُصاحبه من أساليب البيع والشّراء، لكنَّ ملفوظ (الدّماء) يؤطِّر الخطاب ويرتقي به من الدّلالة اللّغوية إلى الدّلالة المجازية، من خلال الانزياح عن معنى التّجارة إلى

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 77.

الفعل السّياسي والأخلاقي، فالتّركيب (دمانا في المزاد، ساومينا، اشترينا) يُضمر في ثناياه طبيعة المخاطِب (دمانا) وحالته النّفسية (في المزاد)، ويُحيل إلى آخرَ مختلفٍ متجرِّدٍ مِن الإنسانية تشير إليه الملفوظات (ساوِمي، اشتري) فالتّركيب الكنائي يدفع المتلقي إلى التّساؤل عن هذا التّحوُّل في العلاقات الإنسانية، وأبعاده ودوافعه، ولعلَ ملفوظ (الدّماء) يُعدُّ عنصرا بنائيا محوريا يُجَسّدُ طبيعة العلاقة وقيمة التّصوير الفنّي، لأنّه ملفوظ مشحونٌ بالدّلالة الإيجابية والسّلبية، فهو بالنّسبة للأنا الشّاعرة ذو بعد قيمي على المستوى الإنساني والوجودي، وقد انتفت هذه القيمة عند الآخر، لأنّه استحال سلعةً تقاس بالكؤوس، فيشترى ويُباع، الأمر الذي يُحرّك الضمير الإنساني فيتفاعل بالتّشاؤم، ويُصدر مواقف الرّفض، ومتى حقّق التّركيب الفنّي هذا التّفاعلَ وأقْحمَ المتلقي في ثنايا الخطاب فقد بلغَ بالتّعبير الكنائي حجاجية عالية.

استخدم الشّاعر إستراتيجية الإضمار لإخفاء حقيقة الآخر، ليدفع المتلقي إلى البحث والتّلقي الإيجابي، ثم ما يلبث أنْ يصرّحَ بعد استخدام الإشاريات الخطابية المُحدِّدة لمعالمه (ساومي، جئتِ، تشتري) فأسلوب الإحالة البعْدية يُحققُ مقاصدَ متعددةً؛ من أهمّها البحث في طبيعة المضمر وبلاغة إضماره، فملفوظ (أمريكا) يستدعي ما انطبع في ذاكرة المتلقي، وعليه تتحدّد طبيعة المواقف التي يصدرها، والمشاعر التي تصاحبه أثناء تلقي الخطاب، ومتى خلا ذهنُ المتلقي من الخلفيات الفكرية لهذا الخطاب فإنَّ المُشيرات المقامية المُسبقة قد حدّدت معالمه وأصدرت حُكمها القيمي (المساومة، صب كؤوس الدّماء، الشّراء، كم تدفعي)، وبذلك يكون الشّاعر ومن خلاله الأنا التي تُصدر الخطاب قد حقّقت فاعلية الخطاب، وتمَّ استدراج المتلقي ليكون في موضِع المُحْتَكَم إليه، ممّا يدفعه إلى إنتاج الدّلالة.

وإذا كان ملفوظ (أمريكا) قد استخدم من باب المجاز المرسل لذِكْر المحل وإرادة الحال فذلك من باب تخصيص الخطاب، وهو ما يجعل الآخر محددا يقوم بالفعل اللا إنساني، حين ينسب إليه فعل السّمسرة (ضعي ثمنا بخسا) وهو تعبير كنائي يتضمّن مدلولين؛ أحدهما يتعلق بطبيعة المخاطَب، والآخر يجسّد صورة

الأنا في المنظومة القيمية للآخر (الهوان، الاحتقار)، ويكثّف من هذه الدّلالة في تعبير كنائي تالٍ، يظهر في التّعبير (كوني في عداد الزّاهدين).

تحليل الخطاب تداوليا

1. دمانا في المزاد ⟵ إثبات/ فعل كلامي.
2. **السّياق:** سياق هوان وضعف ⟵ سياق مقال/ في المزاد.
3. **المخاطَب:** أمريكا ويحيل إلى علاقة التّصادم ⟵ خلفية معرفية لدى المتلقي.
4. ما تعْرِضه الأنا الشّاعرة غير ملائم ظاهريا ⟵ مبدأ الملاءمة.
5. الأنا الشّاعرة على عقد التّعاون مع متلقي الخطاب الكنائي ⟵ مبدأ التعاون .
6. بما أنّ السّياق يُحيل إلى هوان الذّات في منظومة الآخر فلا بدّ من وجود علاقة بين المساومة والشّراء مجازيا ⟵ ملاءمة، معقولية، إفادة.

وانطلاقا من هذه المقاربة يتحقّق فعل الاستدلال العقلي من اللازم (اللّغة الظاهرة) إلى الملزوم (الدّلالات المقصودة).

الشّكل (17) تداولية الكناية في خطاب الآخر المختلف (المستبدّ)

ويمكن أنْ نرصدَ ـ انطلاقا ممّا سبق ـ محطّات الاستدلال على الدّلالات المستترة وراء اللّغة على النّحو الآتي:

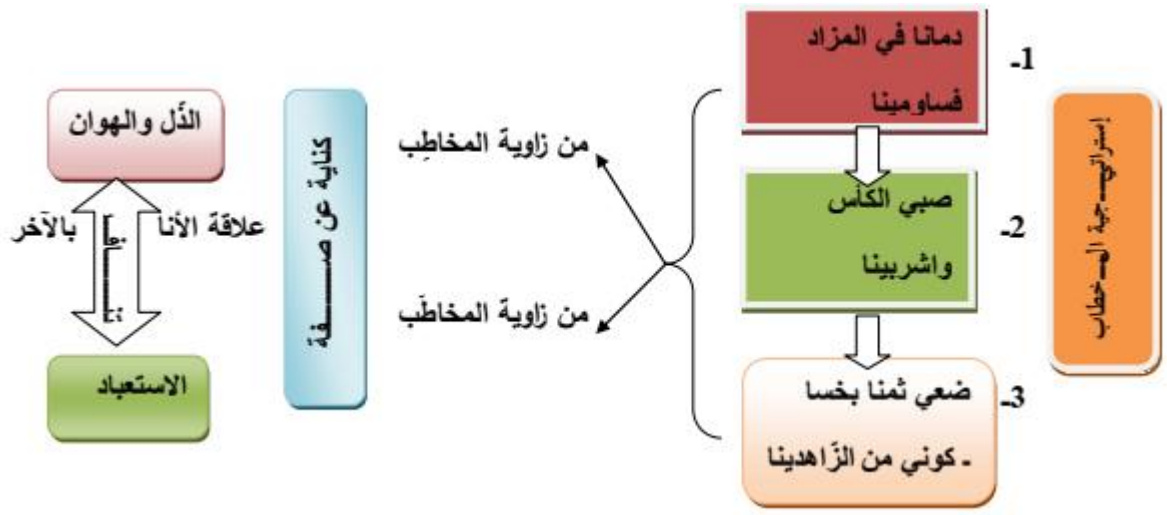
أ*فعل المساومة يُقتضي وجود عروض التجارة

ب*تقدير قيمة العرض تتأتّى من شكل العرض وطبيعته وخضوعه للقياس كما وكيفا

ج*طبيعة المشتري تتحدّد بفلسفة تقدير الأشياء (ضعي ثمنا بخسا)

د*قيمة الأشياء بمقدار قناعة صاحبها ومقاربة الآخر

وعليه فإنَّ الشّاعر يفضح فلسفة الآخر في التعامل مع الأنا، انطلاقا من النّموذج المجازي في البيع والشراء، وهو يترجم حسرة الأنا على الوضع الذي تعيشه.



الشّكل (18) حجاجية الكناية في خطاب الآخر المختلف (المستبدّ)

يتحوّل الشّاعر من الخطاب المباشر للآخر المختلف (أمريكا) إلى خطاب الأنا الجمعي سردا ووصفا بالاتّكاء على التّراكيب الكنائية وما تحيل إليه من مدلولات مختلفة، فيقول:

نموتُ وليسَ مَنْ يأسَـــى عليْـنا

ونُرْمـــى في السُّـــجونِ مُكَبَّلِيـــنا

نُساقُ إلى المَحاكِـــم دونَ ذنْـــبٍ

على اسْـــم عَدَالـــةٍ عَفِنتْ قرونا

قوانِـــينٌ لغـــــربيٍّ لئـــــيمٍ

ومـــا زلْـــنا لـــها مُستعْمَـــرِينا

نبـــوس نِـــعال أمريـــكا لتَرْضَـــى

ونَطْلـــبُ وُدّهَـــا مُتذلّلِـــــينا[1]

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 78.

إنَّ السّياقات القبلية بدءا من العنوان تُحيل إلى الوضع الذي تعيشه الأنا في علاقتها مع الآخر، ويُعدّدُ الشّاعر في السّياقات الموالية أفعال الآخر وآثارها على الأنا في تراكيبَ كنائيةٍ؛ تؤشِّر ملفوظاتها للخلفية الفكرية التي تجذّرت عن صورة الآخر في المخيال الجمعي للأنا، لأنَّ آثارها مازالت تُعكِّر صفو الحياة، وترْهن مُستقبل الأنا، فالتّركيب (نموت وليس مَن يأسى علينا) يصوّر مشاعر الحسرة والأسف، لأنَّ الفعل الثاني (يأسى) ينقل فعل الموت من مدلوله اللّغوي إلى المدلول الكنائي (الموت المعنوي) في ظل القهر والهوان، فالتّركيب الموالي يُؤسس لهذا المدلول (نُرمى في السّجون مُكبّلينا) يجعل المتلقي يتساءل عن الغاية من مبالغة الآخر في هذا الفعل، ما دام السّجن مصيرَ الأنا، وانطلاقا من اجتماع ملفوظين أحدُهما يُؤشر للآخر (السّجن/ التّكبيل) يرتفع الشّاعر بالتّعبير اللّغوي الوصفي إلى مستوى التّرميز بالكناية عن صفات أخرى تدعو إلى ربط التّركيب بمختلف السّياقات لتبدأ رحلةُ التّأويل بدءا من العلاقات النّصية الأفقية إلى العلاقات العمودية، ومن هذه الدّلالات تجاوز سجن الأجساد إلى سجن الكلمة؛ التي تعدُّ سلاحَ السّجين، والتي تتحدّى القضبان والقلاع، فالآخر يُحكم سيطرتَه على الأنا، ويستبد في تعامله (نُساق إلى المحاكم دون ذنبٍ)، وهنا يلمّح التّركيب الكنائي إلى فلسفة الآخر في علاقته مع الأنا، فسياسته تتجلى من خلال التّحكّم في جهاز العدالة من بعيد، لأنّه أسّسَ لها وأسْنَدَها إلى مَنْ يتوسّمُ فيهم الولاء المطلق، أو علّمهم كيف يسوسون الآخرين حفاظا على مناصبهم ومصالحهم.

فالتّركيب الكنائي يُضمر كثيرا من المعاني النّفسية، وإنْ بدا ظاهر اللّغة تقريرا فإنّه يتضمّن استفهاما مُبطّنا يُبين عن الاستغراب والرّفض والتّقدير (أَنُساق إلى المحاكم دون ذنب؟!)

وإذْ يكثّف الشّاعر من سرد بعض الحقائق ويميل إلى وصْفها فإنّه يقرر فكَّ الارتباط بالآخر، في لغةٍ تستفزُّ مشاعر المتلقي الإيجابي، لأنَّ الشّاعرَ ينتقي بعضَ صور الذّلِ التي ترتَسمُ معالمها في المخيال الجمعي منذ عهود (نبوس النّعال)، وهي كناية عن صفة التّذلل التي كانت عليها الأنا، وفي المقابل تُبينُ عن حقيقة الآخر وصفاته اللا إنسانية، إنّها تتضمن حجاجا قويا يَبْرُزُ من ظاهر اللّفظ حيث يؤديه الفعل

المرفوض أخلاقيا، الأمرُ الذي يدفع متلقي الخطاب إلى التّفاعل الإيجابي تصديقا وتضامنا وانفعالا، وقد اعتنى الشّاعر بما يُسمى الموضع الخطابي ذلك أنَّ «القيمة الخطابية للموضع الخطابي تكمن في ما تُوفّره للملفوظ من تسلسل في الخطاب وترابطه وانسجامه، وقد انصبَّ اهتمام "**ديكرو**" على هذه القيمة المركز؛ إذْ يرى أهميتها في إعطاء الملفوظ إمكانية مواصلة المحادثة عبر تسلسله وتواصله، فالموضع يمكّن الذّات من السيطرة على الحدث التّلفظي، فلا يترك فرصةً للمستقبِل في الاعتراض، ولا سبيلَ له سوى الخضوع والإذعان لقهر سلطة الموضع»[1]، ولذلك لم يكتف الشّاعر بعرض صورة التّذلل دون أنْ يميل إلى التّعليل (لترضى) والتّكثيف ووصف الحال بما يحملُ على التّأكيد (نطلب ودّها) (متذلّلينا).

لذلك فإنّ التّعبير الكنائي (نبوس نعال أمريكا لترضى) يعدُّ الموضع الخطابي الأهمَ في القصيدة، لأنّه يصوّر حال الأنا وعلاقتها مع الآخر، وتنجى طبيعة الآخر بما يُشير إلى الحالات الانفعالية المصاحبة للموقف، فإذا كان الشّاعر قد وجّه الاتّهام إلى الآخر الذي أخذ عدّة تمثلات بدءا من أمريكا، ثم جهاز العدالة العفنة، فإنّه بعد هذا التّدرّج ينتقل إلى مخاطَب آخر لا ينفصل عن أمريكا، لكنّه شريكها ووريثها في كيان الأنا المستضعَفة، ويكشف عن الفجوة الغائرة بين طرفي الخطاب، فيقول:

إذَا قتلُوا لـــنَا ألْـــفًا شَجَبْـــنَا

وقُمْـــنا بالصّـــياح مُنَدِّدِيـــنا

رَخُصْنـــا بين أَنفِســـنا وَهُـــنّا

كأَنّا قَـــدْ أَلِفْـــنَا أنْ نـــــهُونا

وأمّـــا فاليـــهودُ لهُـــم أمـــانٌ

متَـى سفكـــوا دِمانـا وامْتطَوْنـا

فكَـــمْ مِـــنْ قاتلٍ قد حـــاكمُوه

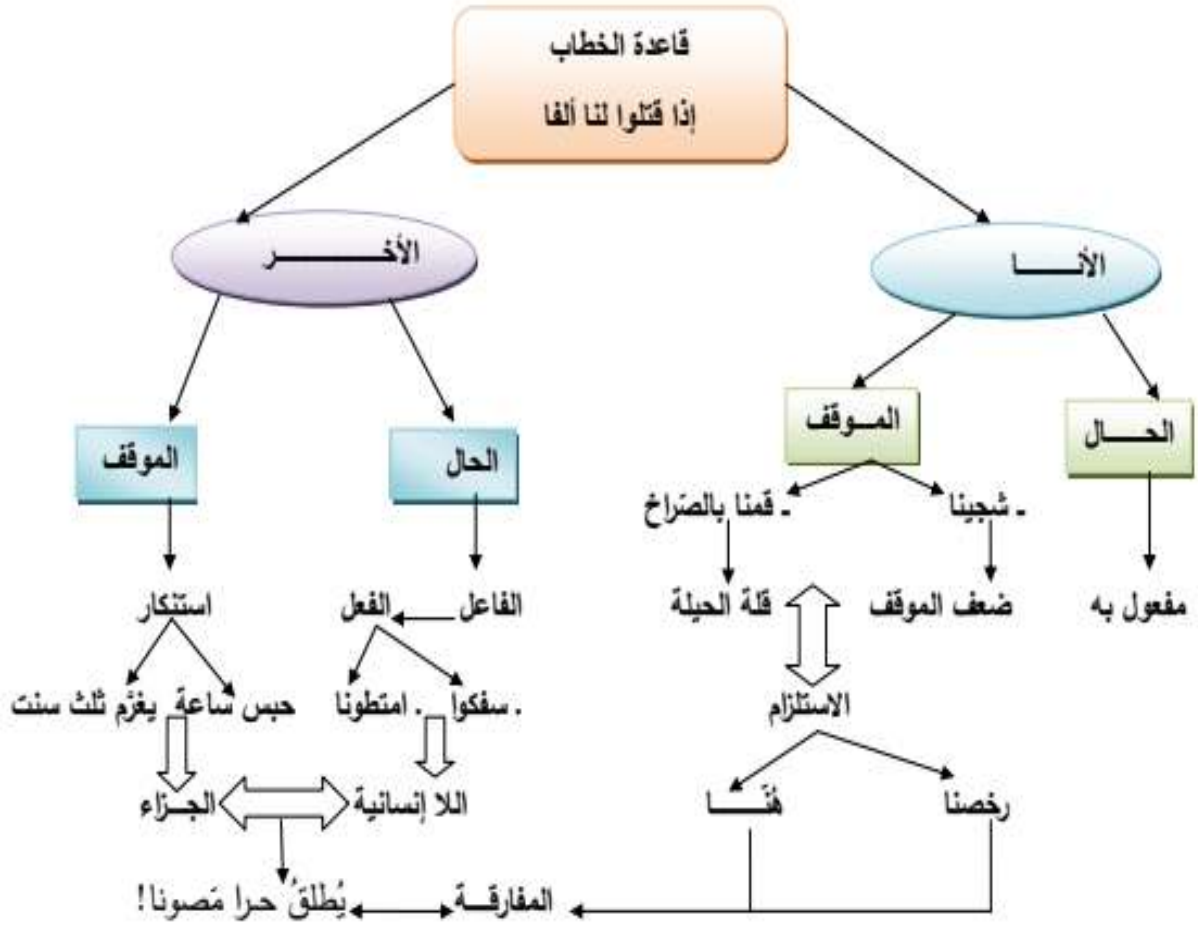
[1] عزّ الدين الناجح: العوامل الحجاجية في اللّغة العربية، ط1، تونس، مكتبة علاء الدّين للنشر والتّوزيع، 2011، ص 102.

بِحَبْـسِ ســـاعةٍ مُسْتكْـثرِينا

يُغَـرَّم ثُلْـثَ سِنْتٍ أو أَغُـورا

ويُطلَقُ بعـدها حُـرا مَصُـونا[1]

يمكن إعادة بناء الاستدلال اعتمادا على التّعابير الكنائية التي تُفصِّل في تصوير حال الأنا وموقفها من فعل الآخر في هذا المخطط.



الشّكل (19) الأبعاد الحجاجية للكناية في خطاب الآخر المختلف (المستبدّ)

يتجلى الصّراع بين الأنا الشّاعرة والآخر المعتدي حول موضوع القتل وردود الفعل، إذْ يُحيل تعامل الآخر (اليهود وأعوانهم) مع قضية القتل تعاملا يجسّد هوان دم الأنا، وهو ما يحمل تأكيدا للفكرة الأساس التي كانت

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، 78.

محور الخطاب في مطلع القصيدة، والبارز في المقطع هو اتّكاء الشّاعر على التّراكيب الكنائية؛ التي تنطلق من الواقع الذي تعيشه الأنا في الوطن العربي، إذْ يتعارض مدلول الكنايات الواصفة للأنا بنظيرتها الواصفة للآخر، ممّا يجعل الاستلزام المنطقي يحدّد علاقة التّنافر والاختلاف بين الأنا والآخر.

تبقى رسالة الشّاعر ساميّة الغايات تتجاوز التّحسّرَ والبكاء على الأطلال إلى التّحفيز وشحن الذّات بما يحملها على النّهوض وتجاوز الخيبات، وقد أدرك الشّاعر أهمية ذلك فانتقل في القسم الأخير من القصيدة إلى العمل على إعادة الحياة إلى الأنا المنكسرة، وإعادة بناء العالم فيقول:

دمـــانا عند ربِّ العـرْشِ أغْـــــلى

وإنْ هانـــت عـــلى المُتـــآمـــرينَا

نحبُّ بـــــــلادنا ونمـــوتُ فيـــها

ولا نـــرْضى لـــها صُلحًـــا مُشِيـــنَا

ونحفـــرُ لليهـــود بـــها قبـــورًا

ونحْمِلُ ضِـــــدّهم حِقدا دَفِيـــنَا

بلادي لليهـــود لَـــظًى جحيـــمٍ

ونـــأْنَفُ مِثـــلَهُم أنْ يَخْـــدِمُـــونا[1]

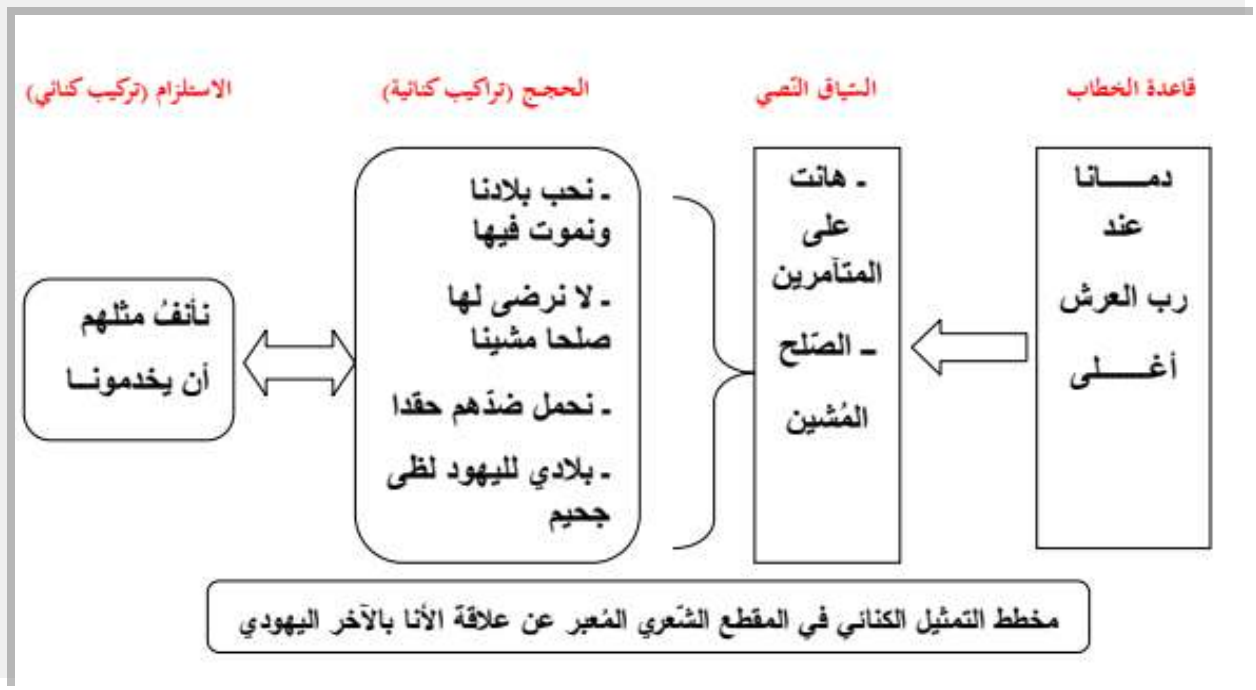
يأتي التّعبير الكنائي في مطلع الشّاهد ليبعثَ الحياة في نفس الأنا التي بكت واقِعَها وتحسّرت على حالها، إنّه يُعظِّم الدّماء التي سفكها الآخر وهي زكية عند ربِّ العرش، وهو خطابُ إفحامٍ للآخر الذي يزهو بانتصاراته على الأنا، ويميلُ الشّاعر إلى تقنية الالتفات حين يشيرُ إلى الآخر القريب؛ الذي يتآمرُ مع الآخر البعيد، ولعلَ الشّاعر مالَ إلى تقنية الإشارة دون التّصريح (المتآمرين)، وهو عن قناعة بأهمية التّكنية التي تميل إلى التّعميم أولا ثم إلى تجاوز عقبة حصار النّص أخيرا، ذلك أنّه «من البصر بالحجّة والمعرفة

[1] المرجع السّابق: ص79.

بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها»[1]، ويُورِد ما يزيل عتمة مدلول ملفوظ (المتآمرين) لتنكَشِفَ بعضُ حقائقه أمام المتلقي من خلال ملفوظ (الصّلح)، إذْ هو يُكنّي عن موصوف يدفع بالأنا إلى الجلوس على طاولة المفاوضات مع الآخر اليهودي، إنّها رسالة إلى الأنظمة العربية التي عجزت عن مساعدة أناها القومي فرضخت لليهود، لكنَّ الشّاعر وهو يمثّل لسان حال الأنا الجمعي يَرُدّ على الآخر على اختلاف طبيعته وأيديولوجيته بالتّعبير الكنائي (نحفر لليهود قبرا) لإبراز عاقبة التّآمر والتّوعد بالعقاب، إذ إنَّ ملفوظات الكناية (نحفر، قبرا) تؤشّر على وجود الأنا وقدْرتها وفلسفتها في ردود الفعل؛ التي تتجلي أكثر في التّعبير الكنائي الموالي (نحمل ضدّهم حقدا دفينا) وهو إقرار يُحمَل على ظاهر اللّغة كما يؤوّل بدلالات أخرى قد تكون رسالةً للأنظمة التي اختارت التّطبيعَ حلا لصراع الأنا القومي مع الآخر اليهودي مُفادها استحالة تطويع الأنا لقبول مشروع المصالحة أو التّطبيع، إنّها تلميح للفشل الذي سيلحق بمحاولة التّأليف بين طرفيْ النّقيض، ويُكثّف من الوعيد في التّركيب الكنائي اللاحق (بلادي لليهود لظى جحيم) إنّه الحكم الثّابت على الآخر، والجزاء الأنسب له، فهو تحدٍ للمشروع الآخري الظالم ومن يتآمر على الأنا القومي.

إنَّ التّعبير الكنائي اللّاحق يؤكّد الطّموح الذي تجعله الأنا مشروعها المستقبلي (ونأْنَفُ مثلهم أنْ يخدمونا) وهو كناية عن تّحوّل موازين القوى مستقبلا، وتَوَعُّدٌ باسترداد الكرامة المسلوبة، فقد ربط الشّاعر بين ملفوظ (الأنفة) وملفوظ (الخدمة) لشحن الأخير بمدلول أيديولوجي قومي؛ يتحوّل فيه الاستعباد الماضي إلى عزّة ويستحيل الخادم مخدوما، ولولا هذه الملفوظات والسّياقات القبلية لاستحال التعبير الكنائي ذا مدلولات مختلفة، ذلك أنَّ السّياق هو العامل البارز في تحديد مدلول الأفعال الإنجازية.

[1] الجاحظ عمرو بن بحر: البيان والتّبيين، تح: عبد السلام هارون، ط7، القاهرة، مكتبة الخانجي، مج1، 1988، ص 88.



ملخص المبحث

يتميّز الأسلوب الكنائي عن غيره من الأساليب الانزياحية في تصوير الدّلالات بمزيةِ القدرةِ على إثبات الصّفة بإثبات دليلها وإيجابها؛ أيْ أنَّ الكنايةَ تتضمّن الدّليل على صحّة الصّفة التي يتضمّنها التّركيب الكنائي، إضافة إلى أنّها خطاب تداولي بامتياز؛ إذْ لا يمكن تجاوز البعد اللّغوي لملفوظات التّركيب إلا بإدراك سياق التّخاطب وطبيعة المرسِل والمرسَل إليه، ووعيا من الشّاعر بخصوصيات الخطاب الكنائي فقد برزَ هذا التّشكيل الأسلوبي بشكلٍ لافت كبِنية حجاجية في ديوان "نبوءات الجائعين".

يحمل الخطاب الكنائي كثيرا من الرّسائل المبطّنَة؛ فيميل إلى التّلميح دون التّصريح، وبالنّظر إلى سياق الخطاب الشّعري (السّجن) فإنَّ كثيرا من الأساليب الكنائية لا يمكن بلوغ مراميها المضمرة التي يفترضها الباثُّ مُسبقا إلا بمراعاة سياق المقام وسياق المقال.

امتاز خطاب الشّاعر للآخر المحلي بالاتّكاء على استراتيجية التّوجيه من خلال استخدام ضمير المفرد المخاطَب (أنت) ليدرك أيّ آخَر يحمل مواصفات هذا المخاطَب أنَّهُ المقصود برسالة الشّاعر (أيّها/ افعل...)

إذْ استخدَم الأسلوب الكنائي في بث رسائله التي تستهدف الإعلاء مِن شأْن الآخر ليسترجعَ الثّقةَ بنفسه؛ ويقهرَ الضّعف في نفسه أولا، ثم يستعيد مكانه في الزّمان والمكان.

أمّا استراتيجية الاستمالة فإنّها تؤدي دورَها على مستوى الخطاب الحجاجي لتحفيز المخاطَب على ردود الفعل المناسبة للمواقف (المولع، المهُووس بالعرب، أنت لن تشترى، أرضك لن تُباع)، إذْ ترفع هذه الكنايات من قيمة المخاطَب، وتستميل قلبَه ليقبل مشروع التّغيير الذي يقترحُه المخاطِب، ويُفصّلُ في استراتيجياته المُعِينة على بلوغ الغاية، وما ميّز الخطاب الكنائي ههنا لجوء الشّاعر إلى أفعال الحركة التي تخرج عن دلالتها اللّغوية إلى الكناية عن المشروع المستهدَف.

أمَّا في خطاب الشّاعر للآخر (الحاكم) فإنّه غيّرَ استراتيجياته الخطابية، فمال إلى استراتيجية الإفحام حين عبّرَ بضمير (نحن) في خطاب مواجهة الآخر، أيْ انّه قد تماهت كلّ أنا مع الأنا الذي تتموضَع معها على مساحة النّص والواقع؛ إيمانا بقوّة الأنا الجمعي في دفع الآخر إلى التّراجع عن سياسة الاستبداد، كما امتاز الخطاب الكنائي بفضح أساليب الآخر التي تستهدفُ ترهيب الأنا، وتقويض وحْدَتها والنَّيْل من عزيمتها، والمُتمعِّنُ في تركيبها اللّغوي يدرك بُعْدَها التّقريري الاستشرافي؛ فهي مستمدَةٌ مِن واقع الأنا والآخر، لكنَّها ذات حمولة دلالية حجاجية.

أمّا في خطاب الآخر الأجنبي فقد توجّه الشّاعر بالخطاب إلى أمريكا واليهود وتحديدا في قصيدة (دمانا عند رب العرش أغلى) إذْ يميل الخطاب الشّعري من خلال العنوان إلى علاقة الأنا العربي بالآخر، ويجسِّد مركزية الآخر وتسلُّطه، إذْ طغى الأسلوب الكنائي المُجسِّد لهذه المفارقة (نحن/أنتِ) (نحن/ هم) فيذكر الشّاعر ما يُحيل إلى فِعْلَ الأنا أو فعل الآخر، أو يذكر الفعل ورد الفعل، بما يتضمن الرّفض والسّخط الذي يدفع المتلقي إلى ضرورة التّموقع مع الأنا المُسْتضعَفة، والاقتناع بمشروع الأنا الشّاعرة.

إنَّ ملفوظات التّركيب الكنائي في هذا الخطاب ذات علاقة بيوميات الأنا وصراعها مع الآخر، لكنّها تضمر رسائلَ المخاطِب التي يُدركُها المرسَل إليه انطلاقا من توفر مبادئ التّخاطب(التّعاون) والكفاءة التّداولية في إطار سياق المقام.

المبحث الثالث: حجاجية التّشبيه في خطاب الآخر في ديوان "تبوءات الجائعين"

يُعدُّ التّشبيه أبرزَ الصّور البلاغية في كلام العرب منذ العصور القديمة، لذلك احتفى به البلاغيون والشّعراء، فكان له الحضور البارز في الخطاب الأدبي، وفي ذلك يقول الجرجاني: «اعْلَمْ أنَّ التّشبيهَ هو بحر البلاغةِ وأبو عُذْرتها وسِرُّها ولُبابُها وإنسانُ مُقلتها»[1]، وهو صورة تقوم على «عقد مماثلة بين شيئين أو أشياء لاشتراكهما في معنى ما بأداة ملفوظة أو ملحوظة، وذلك لغرض مقصود كالمدح أو الهجاء أو الرثاء»[2]، فعماد الصورة التشبيهية إلحاق شيء بشيء آخر لوجود ما يجمع بينهما، وهذا «الإلحاق مرهون بغايات بلاغية وحجاجية يُحدّدها المقام كالتّوضيح، أو بيان إمكان المشبه، وهي كلّها ترتبط بمقصدية المتكلّم وما يريد إبلاغه أو توصيله»[3]، ويختلف تصنيف البلاغيين للتشبيه باعتبار الرّابط بين طرفيه والصّفة أو الصّفات المشتركة ذِكرا أو حذفا.

ويختلف التّصنيف من حيث طبيعة طرفي التّشبيه (حسيةً وتجريدا)، وتتجلّى أهمية علاقة المشابهة في وجه الشّبه بين الطرفين من حيثُ التّطابق أو الاتّصاف الجزئي أو في طريقة التّخييل والمبالغة في نسبة الصّفة للمشبّه، وقد فرّق "عبد القاهر الجرجاني" بين التّشبيه والتّمثيل انطلاقا من مراعاة وضوح وجه الشّبه أو خفائه أو مدى تحقّقه في كلا الطرفين من جهة أو من جهة انتزاعه عن طريق التّأول أو عدم التّأول، إذْ يقول: «اعلم أنَّ الشيئين إذا شُبِّه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أحدهما أنْ يكون من جهة أمرٍ بيِّنٍ

[1] المؤيد العلوي يحي بن حمزة بن علي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، القاهرة، دار الكتب الخديوية، مطبعة المقتطف ج1، 1333هـ، ص 326.

[2] لاشين عبد الفتاح: البيان في ضوء أساليب القرآن، ط2، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998، ص 35.

[3] نور الدين بوزناشة، الزّايدي بودرامة: حجاجية التّشبيه عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه أسرار البلاغة، جامعة الوادي، مجلة المنهل، م08، ع01، 2022، ص 836.

لا يحتاج فيه إلى تأوّلٍ، والآخر أنْ يكون الشّبه محصّلا بضربٍ منَ التّأوّلِ»[1]، أيْ أنَّ النّوع الأول (التّشبيه) يكون فيه وجه الشّبه واضحا لا يحتاجُ إلى تدقيق أو إعمال عقلٍ، بينما النّوع الثاني (التّمثيل) يحتاج إلى بحثٍ وتدقيق وتأوّلٍ، وفي ذلك يقول: «وإذْ قد عرفت الفرق بين الضّربين فاعلمْ أنَّ التّشبيه عامٌ، والتّمثيل أخصُّ منه، فكلُّ تمثيل تشبيهٌ وليس كلُّ تشبيهٍ تمثيلا»[2]، وعليه فإنَّ النّوع الأخصّ الذي يفترض عملية التّأوّل «يمكنُ أنْ ندرجه ضمنَ الاستراتيجيات التّداولية، لأنَّ الوصول إلى معناه يستدعي عمليات ذهنية استدلالية من طرف المتلقي لبلوغ القصدية **l'intentionnalité** التي حظيت بدراسة مستفيضة من الباحثين "سيرل" وَ "غرايس"»[3].

1ـ حجاجية التّشبيه

يهدفُ الاتّكاء على التّشبيه في تصوير المعاني في الأصل إمّا إلى إبراز قوّة المشبّه أو مكانته أو تقريب حقيقته عن طريق مماثلته بالتّجسيد أو التّشخيص أو الارتقاء به من تجريدٍ إلى تجريدٍ أقوى وأدلَّ على حقيقته، ولا شك في أنَّ هذه الغايات وغيرها ذات بُعدٍ حجاجي تتسامى قوّته بتضافر البعد الفني والفكري مع الغاية الحجاجية، وإذا كان "**الجرجاني**" قد ركّز على حجاجية التّمثيل في قوله: «واعلم أنَّ ممّا اتفق عليه العقلاء أنَّ التّمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو أُبرِزت هي باختصار في معْرِضه، ونُقِلتْ عن صورِها الأصلية إلى صورته كساها أبَّهةً، وكَسَبها مَنْقبةً، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قُواها في

[1] الجرجاني عبد القاهر: أسرار البلاغة، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، د ط، القاهرة، مطبعة المدني، القاهرة، 1991، ص90.

[2] المصدر نفسه، ص 95.

[3] عيسى بربار: البعد التّداولي في العملية التّواصلية. شعر الأمير عبد القادر الجزائري أنموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة وهران1، 2015-2016، ص 221.

تحريك النّفوس لها... وإنْ كان حجاجا كانَ رِهانُه أنورَ، وسُلطانه أقْهرَ، وبيانُه أبْهرَ»[1]، فقد ذهب "**بيرلمان Perlman**" نفسَ المذهب واعتبر التّشبيه من الحجج شبه المنطقية، لكونه يقوم على عملية القياس والاستدلال، وخاصة التّمثيل الذي يُعدُّ «نمطا من أنماط التّدليل على قوّة الفكرة، يبدو من المحال الاستغناء عنه (يقصد التّمثيل) كلّما تطرّق العقل لميدان جديد أو مألوف قليلا، وهذا من منطلق عملية الابتكار في العلاقات بين الأشياء»[2].

1- 1 ـ حجاجية التّشبيه في خطاب الآخر بن الوطن

يغلبُ على قصيدة "نبوءات الجائعين" ـ وهي من القصائد الطوال في الديوان ـ خطاب الآخر القريب من الأنا الشّاعرة المُتَّحَد معها في المصير والمآل، وقد اتّكأ الشّاعر في خطابه على ألوان البيان المختلفة، فقد برز التّركيب الكنائي والاستعاري بشكل لافت للقارئ، وقد تمّت الإشارة إلى ذلك سابقا، دون أنْ يغيب الخطاب الذي يستند على التّصوير بالتّشبيه، وممّا ورد في خطاب الآخر في المقطع الأول قولُ الشّاعر أيمن العتّوم:

ستمرُّ أعوامٌ كأعْــوام الرّمادة في بلادي

لا شيءَ غيرَ الجوعِ .... والفَحْشـــاء....

والأحـــــزابِ ... والفِـــرَقِ العديدةْ[3]

يفتتح الشّاهد الشعري باستشراف واقع الأنا انطلاقا من تصوُّرٍ ذاتي، لعلَ مؤشراته قد انطبعت في ذهن الأنا المخاطِبة، لذلك ورد تشبيه الأعوام القادمة بما يماثلها مِنْ أعوام، لا مِن منطلق التّشابه الزّمني لكن من

[1] الجرجاني: أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص 115.

[2] ينظر: خديجة بوخشة: حجاجية التّمثيل في الشّعر الجزائري الحديث، جامعة بسكرة، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، م13، ع1، 2017/06/27، ص 376.

[3] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 19.

باب الوصف الذي عُرفت به أعوام (الرّماد)، فقد استعار الشّاعر لزمانه ما هو حاصل من عملية احتراق الخشب ونحوه (الرماد) لِيُحيل إلى أحوال النّاس، وهذا التّركيب يعود بالمتلقي إلى عام الشّدة والقحط الذي عرفته الأمّة الإسلامية زمن عمر بن الخطاب (18هـ) حيث صارت الأرض سوداء من القحط فشُبّهت بالرّماد.

إنَّ هذا التّشبيه الذي يلتقي فيه طرفا المشابهة في النّوع (الزمن) يدفع الآخر المخاطَب إلى عقد مقارنة بين الزّمن الذي يعيش فيه وما يُحيل إليه المشبّه به (أعوام الرّمادة)، وما يشدُّ الانتباه هو البحث في حقيقة الرّماد؛ إذْ ينطبع في المخيال الجمعي الإيحاءُ السّلبي المرتبط بقيمة الرّماد، وأثناء عملية التّأويل يتمُّ استحضار عام الرّمادة بما تضمّنه الحدث والزّمان والمكان، في عملية قياس مركّبة بين واقعيْن مختلفين، ترحل بالذّهن من الحاضر إلى الماضي البعيد، ثم يعود محملا بدلالاتٍ كثيرة، إذْ لا يخلو هذا التّمثيل من سمة المحاجّة فهو «وسيلة حجاجية ذات تأثير في المتلقي من جهات عدّةٍ، فهو خطاب للعقل؛ بوصفه ينقل العقلَ من المعنى في الحالة التّصويرية العادية إلى الحالة التّصديقية؛ لأنّه بمثابة إحضار المعنى المُدَّعى لِيُشاهدَ كما هو في الواقع»[1]، فالآخر المخاطَب في هذا التّصوير ينطلق في عملية التّأويل من تفاصيل واقعه، ويسافر بحمولته في رحلة عقلية إلى تلك الحقبة المشابهة، وعليه تتمُّ عملية التّصديق على التّصوُّرِ الذي تطرحه الأنا الشّاعرة، إذْ يبلغ كلٌ من الآخر والمخاطَب هذه الغاية، لأنَّ مبدأ التّعاون متوفرٌ في الخطاب في سياق الواقع، وتثبته السياقات النّصية اللاحقة (لا شيءَ غير الجوع...والفحشاء، الأحزاب... الفرق العديدة)، ويتضافر السّياقان معا في بناء عملية التّأويل التي ميَّزَ بها "**الجرجاني**" عملية تأويل التّمثيل.

[1] حافظ إسماعيل علوي: الحجاج والاستدلال الحجاجي. دراسات في البلاغة الجديدة، ط1، الأردن، دار ورد للنشر والتوزيع، 2011، ص 25-26.

إنَّ افتتاح الخطاب الشعري بهذه الصّورة التّمثيلية يُعد سياقا يؤطِّر الخطاب ورسالة الشّاعر إلى الآخر في مختلف مقاطع القصيدة، وأهمُّ هذه الرّسائل إبرازُ موقف المخاطَب أولا أمام هذا الوضع ثم موقف الأنا الشّاعرة إذْ يقول:

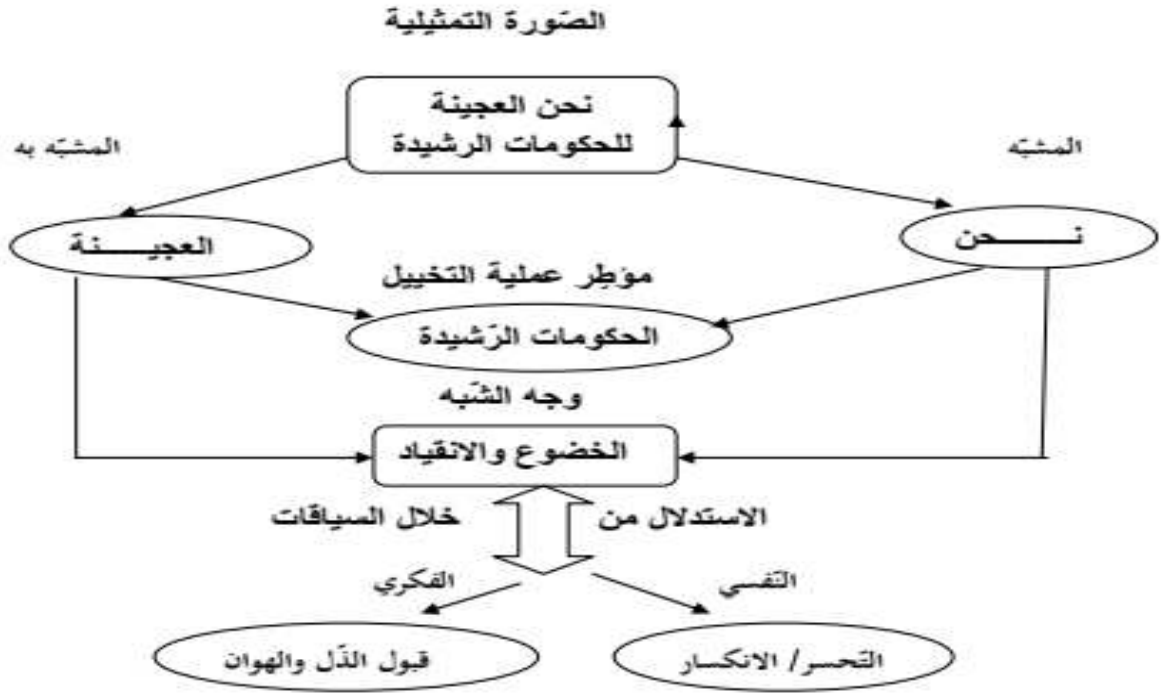
سيمُـــرُّ مَنْ أكلوا التّراب على البيادر

ثم يبتـــــدِئون أُغْنيَةَ الحصيـــدةْ:

نحن العَجينَةُ للحكـــــومات الرّشيدةْ[1]

يلجأ الشّاعر إلى التّصوير عن طريق التّشبيه في مقول القول الذي يُورِدُه على لسان الآخر (نحن العجينة) إذْ يُمثّل هذه الأنا بالعجينة في يد الآخر ولِيِّ الأمر، إذْ يَسْخرُ من طرفي العلاقة (حاكما ومحكوما) من خلال الملفوظ الواصف للحكومات، وهو ما يُبينُ عن نفسية الأنا الشّاعرة، ويمكن تأطير المدلول أثناء عملية القياس من خلال السّياقات القبلية لعملية المماثلة؛ حتى يتحدّد وجه المشابهة، فالمخاطَب يستحضر في ذهنه كُلَّ ما يرتبطُ بالعجينة من ضعف واستسلام يُفضي إلى سهولة التّشكيل والانقياد المُطلق، ثم إلى المآل الأخير الذي يُعدُّ أسوأَ ما في التّشكيل التّصويري، ويمكن تمثيل عملية الاستدلال من الصّورة التمثيلية في هذا المخطط.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 19.



الشّكل (20) الأبعاد الحجاجية للتّشبيه في خطاب الآخر (ابن الوطن)

وبعد أنْ صوَّر ردود فعل الآخر المرفوضة مع الذّات الحاكمة المتسلّطة سعى الشاعر إلى تغيير هذا الموقف منتهجا استراتيجية إقناعية تقوم على فضح أساليب هذه السّلطة لدفع المخاطَب إلى العدول عن مواقفه وفلسفته في التّعامل معها، فيقول:

مِنْ أين صارت كلمةُ الأحرار خائـــنةً ...

وصـــار الشّعر جُرْمـــًا...

والقصيدةُ قُتبلةْ؟!

مِن أين صار الحرف سَفّـــاحا...

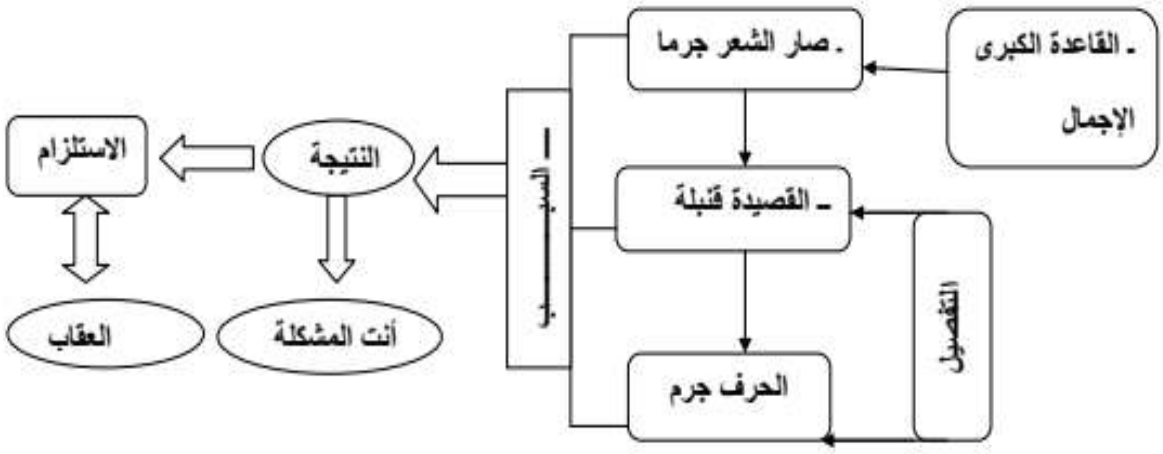
وصِرْتَ المشْكلةْ؟[1]!

فخضوع الآخر لهذه السّلطة خضوع العجينة في يد صانعها جعل أساليب الآخر تزدادُ حِدّةً وقسوة، وقد منع حرية الكلمة، فغدا الشّعر جرما يستوجب الملاحقةَ والعقابَ، هذا التّشبيه البليغ يتطابق فيه الطرفان على

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 23.

اختلافهما فتبلُغ علاقة المشابهة حدا يُثير الرّهبة ويُحرّك لواعجَ النّفس، فتستحضرُ ما انطبع في مخيالها من أنواع الجرائم وأشكال العقاب، هي مبالغة تعتبر صدمةً للمخاطَب قد تدفعُه إلى العدول عن فلسفته، ويكثف الشّاعر من هذا الطّرح بالصّورة التّشبيهية الموالية (القصيدة قنبلة)، وهو تشبيه بليغٌ يُفصّل الصّورة الأولى التي تتضمّنُ إجمالا في علاقة المشابهة، إذْ تتحدّدُ طبيعة الجُرم، فيغدو قنبلة، وإذا كان وجه الشّبه محذوفا لفظا فإنَّ مسافة التّأويل بين طرفي المشابهة تزداد اتّساعا أثناء عملية التّأويل، لأنَّ المشبّه به هنا يُحيل إلى دلالات متعدّدةٍ تتحدّد بالقيمة والكفاءة ومعيار الزّمن والفضاء، هذه الصّورة التمثيلية تفضحُ فلسفة الآخر، وتُحدّد معالمَ سياسته، ويتدرّج الشّاعر في تفصيل طبيعة الجُرم مرة أخرى من خلال الانتقال من القصيدة إلى الحرف الذي يعدُ في نظر الآخر سفّاحا، ولا شكَّ في أنَّ العُرف الإنساني يُجمع على فساد السّفاح الذي ينتهك حُرمة الدم الإنساني، إنّه التّصوير الذي يبالغُ في تعظيم جريمة الحرف في منظومة الذّات الحاكمة، غيرَ أنَّه يُنبّه المخاطَبَ إلى قوّة سلاحه التي يجهلها.

فمتلقي الخطاب يستفزّه هذا التّصوير لانحراف أفق توقّعه عمّا عَهِدَه من وجهات النّظر إلى الشعر، وما يُدْركه من عدم التّوازن بين سلطة الذّات الحاكمة وآلة المقاومة التي تمتلكها الأنا المحكومة، حين ذاك يتحفّز إلى إعادة بناء الدّلالة، ليتحققَ الاستلزام الحواري المقصود من الصورة التمثيلية، فالشّاعر عمدَ إلى تقديم النّتيجة (صرتَ المشكلة) من منطلق الاستراتيجية السّببية ذات البعد الحجاجي، ويمكن تلخيصها في هذا المخطط التّوضيحي الآتي.



الشّكل (21) الاستراتيجية الحجاجية للتّشبيه في خطاب الآخر (ابن الوطن)

إنَّ فلسفة الذّات الحاكمة تميل إلى التّعسف في إدارة شؤون الآخر المحكوم تقويضا لفكرِهِ وطاقاته، ولمّا استحكمت عبثت بالمقوّمات، وجاوزت الحدَّ إلى التفريط في الوطن الجامع، يقول أيمن العتّوم:

هــو أنت يا وطني ...

وأَمْــرٌ كلّما حملوا عليك حلَفْتَ ألا تَحْملَهْ

هــمْ بيَّعوكَ بلا مُقابلٍ غيرَ ذُلِّ المسْألةْ

هــمْ يطْعنونكَ في الظّهــور

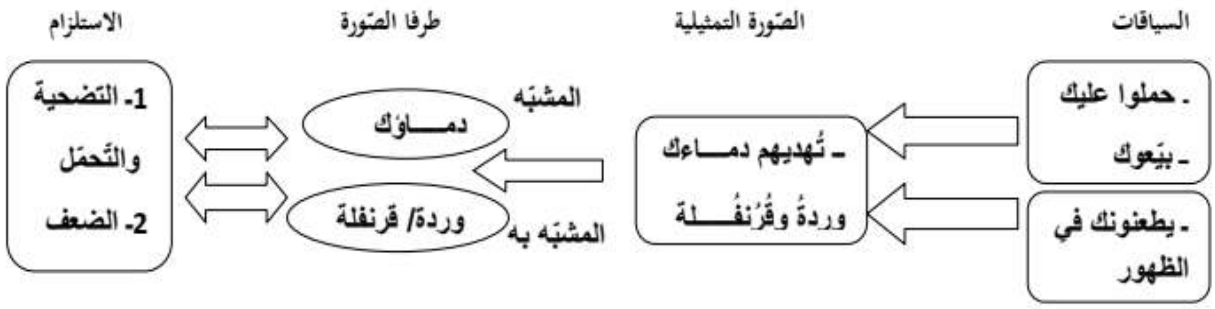
وأنتَ تُهديــــهم دماءَك وردةً وقُــــرُنفلَةْ[1]

يُصوّر المقطع تحوُّلَ العبث بالذّات إلى العبث بالوطن؛ الذي يعدُّ الحصن المكين الذي يحفظ للذّوات وجودها، فيجسّد في تراكيبَ انزياحيةٍ هذا العبثَ (حملوا عليك/ بيّعوك/ يطعنونك) ثم يبرز في تركيب تمثيلي ردود فعل الوطن، وقد يتوحّد الطرفان في الخطاب فيغدو الوطن هو الذات المحكومة، وقد تغدو الذوات أوطانا، وعليه لا يمكن فصل المدلول المستلزَم من هذه الخطابات، فالتّركيب التّمثيلي (تهديهم دماءك وردة وقرنفلة) يُجسّد ردَ فعل المخاطَب (الآخر أو الوطن) الذي يترجم الاستعداد إلى التّضحية لأجل غايات

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 23-24.

عظيمة يغدو فيها الواقع أكثر جمالا ونضارةً، فطرفا المشابهة انطلاقا من سياقات المقال (حملوا عليك/ بيّعوك) يُحيلان إلى التّناقض (الدّماء/ الورد والقرنفل) الأمر الذي يجعل مسافة التّوتر في التّأويل بارزة الملامح في ذهن المتلقي، الذي يحتاجُ إلى جهد عقلي لاستلزام المعنى بين المَقيس والمَقيس عليه، لأنَّ التّشبيه «من الاستعمالات المجازية التي تعتمد على القياس، فطرفا التّشبيه يؤديان دور المقيس والمقيس عليه، إذ ينزع صفة من هذا وينسبها إلى ذاك، وهذه الصّفة المنتزَعَة المشترَكةُ بينهما تعدُّ بمثابة الدّليل الذي يمنح هذا التّركيب المجازي قيمة حجاجيةً»[1]، انطلاقا من ذلك يستلزم المتلقي أنّه من واجب المخاطَب (الآخر/الوطن) تحمّل السياقات الفاسدة رغبةً في الحفاظ على الذّات، لأنَّ عاقبة التّضحية التي يعبّر عنها ملفوظ (الدّماء) عاقبة حسنةٌ، تجسّدُها مدلولات ملفوظ المشبّه به (الورود، القرنفل).

إنّه من زاوية المقاربة التّداولية التي تقتضي الالتفات إلى كلّ السّياقات (القولية/المقامية) ومراعاة حال المخاطَب وجبَ الالتفات إلى الصّورة الكنائية (يطعنونك في الظهور) لتأويل الخطاب في التّعبير التّمثيلي اللاحق (دماؤك وردة وقرنفل) إذْ يتضمّن القول مدلولات أخرى إذا لم يُحْمَل التّصوير على محمل التّقرير فقط، أيْ أنَّ القول يتضمّن استفهاما مستترا والتّقدير (أَتُهديهم دماءك وردةً وقرنفلة؟!) فتبرز مشاعر التّحسّر والانكسار كون الموقف لا يتطلّب هذه المقاربة، ممّا يحيل إلى استنكار ردّ الفعل بما يدفع إلى تغيير الموقف



الشّكل (22) تداولية التّشبيه في خطاب الآخر (ابن الوطن)

[1] ينظر: محمدي يسية: الآليات البلاغية ودورها الحجاجي، جامعة زيان عاشور الجلفة، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية الإنسانية المعمّقة، ع 10، أكتوبر 2021. ص 113.

إنَّ الخطاب اللاحقَ في ختام هذا المقطع يؤشر للنّقد الموجّه إلى الآخر الذي اتّبع نهجا سلبيا في تعامله مع الذّات الحاكمة، وفي ذلك يقول أيمن العتّوم:

أنتَ يا وطني: شعوبٌ غِرّةٌ وَالَتْهُم سبعين عاما

ثم سِيقتْ كالخراف ذليلةً للمقصلة[1]

إنَّ إستراتيجية الشّاعر في هذا الشّاهد تُحوّل الخطاب من الذات المحكومة إلى الوطن في مماثلةٍ مُخاتلة للمعنى، فقد استحال الوطن شعوبا لا تجربة لها في الحياة، الأمر الذي يجعلها سهلة الانخداع، إنّه التّشبيه الذي يعدُّ فيه المشبه به تعريفا للمشبّه ويقدّم في الوقت ذاته شهادة البراءة للمشبه (الوطن) فالشّاعر يُحمّل المسؤولية للشّعوب التي لم تكن طليعةً في التّاريخ، وبعد تقديم السّبب (الوطن شعوبٌ غِرة) تأتي النّتيجة في تشبيه تمثيلي (ثم سِيقت كالخراف ذليلة إلى المقصلة) فهو يجسّد درجة هوان المخاطَب (الشّعوب) فالشّاعر يضع المشرط على الجراح في خطاب تصويري إقناعي، لأنّه يُعلل الأحكام ويؤدي وظيفة التّأثير، وبتضافر العقل والعاطفة في التّأويل يحدث فعل التّطهير، ومتى حقق الخطاب الأدبي غايات الإذعان أو تعديل المواقف أو التّأثير في الذّهن كان خطابا حجاجيا يُراعي التّكامل بين وظيفتيْ الإقناع والتّأثير، إذْ إنَّ كلا من الحجّة والنتيجة ظاهران، ويبقى الرّابط الحجاجي مضمرا، يمكن اعتباره الحرف (إذن) وعليه يكون الاستلزام الحواري من هذه العلاقة أفعالا كلامية مضمرة، يمكن تصنيفها في مجال الإيعاز (أرفضْ، غيِّرْ، تغيَّرْ...).

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 24.

3ـ 2 ـ حجاجية التّشبيه في خطاب الآخر المختلف (الحاكم العربي)

يتضمّن ديوان "**نبوءات الجائعين**" سياقات مقامية تُميط اللّثام عن كثير من الخطابات وتؤدي بذلك وظيفتها التّداولية، إذْ يشكّل بعضها نصوصا موازية أو خطابات بداية أو نهاية، وأهمّها ما يسجّل زمان النّص ومكان نظمه، وإذْ تبحث الدّراسة في هذا الباب في حجاجية الصّورة التّشبيهية في خطاب الآخر (الحاكم العربي) فإنّها تتّكئ على تلك المؤشرات المقامية لتكون سندا إلى السّياقات النّصية بغية الوصول إلى معنى المعنى ومقصدية الخطاب، وقصيدة (مشاعر في هوى الأردن) تجسّد علاقة الأنا الشّاعرة المسجونة بالآخر السّجان؛ الذي ينشطر إلى ذوات أخرى تدفع الأنا إلى الفعل حينا أو ردّ الفعل أحايين أخرى، يقول الشّاعر أيمن العتّوم:

من عتَمةِ السّجن بل مِنْ نُـــور إيمـــاني

ومنْ دمـــائي بل، منْ نزْفِ أوْطـــاني

كتبْتُ شـــعْري يا أُمـــــي علـــى ورقٍ

أعْددتهُ فِـي غـــدِ الأيّـــام أكـــفاني[1]

يؤشّر مطلع الشّاهد الشّعري على عناصر السّياق، فإذا كان المخاطَب الظاهر في ملفوظ القول (أمي) صريحا فإنَّ الرّسالة الأساس موجّهة إلى مخاطَبٍ آخرَ تتجلي طبيعته وصفاته في السّياقات اللاحقة، أمّا المقام فتؤشّر له ملفوظات (عتمة السّجن/ دمائي/ نزف أوطاني) وإذا كانت الأنا تتعرّضُ للسّجن فإنَّ مظاهرَ سلبِ الحرية تطفحُ إلى السّطح، ولا شكَّ في أنَّ هذه الأنا تتحدّى الزّمان والمكان، وتُدْرك خطورة الشّعر الذي تنْظُمُه، فقد شبّه الشّاعر شعْرَه على الورق وهو يخاله أكْفانَه التي ستواري سوأةَ هذا الآخر الذي يُعاقِب على الكلمة.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 45.

إنَّ التّركيب التّمثيلي (كتبت شعري على ورق/ أعددته في غد الأيام أكفاني) يحتاج إلى تأويل ذهني معقد ومركّب، كونه أولا يخرق أفق التّلقي بانزياحه التّركيبي (الشّعر /كفن) (الشّعر على الورق/كفن) ولكون التّركيب التّصويري متعدد الأطراف ثانيا يدعو الشّاعر إلى البحث في علاقة المشابهة المركّبة، انطلاقا من ربط الصّورة بسياق المقال (عتمة السّجن) ومراعاة الرّابط الحجاجي (بل) الذي يؤشر على موقف الأنا (من نور إيماني) لأن هذا الرّابط يسلب الحكم عمّا قبله ويثبته لما بعده، ويتكرّر نفس التّركيب (من دمائي بل من نزف أوطاني) وكلّها ملفوظات تسهم في بناء الدّلالة أثناء تأويل الصّورة التّشبيهية.

يعدُّ الشّاهد السّابق قاعدة الخطاب والأرضية الحجاجية لِما يتضمّنه النّص من خطاب موجّه إلى الآخر، يقول "أيمن العتّوم في قصيدة:

زنزانتي خيرُ مَنْ صاحَبْتُ في زمَـــني

الحاكِـــمون به أحـــفاد (هــامان)[1]

يجلي التّشبيه في الشّاهد طبيعة الآخر (الحاكم) وفلسفته في الحكم من خلال قياسه بشخص وزير فرعون (هامان) الذي كان فيلسوف (فرعون) وآلة بطشه، ممّا يجعل دائرة القياس تتعدّى الفاعلين إلى الزّمن وملابساته، ولا شكّ في أنَّ متلقي الخطاب الشّعري على عقد تفاهم (مبدأ التّعاون) مع الأنا الشّاعرة التي تعي حقيقة المشبّه به (هامان)، فإنَّ ارتباط الصّورة التّشبيهية بسياق قبلي يُعين على الحفر في مقصدية الخطاب وتأويل الصّورة، ويُعدُّ دِعامةً حجاجية على صدق القياس، وهو ما يحمل المتلقي على الاقتناع بحقيقة الآخر، وعلى ذلك يحدد موقفَه ويُصدر حكمه.

تعدُ هذه الصّورة التشبيهية الحجاجية القاعدةَ الأساسَ التي يُبنى عليها الخطاب الحجاجي التّصويري اللاحق، إذْ يستخدم الشّاعر إستراتيجية الإجمال ثم التّفصيل فيقول في مقطع آخر:

كَفرْتُ (بالبِـــسِّ) يزهو في شَـــوارِبِه

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 46.

يقـودُ مِنْ خلفه قُطْـعان فِئـــران

وبالشّعوب التي تغفـــو على خُطبٍ

مثل المُخدِّر مــا قِيلت (لِسحْـبان)

يا ســارِحًا بجيوش النّمل في وطني

قدْ كُنتَ أرْأَفَ فينــا مِنْ (سُليمـان)[1]

يُشبّه الشّاعر الشّعوب التي تُحرِّكُها الخُطب البليغة وتهُزُها فصاحة الأخر الحاكم الذي يعتني بفنون القول في مخاتلة الرّعيةِ، فيرتدي عباءة الخطيب المعروف (سحبان وائل) بحال من يتعاطى المُخدَّر الذي يذهب عقْلَه ويُفقِدُه صوابه، ولعلَ ظاهر التّشبيه بارزٌ في تشبيه الخطب بالمخدّر، غير أنَ المعنى المتضمَّن في القول هو تشبيه غفلة الشّعوب وانسياقها وراء خُطب الحكّام بحال مَنْ تعاطى المُخدِّرَ، لذلك هي تعيشُ مُنوَّمةَ الفكر فاقدة البصيرة، ثم يوجّه خِطابَه إلى هذا الحاكم الذي عمل على تنويم رعيته، فيصفُهُ بالرّاعي الذي يرعى جيوش نّمل في استعارة تصريحية مزدوجة، يُركّز على الطّرف الفاعل فيعْمدُ في تركيب تشبيهي ساخرٍ إلى قياسه بالنّبي سليمان في حرصه على رعيّتِه، ممّا يفرض على المتلقي تسخير قدراته الذّهنية والعقلية واستحضار خلفياته المعرفية عن النبي سليمان في رحلة البحث عن العلاقة بين طرفيْ نقيض؛ أحْدَث الشّاعر بينهما علاقة مماثلة، هذا التّناقض يُشكّلُ صدمةً تستفزّ المتلقي فتدفعه إلى المغامرة في التّأويل، أملا في فكّ طلاسم هذا القياس، وبمقاربة ملفوظات الخطاب التّصويري بالسّياقات المقامية السّابقة تنجلي حُجُب المعنى المستتر، وينكشف ضباب العلاقة ، فَحِرْص الآخر الحاكم على رعيته ليس إدراكا لحجم المسؤولية إنّما في الرّغبة في الاستحكام وبسط النّفوذ تفاديا لأيِّ حركة مُناوئة على خلاف ما ترويه الثقافة التُّراثية الدّينية عن سياسة النبي سليمان؛ التي يُشير إليها ملفوظ (الرأفة) فوجه الشّبه قائم على الحرص والمتابعة لكن ببعدٍ قيْمي مُتناقض، حينئذ يشعر المتلقي بالرّضا، ويطمئن إلى الخطاب، لأنَّ الخطاب بهذا التّمثيل البديع

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 47.

يُحققّ التّناسبَ العقلي والمنطقي بين المتشابهات والمتنافرات، وبه يبني الشّاعر «رؤيتَه الخاصة للعالم ونموذجه الجمالي المتميز، لذا فما هو مستحيل عند الشّاعر ليس الأشياء فيما بينها، وإنّما الموقع نفسه الذي يمكن لها أنْ تتشابه فيه وتتماثل»[1]، فالشّاعر من خلال التّصوير المفارق بين طرفيْ المشابهة قدّم رؤيته الفكرية في قالب جمالي مُؤَطَّرٍ بعناصر الخطاب التّداولي.

وإذْ يُكثّف في خطاب الآخر مِن تعداد أوصاف هذا الآخر فإنّه يميل إلى الخطاب الاستعاري باعتباره الأبلغ في التّلميح والتّعريض والأكثر حجاجية، لأنّ تركيزه منْصبٌّ على طرف واحد من المشابهة، ومن ذلك قوله:

شعبٌ ترأَّسهُ في شـــرِّ مِحْنـــتِه

عصابـــةٌ مِن مجانين وَزُعـــرانِ

مبادئٌ في هَــوى الدّنـــيا مُضَيَّعة

وأنْفسٌ لـــم تُصْــخِ إلا لِشيْطــان[2]

تولي المقاربة التّداولية العناية بكل عناصر العملية التّواصلية لذلك فإنّ إيرادَ هذه الاستعارات التّصريحية (عصابة مجانين، زعران، شيطان) ليس من باب التّركيب الاستعاري، وإنّما لتقديم صورة الآخر التي يعتمد فيها الشّاعر على علاقة المماثلة، قصد تحقيق التّرابط النّصي بين الدّلالات (أي الانسجام الدّلالي) لفهم وتأويل الصّور التّشبيهية اللاحقة كونها محور الدّراسة في هذا الباب، وفي ذلك يقول:

لِمنْ إذًا سأقــولُ الشّعر يا بلـــدي

ومَنْ سيدركُ أنّ الجرحَ أعيانـــــي

قد كنتُ آســى على جرحٍ لا أجرِّبُه

وفي فــؤادي بعدَ اليومِ جُرحـــــانِ

[1] أحمد طايعي: القراءة بالمماثلة في الشّعرية العربية القديمة، ط7، الرباط، منشورات زاوية، 2007، ص 85.

[2] أيمن العتوم: نبوءات الجائعين، ص 47.

جرحٌ لأنَّ بِــحار الشّك تبلعنـــي

وغُرْبتي في بلدي جُــرْحيَ الثّانــي

دليلُنـا في صحـارَى الـوهمِ قَاتِلُـنا

والخـائن البَـرُّ والحـانِي هو الجـانـي[1]

يتضمّن المقطع الشّعري كثيرا من التّراكيب الانزياحية ومنها التّراكيب التي تعتمد على المشابهة وفق نمط التّشبيه البليغ، فالشّاعر يعبر عن وضعه، ويذكرُ الأسباب في خطابٍ مُضمَر للآخر؛ الذي كان سببا في الاغتراب، فقد استحالت الغربة جُرْحا في التّركيب (غربتي في بلادي جرحي الثّاني)، وهو تشبيه بليغٌ يرتقي بالمعنوي إلى التّجسيد المادي، فيكون دافعُ التّأويل الغرابة في القياس، إذْ إنّ «الشيء من غير معدنه أغربُ، وكلّما كان أغربَ كانَ أبعدَ في الوهم، وكلّما كان أبعدَ في الوهم كان أطرفَ، وكلّما كان أطرفَ كان أعْجبَ، وكلما كان أعجبَ كان أبْدعَ»[2]، هذه الغرابة بين طرفي التشبيه تحتاج إلى تأويل وخلفية فكرية أو تجربة ذاتية عن حقيقة الغربة في الوطن (الاغتراب)، حتى يتمّكنَ وجهُ الشّبه في الذّهن.

لقد غيّرَ الشّاعر الاستراتيجية الخطابية في هذا المقطع كونه عرضَ النّتيجة قبل عرض الأسباب المفضية إليها، وهي طريقة تقُرُّ بها البلاغة منذ القديم في قضية تقديم ما حقّه التّأخير لغايات بلاغية يقتضيها المقام، ثم يأتي الشّاعر على ذِكر هذه العلل اعتمادا على التّمثيل (دليلنا في صحارَى الوهْم قاتلنا) فهو تشبيه مركّب يبلغ درجة عالية من الفنّية والحجاج، لأنَّ التّشبيه الأول (دليلنا قاتلنا) مؤطَّر فكريا بتشبيه بليغ يعترض طرفيْ المشابهة، ويؤدي دورا وظيفيا في عملية التّأويل ، فالمخاطَب (الآخر) يرتدي عباءة الدّليل والمرشد إلى السّبيل، غيرَ أنَّه استحال قاتلا حينَ استحكم الوهم وسيطرَ الشّك على النّفوس، وفي هذا

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 47-48.

[2] الجاحظ أبوعثمان عمرو بن بحر: البيان والتّبيين، تح: عبد السلام هارون، ط7، القاهرة، مكتبة الخانجي، مج1، 1998، ص 89.90.

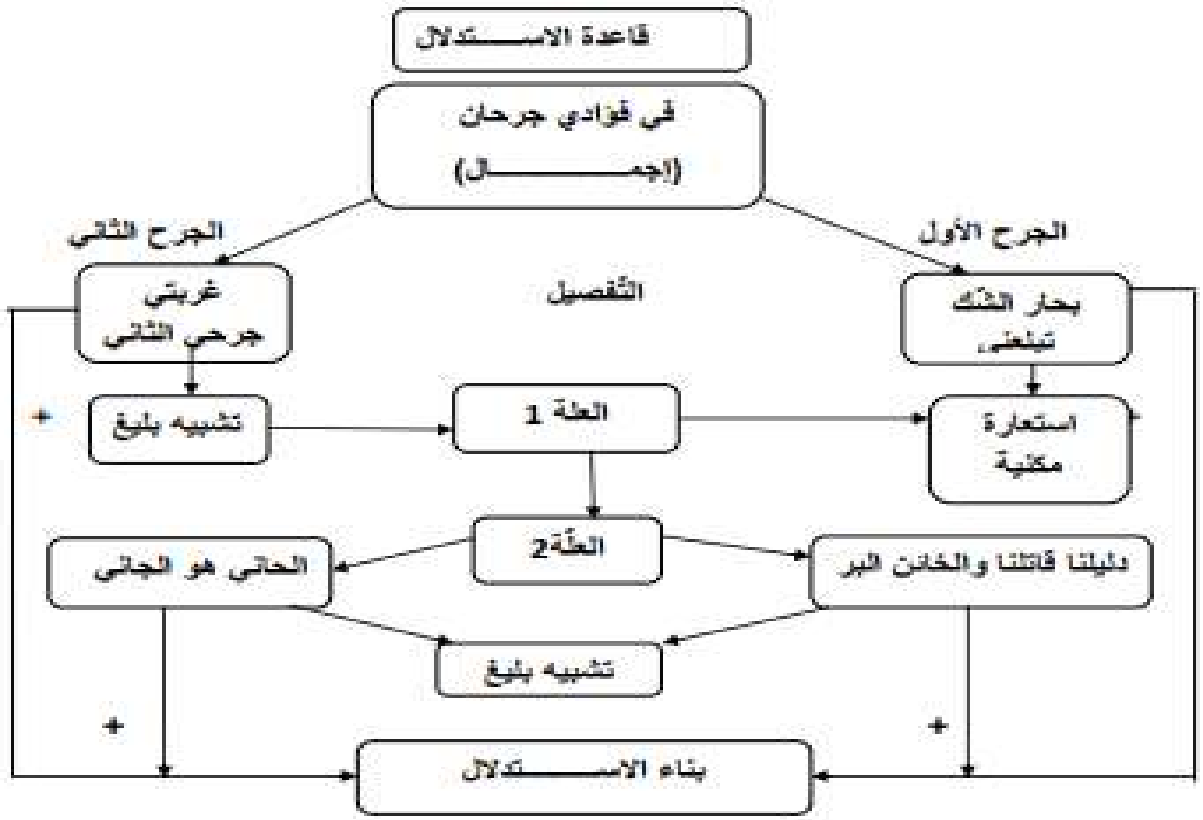
النّمط التّصويري حسرةٌ مُبطّنة، لأنّه يتضمّن تكنيةً عن خيانة الأمانة إذا عزّتِ الظروف، أمّا الصّورة التشبيهية العرضية التي تُقيِّد عملية المشابهة، فهي تشبيه من باب إضافة المشبه به إلى المشبّه، حيث شبّه الوهمَ بالصّحراء تعظيما للخطر الذي يمثّله الوهم في النّفوس، فيؤدي بها إلى الهلاك تمثيلا له بالصّحراء وما تُحيل إليه من رهبة وخوف ومشقّةٍ تُفضي مسغبتُها وعطشُها إلى الهلاك المحتوم، إنَّ هذا التّمثيل «يجري مجرى الحجّة والشّاهد والدّليل والمثال، لأنّه يقوم على الاستدلال لتّقرير المعنى في الذّهن، وبه نستدلّ على المعاني الضمنيّة أو المسكوت عنها»[1].

ويُورِد الشّاعر وصفا آخر للحاكم (المخاطَب) إذْ ينزاح عن وظيفته الحقيقية (الدّليل الأمين) فيغدو الخائن البَرَّ، في تركيب مفارقي، ألحقَ فيه الصّفة غير اللازمة بالموصوف، ليبعثَ على الدّهشة والاستغراب، ويثير الرّغبة في فك شفرات هذا الإسناد، وقد يكون التّركيب التّشبيهي السّابق المُعين على الاستدلال، لأنَّ دليل الرّحلة قد يدّعي الأمانة والحرْصَ، فيظهرُ الخير ويضمر الشّرَ، وذاك أخطر الأعداء نظرا لصعوبة اتّقاء شرّه، فالمتلقي أمام رسالةٍ مُضمرة تحتاج عقلا ثاقبا وذهنا باحثا، لأنَّ الخطاب الشّعري في معظمه خطابٌ يتضمّنُ رسائلَ مُبطّنة في ثنايا اللّغة.

ويؤكّد الشّاعر على التّشبيه الفاضح للآخر فيغدو (الحاني هو الجاني) مستخدما صيغة اسم الفاعل لطرفي المشابهة للتّأكيد على الحدثية والفعل الذي يتّصف به كلُّ طرف، فهذا الحاكم هو دليل الشّعوب في رحلة حياتها خاصّة في أوْج المحن حين تقتضي مهمته ومسؤوليته الاتّصاف بالرّحمة والحُنُوِ على رعيَّته، غير أنّ الحُكْمَ الذي أوْردهُ الشّاعر مخالفٌ لذلك، فهو تشبيه حجاجي يتضمّن حكما على الآخر بلغة فنّية اعتمدَ فيها على الإيجاز وجناس التّصحيف وعيا منه بحجاجية الجناس من خلال تأثيره الموسيقي، هذا

[1] خديجة بوخشّة: حجاجية التمثيل في الشّعر الجزائري الحديث، جامعة بسكرة، مجلة المخبر، ع13، 2017/6/27، ص 375.

التّكثيف في المعنى عن طريق الصّورة التّمثيلية يدفع المتلقي إلى بناء استلزاماته اعتمادا على المنطق انطلاقا من قاعدة الاستدلال التي عرضها الشّاعر.



الشّكل (23) حجاجية التّشبيه واستراتيجياته في خطاب الآخر (الحاكم)

بني الشاعر خطابه بناء منسجما، إذ يورد في المقاطع اللاحقة ما يعين على بناء الاستدلال بناء سليما يُسلِم إلى اليقين والتصديق فيقول:

لِمَنْ أقُــولُ عُيونِــي غيْرُ مُبْـصـرَةٍ

وأنَّ مَشْــيَ كُماتِي مَشْــيُ عُمْـيانِ؟!

مِمَّـنْ أخَــافُ؟! بِــلادُ العُربِ آمِـنَةٌ

أنَا القَطِــيعُ نُيُوبُ الذِّئبِ رُعْيَــانِي[1]

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 48.

إنّه يعبر بالمجاز (عيوني) عن هذا الحاكم الذي قدم أوصافه مسبقا، مشبها حكمَه من خلال ملفوظ (المشي) بالحُكم الذي يفتقد إلى البصر والبصيرة.

فالخطاب يتضمن سخرية عبر عنها بتركيب تشبيهي (مشي الكماة مشيُ عميان) فإذا كان القائد فاقد البصر لم تنفعه شجاعته، مما يجعل التركيب تكنية عن صفات هذا الحاكم، ويكثف من عرضها في الصور التمثيلية المركبة في التعبير (أنا القطيع نيوب الذئب رعياني) إذ يتطلب التأويل الاتكاء على السّياق القبلي (بلاد العرب آمنة) وهو سياق ساخرٌ يبرز تحكُّم الآخر في الوضع عن طريق التسلط، فقد غدت الأنا الشاعرة التي تعبِّر عن المحكومين (قطيعا) يسوسه هذا الحاكم الذي جسَّده في صورة أنياب الذئب، إذ يستدعي تأويل التشبيه الأول مراعاة المقام المرتبط بالتشبيه الثاني (أنياب الذئب رعياني) فيكون وجه الشبه مشتركا جامعا يبرز حالة الأنا المحكومة، ويعرِّي الآخر كاشفا حقيقته، إذ يُعدُّ التشبيه الثاني سببا للتشبيه الأول، فهذه الاستراتيجية القائمة على علاقة السببية ترفع من القيمة الحجاجية للخطاب التصويري.

تنحو قصيدة (مشاعر في هوى الأردن) منحى تصويريا حجاجيا في خطابها للأنا المحكومة والآخر الحاكم بدافع الوطنية وتغيير الواقع انطلاقا من رسالة الفن الخالدة، وفي المقطع الآتي يكثف الشاعر من الصور التي رسمها للأنا الجمعي في صراعها مع الآخر المستبد فيقول:

أبكي على أُمَّــة باعتْ كرامتَـــــها

وساوَمُـــوها على أشْــباه أثْـــمَانِ

هِيَ البغـيُ إذا ما تشتــهي أكَـلَتْ

مِنْ ثديِها، ولأَرْضِي السِّعرُ مجّــانِـي

هي البَغيُ إذا عَـــادتْ لِصَحْوَتِها

تَصيحُ مِنْ عِفَّةٍ يا طُــهْرَ أرْدانِـــي

أمَّـا حُماتِي فَسَكْرانٌ إذا اخْتـمَرَتْ

يَمُـرُّ مِنْ فَوْرِهِ فِي إِسْتِ سَـكْـرانِ[1]

فحال الأمّة التي تبيع كرامتها مثل حال البغي (الزانية) وهو تشبيه يستقبح الحال والمآل، بينما يشبّه حُماة العِرض (الحاكم) بالسّكران الذي فقد الغيرة على نفسه حين أضاع عقله، فبدت سوأته للآخرين، ولبناء الاستلزام الحواري في هذا الخطاب وجب عقد المماثلة بين حالة الأمة (البغي) وحالة الحاكم(حماة العرض) لتتكشف بعض الدلالات المستترة وراء اللغة الشّعرية، فيغدو التّشبيه الثاني سببا للأول، ويمكن الرّبط بينهما بالرّابط الاستنتاجي الحجاجي (إذن) فيصير التركيب على النحو الآتي (حماتي سكران...إذن الأمة كالبغي) يعرض الشّاعر وصفا آخر لهذا الآخر الذي فقد كرامته، فأفقدَ الأمّة جميعا كرامتها، حين يصفُ أعوانه بالكلاب التي تلاحق الأنا وتشدد الخناق عليها، فيقول:

مِمَّنْ أخافُ؟ !جِهازُ الأمْنِ يَرْقبُـــنِي

وشارَكتْهُ بِــنقْلِ الهَمْسِ حِيطانِـــي

كِلابُهم مـــثلَ ظلّـــي لا تفارقُنـــــي

تقِيسُ لِي حجْمَ أنْفاسِـــي بِمِيــزانِ[2]

إذ تقوم فلسفة الأنظمة الفاسدة على تشديد الرّقابة على الرّعية، وتشكك في كلِّ أفعالها، وقد تدرج الشّاعر في وصف الآخر وأفعاله، فمِن أحفاد (هامان) إلى الدليل الخائن الذي يرعى القطيع، ثم السّكران فاقد الحسّ والغيرة، إلى جهاز الأمن والتعقب الذي يوظف أعوانه وكلابه في تأديب الرّعية وحصارها، فالتشبيه الأخير (كلابهم مثل ظلي) يستفزُّ المتلقي فيصدر أحكامه ويتفاعل مع الذّات الملاحقة، لأنّه يتفق معها في المبدأ والشعور، والاشتراك في الوضع، ويعدُ هذا التركيب التمثيلي مع السّياق اللّاحق المؤطّر لوجه الشبه (تقيس حجم أنفاسي) أحدَ الاستلزامات المتوصَّل إليها من خلال الخطابات السابقة.

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 49.

[2] المصدر نفسه، ص 49-50.

3ـ 3 ـ حجاجية التشبيه في خطاب الآخر المختلف (الأجنبي)

يكاد ينحصر الخطاب الشعري في "ديوان نبوءات الجائعين" على خطاب الآخر الذي له علاقة بالأنا الشاعرة في إطار السّياق المقامي لارتباط الخطاب بوضع الشاعر من السياسي، والذي تؤشِّر له عتبة الإهداء «إلى الذين استعذبوا قيودهم كي لا يعيشوا عبيدا... من كان ذا قلب فلا يحابيّن به ظالما....»[1]، لذلك فمعظمُ الخطابات ترتبط بهذا السّياق الخارجي، غير أنّ الخطاب في قصيدة (دمانا عند رب العرش أغلى) موجهٌ إلى الآخر الأجنبي(أمريكا) لأنّ لها اليد الطولى في محنة الأنا الشّاعرة، وفي الوضع الذي تعيشه كل أنا مقهورة، إذ استعان الشّاعر بالخطاب الاستعاري والكنائي بشكل بارز لقدرته على أداء الوظائف الشّعرية أكثر من الخطاب الذي يتكئ على المشابهة، وممّا ورد من التّراكيب التّشبيهية خطاب (أمريكا) وكل من ينهج نهجها فيقول في قصيدة (دمانا عند رب العرش أغلى):

بِلادي للْيـــهودِ لظَـى جحـــــيمٍ

ونأنَفُ مِـــثْلَهُم أنْ يَخْدمُـــونا

أنأمنُـــــهم وهـــم أحفاد غـــدرٍ

ومَنْ مَكَـــروا بقتْـلِ المُرسلينا[2]

يتوعد الشّاعر الآخر (اليهود) بالعقاب الشّديد، فعبر عن ذلك بالصّورة التّشبيهية (بلادي لظى جحيم) إذ التمس للمشبّه ما يناسب وعيده لهذا المخاطب الذي ذكر حقيقته في السّياقات القبلية، وإذا كان المتلقي الذي يستهدفه الشّاعرُ يدركُ مسبقا حقيقةَ هذا الآخر من خلال الخلفية الفكرية والسّياقات الخارجية، فإن ذكر ملفوظ المخاطب(اليهود) يُغني عن كثير من الأبعاد التي تثير التّساؤل قصد فهم مضمون الخطاب التّشبيهي، إضافة إلى سياق المقال الذي يسبق هذه الصّورة (نحب بلادنا ونموت فيها، ولا نرضى لها صلحا مشينا) إذ يعدُّ سببا، والتّركيب المجازي نتيجة له، وإضافة الى العلاقة السّببية التي تُسلم إلى انسجام الخطاب

[1] أيمن العتوم: ديوان نبوءات الجائعين. عتبة الإهداء، ص5.

[2] المصدر نفسه، ص 79.

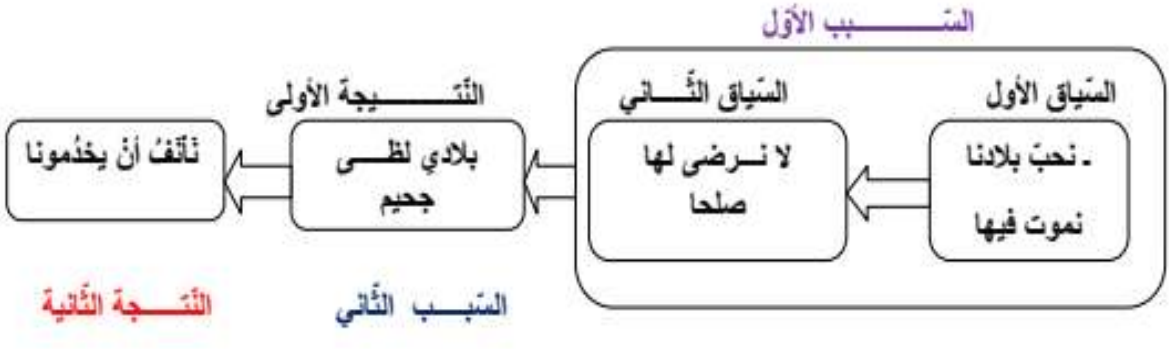
فإنّ كثيرا من القرائن اللّغوية تجمع بين التركيبين(البلاد/نحن) أما ملفوظ (الصلح) فهو الذي يبرز حقيقة اختيار المشبّه به، وعليه فإنَّ عملية الاستلزام تتطلب إدراكَ شبكة العلاقات بين الملفوظات ومراعاة السّياق النّصي الذي يحيل إلى محاولات بعض الأطراف التي لا حضور لها في السّياقات النّصية، في تفعيل سياسة التّفاوض والصلح.

فإذا كانت حجاجية هذا التّشبيه قائمة على مبدأ السّببية فإنَّ عملية التّأويل المركَّب ترفع من درجة المحاجة حين يقع وجهُ الشّبه من نفس المتلقي موقعا حسنا، لأنّه يتضمن مبدأ الخضوع، فاجتمع الإقناع مع التّأثير، وهذه الاستراتيجية في بناء الخطاب تخلقُ علاقة تواشج بين النّص ونفسية المتلقي.

يتجاوز الشّاعر في خطابه إلى الآخر قضية الرّفض والجلوس إلى طاولة الصّلح، إلى الرّغبة الجامحة في استعادة الكرامة، وقد عبّر عن هذا الطّموح في التّركيب التشبيهي (نأنَفُ مثلهم أن يخدمونا)، فإذا كان الآخر قد مارس سلطته في إخضاع الأنا حتى غدت في خدمته، فإنَّ الأنا المستضعفة لا تعدِمُ الأنفة في أن تكون مخدومة، بما يحيل إلى استرجاع المجد، ويؤطر هذا التّشابه ملفوظ (يخدمونا) الذي يعدّ وجه التّشابه، إذ اعتمد الشّاعر في هذا القياس على التّطابق التّام بين طرفي التّشبيه مستهدفا قضية الأنفة، فاستحال المشبّه (الأنا) هو عينُه المشبّه به (الآخر)، وهو ما يلغي مبدأ التّمايز الذي طالما تغنى به الآخر، إذ أسهم في اتّساع الفجوة بين الأنا والآخر، وجعل العلاقة قائمة على التّعارض والتّغالب.

إن استلزام هذه المقاصد القومية للخطاب تحيل إلى الاستراتيجية التي تبناها الشّاعر في إقامة العلاقة بين هذا التّشبيه والصّورة المتقدمة عنه، القائمة على مبدأ السّبب والنّتيجة، ومتى مالَ الخطابُ إلى هذه العلاقات تمكّن المعنى في نفس المتلقي وحمله على الاقتناع، وهو ما يسميه "**كرنو Cournot**» التعقل عن

طريق التمثيل»[1]، وعليه يمكن تجسيد علاقات التّراكيب في هذا المخطط لاستلزام المعاني المقصودة وتمثيلها في هيئة سلم حجاجي.



الشّكل (24) البنية الحجاجية للتّشبيه في خطاب الآخر (الأجنبي)

يبني الشّاعر خطابه الشّعري الرّافض للصّلح مع الآخر بناء حجاجيا يسلم إلى الإقناع، فنراه يعمد إلى إسقاط القناع عن الآخر، وقد ألبسته الأنظمة الخائنة للأنا قناعَ البراءة والوسامة والطّهر، يقول:

أنأمَـــنُهم وهم أحفاد غَـــدْرٍ

وَمَنْ مَكَـــروا بقتلِ المُرسلِيـــــن

فكيفَ نَمُـــد أيدينا إليـــــهم

ونرضَـــخُ للـــــولاة الخـــــائنينا؟ ![2]

يستنكر الشّاعر في الشّاهد سعي الآخر وأعوانه إلى تصديق اليهود في نوايا الصلح، ذاكرا عللَ الاستنكار، معبرا عنها بالتّشبيه الذي يبرز حقيقة الآخر (اليهود)، فعمد إلى البحث عن مشبه يناسب هذه الحقيقة، ما استلزم أن يكون المشبّه به تركيبا إضافيا مجازيا (أحفاد غدر) فقد جسّد الغدر في صورة إنسان. متى ما انتهى خلّفَ أحفادا وراءه، فينهجون سبيله في إشارة إلى أجداد اليهود الأوائل في سياستهم مع الأنبياء

[1] خديجة بوخشة: حجاجية التمثيل في الشعر الجزائري الحديث، ص 376.

[2] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 79-80.

والمرسلين، وعليه فإنَّ عملية التأويل مِن منظور "**الجرجاني**" تحتاج إلى إدراك أبعادِ التّصوير بالاستعارة من جهة المشبّه به، ثم قياسها بالمشبّه، لاستلزام المعنى المقصود من عملية القياس، ولعلَ الشّاعر استهدف مِن الصّورة التّمثيلية تشبيه اليهود بالغدر نفسه (هم الغدر) لأنّه يذكر في السّياق اللاحق مكرَهم وقتلهم الرسل.

إن المتلقي لصورة الآخر يتفاعل مع الخطاب الشّعري لكونه يقدِّم الحقيقةَ مشفوعةً بالدّليل الذي يتناصُ مع ما ورد في سورة البقرة عن قتل الأنبياء في قوله تعالى:«ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» (البقرة 61)، وتشكّل هذه الحقيقة حجة أخرى لرفض سياسة الأنظمة الدّاعية إلى الصّلح مع اليهود، لأنّ كليْهما يَعتبر رفضَ الصّلح والاستمرار في القطيعة إرهابا، لذلك افتخرَ الشّاعر بموقف الأنا الجمعي وجهادها ضدهم، معتزا بتصوير الآخر للأنا في صورة المجرم،(فإنا المجرمون)، لأنَّ فلسفةَ الآخر تقوم على أُحادية التّصور من منظور أيديولوجي استعماري صهيوني متعالٍ، وكأنَّ الشاعرَ ينقلنا إلى قول المتنبي:

وإذا أتَتــكَ مَذمَّتي مِنْ ناقِــص فهــي الشَّهادة لي بأنّي كامـــلُ[1]

هذا التّصوير الذي، لابد أنْ يؤوَّل في إطار السّياق النصي حتى يتحدّد المعنى المُضمر المقصود، وإذ يكثّف الشّاعر مِن السّياقات الرّافضة للآخر فإنّه لا يأبَهُ بموقف الآخر وردود أفعاله، أو بما يَصطلحُ عليه في منظومته القيمية الاستعمارية، فهو لا يبالي بأنْ تُنْعتَ الأنا بالتّطرف مادام ذلك ردَ فعلٍ مناسب، فيعتز بالتّصريح وتصوير الأنا في صورة المتطرِّف (إنا أوّل المتطرِّفين) ولعلَ الشّاعر يستهدف مضمونَ المثل القائل (الحديد بالحديد يفلح)، لإفحام المخاطب ودفعه إلى الانحسار والتراجع.

[1] المتنبي: الدّيوان: شرح عبد الرحمن البرقوقي، ط2، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي، 2014، رقم البيت 894، ص 944.

ملخص المبحث

يمكن القول أخيرا: إنَّ الخطاب الشّعري في ديوان "نبوءات الجائعين" لا يخلو من استخدام أسلوب التّشبيه، وإنْ كان بدرجة أقل مقارنة بالأسلوب الكنائي والاستعاري، ذلك أنَّ الشّاعر لا يستهدف التّمثيل والتّصوير في خطابه للآخر، إذْ يبثُّ رسائل التّحدّي والرّفض، ويسعى إلى التّغيير والتّحرر، فنجده في خطاب الآخر (المحلي) يصوّر حال هذا المخاطَب بما يحملُ على رفض الواقع، كما يميلُ إلى عتاب الآخر الذي يضيّقُ الخناق ويَحُدُّ من الحرية، فيعتبر الكلمة سلاحا ممنوعا.

إنَّ للتّشبيه بعدا حجاجيا يبرز في تجسيد الدّلالات وتشخيصها ونقلها من التّجريد والعقل إلى المادية والتّجسيد من خلال عملية القيّاس، الأمر الذي يدفع المتلقي إلى التّصديق وإدراك أبعاد عملية القياس في المماثلة، وحين اتّكأ الشّاعر على أسلوب التّشبيه استهدف تصحيح مسار المخاطَب، وحَمْلِه على تغيير موقفه من الآخر، وضرورة تغيير موقعه على مسرح الأحداث؛ بما يحقق له الوجود الفعلي.

عمَد الشّاعر في خطاب الآخر إلى استخدام التّشبيه ليجسّدَ حقيقة الآخر (الحاكم/ الأجنبي) إذْ يُعدُّ الآخر أحد أطراف المماثلة، بينما يقتضي الخطاب اختيار المشبّه به المناسب للدلالة التي يفترضها الشّاعر انطلاقا من سياقات مقالية تتضافر مع سياق المقام الذي يحدّده أحيانا خطاب البدايات أو النّهايات أو هما معا، وتتّفق التّشبيهات في أبعادها الحجاجية الرّافضة لتسلّط الآخر ومركزيته في تقويض البنية الآخرية، والاستهتار بحقوقها، وقد برزت العناية بطرفي المشابهة في تركيبتها اللّغوية، وإهمال وجه الشّبه غالبا، ذلك أنَّ السّياقات المختلفة تُعين على رسم الصّورة التي يريدها المرسِل، بما يحمل الذّهنَ على إعادة التّركيب لتحقيق الانسجام النّصي المعين على التّأويل في إطار تداولية الخطاب الشّعري، وإذْ يتم ذلك يقع التّشبيه موقعه الحسنَ في ذهن المتلقي خاصةً إذا امتلك الكفاءة التّداولية.

ملخص الفصل الثاني

ترتقي البلاغة الجديدة (التّداولية) بالصّورة البلاغية من كونها بِنية نصّية تسعى إلى تصوير المعنى للتّأثير في المتلقي إلى كونها آلية خطابية تتعالق مع مختلف البنى في نسيج الخطاب؛ لها القدرة على نجاح العملية التّواصلية ونقل الفكر والمحاجّة، فتدرس الكناية أو الاستعارة أو التّشبيه بمراعاة عناصر العملية التّواصلية (المرسِل، المرسَل إليه، الرسالة، السياقات المتعلقة بالخطاب)، إذْ إنَّ الصّورة البلاغية حمّالة أوجه، متعدّدة الدّلالات بحسب زاوية التّأويل وطبيعة المُؤوّل وكفاءته في إدراك علاقة البنى التّصويرية بمختلف البنى الخطابية.

اشتغلت الدّراسة في هذا الفصل على الأبعاد التّداولية للكشف عن الغايات الحجاجية التي يمكن أنْ يحقّقها الاتّكاء على علم البيان (الصّورة البيانية) في خطاب الآخر (المحلي، الحاكم، الأجنبي) إدراكا من المخاطِب أنَّ الأساليب الانزياحية لها القدرة على أداء الوظيفة الاتّصالية وتحقيق الغايات التّخاطبية المفترضة مُسبقا؛ إذ التّلميح بالمضامين يدفع المتلقي إلى التّعلق بالخطاب والمغامرة في خوض رحلة التّأويل، واستدعاء كلِّ الطاقات الذّهنية، لفك شفرات الخطاب، وتذوّق النّص والرّبط بين الفكر والفن، وقد اعتنى "أيمن العتّوم" بخطابه الشّعري في الديوان، إذْ أشار إلى كثير من السّياقات المرتبطة بخطابه إلى الآخر (خطاب البدايات والنّهايات) التي تعدُّ مُشيرات مقامية ومفاتيح أوليّة في المقاربة التّداولية، كما استخدم في ثنايا الخطاب الشّعري ما يُحيل إلى موضوع الخطاب ورسائله التي تحدّد طبيعة المخاطَب، وتؤسس للغايات الحجاجية من خلال بناء الخطاب وفق استراتيجيات تراعي حالة المخاطَب، وانسجام الخطاب، ورؤيا المخاطِب للموضوع، كُلُّ ذلك في لغة شعرية طافحة تزاوج بين السّرد الشّعري الواقعي والتخييل الفنّي، إذْ استهدفت الدّراسة الإبانة عن طبيعة الخطاب وأبعاده الحجاجية في خطاب الآخر (المحلي المستضعَف، الحاكم الظالم، الأجنبي المختلف) وحاولت الكشف عن الطّاقات الحجاجية للأدوات البلاغية (الكناية، الاستعارة، التّشبيه) وتحليل أبعادها التّداولية في نماذج من قصائد الدّيوان التي تحقق تلك الغاية.

الفصل الثالث

حجاجية الأساليب في خطاب الآخر في ديوان

"نبوءات الجائعين"

* المبحث الأول: حجاجية الأسلوب الخبري

* المبحث الثاني: حجاجية الأسلوب الإنشائي

* المبحث الثالث: حجاجية المفارقة

الفصل الثّالث: حجاجية الأساليب في خطاب الآخر في ديوان نبوءات الجائعين

المبحث الأول حجاجية الأساليب الخبرية في خطاب الآخر

1ـ الخبر

قسّم البلاغيون العربُ القدماء الكلامَ المفيد إلى خبر وإنشاء، وعن الخبر يقول "ابن فارس": «أمّا أهلُ البلاغة فلا يقولون في الخبر أكثرَ مِن أنّه إعلام...وأهلُ النّظر يقولون: الخبرُ ما جاز تصديقُ قائله أو تكذيبه، وهو إفادة المخاطَب أمرا في ماضي زمانٍ أو مستقبلٍ أوْ دائمٍ»[1]، فالكلام المفيد الذي يحتمل الحكم على مضمونه أو على قائله بالصّدق أو الكذب يُعدّ في نظر البلاغيين خبرا، وإذا جئنا إلى التّفريق بينه وبين الإنشاء نجد أنَّ الخبر «هو ما يتحققُّ مدلولُه في الخارج بدون النّطق به، نحو: العلمُ نافعٌ، فقد أثبتنا صفةَ النّفع للعلم، وتلك صفةٌ ثابتة، لأنَّ نفعَ العلم حاصلٌ في الحقيقة والواقع، وإنّما أنت تحكي ما اتّفق عليه النّاس قاطبة، وقضت به الشّرائع وهدتْ إليه العقول بدون نظر إلى إثبات جديد»[2]، ومنهم من يرى أنَّ الحُكْم لا يكون على المُخبِر بلْ على الخبر في ذاته، أيْ أنَّ الخبرَ هو «ما يحتمل الصّدق أو الكذب لذاته»[3]، فخلُوُ التّعريفِ مِن ملفوظ (لذاته) يجعلُ الإنشاءَ خبرا، بالنّظر إلى صدق المتكلم وعدمه، فالسّائل الذي يقول: (إعْطني) وهو غني عن السؤال يُعدُّ كاذبا، وعليه يصير الإنشاءُ خبرا، ولذلك فإنّ «تمييز الخبرِ من الإنشاء مِن منطلق الصّدق والكذبِ يُثير

---

[1] ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكريا (ت 395هـ): (الصّاحبي) باب معاني الكلام، تح: السيد أحمد صقر، د ط، القاهرة، مطبعة عيسى الباجي الحلبي وشركاه، د ت، ص 289.

[2] السّيد أحمد الهاشمي: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتحقيق: يوسف الصملي، د ط، بيروت، المكتبة العصرية، 1999، ص 55.

[3] المرجع نفسه، ص 55.

إشكالاتٍ كثيرةً، لأنَّ هذا المبدأ ليس الوسيلةُ المثلى لمعرفة الخبر وفرزه من الإنشاء»[1]، وقد تنبّه التّداوليون إلى هذا الباب فقالوا بإمكانية خروج الخبر إلى الإنشاء، وخروج الإنشاء إلى الخبر .

والخبر «لا يعدو أنْ يكون الحكم بمفهوم لمفهوم، غيرَ أنَّ هذا الحكم إمّا أنْ يتمّ بالنّظر إلى الواقع أو بالنّظر إلى اعتقاد المتكلم، بمعنى احتمال الخبر للصّدق أو الكذب يتمُّ انطلاقا من مطابقة ذلك الحكم للواقع أو عدم مطابقته له، أو انطلاقا من مطابقته لاعتقاد المتكلم، أو عدم مطابقته له»[2]، وتركّز المقاربة التّداولية للخطاب على مبدأ المطابقة «أيْ العلاقة بين الملفوظ والعالم، وهذا المفهوم التّداولي ابتكره "أوستين" ثم نقله "سيرل" من اللّغة إلى فلسفة العقل؛ فيرى أنَّ العبارة الخبرية تملك اتجاه المطابقة من الكلمة إلى العالم»[3]، وعليه فإنَّ الخبرَ يُلقى إلى السّامع إمّا ليستفيد منه فيسمى في هذه الحالة "فائدة الخبر" أمّا إذا كان السّامع يعلم مضمون الخبر فيُلقى الخبر لغايات أخرى، فيسمى حينئذ "لازم الفائدة"، كما يُقسَّم الخبر باعتبار درجة قبول المخاطَب للخبر إلى ثلاثة أقسام؛ فهناك الخبر الابتدائي؛ ويكون ذلك حين «يُفرغ المتكلم في قالب الإفادة ما ينطقُ به تحاشيا عن وصمة اللّاغية، فإذا اندفعَ في الكلام مُخبرا، لزمَ أنْ يكونَ قصدُه في حكمه بالمسند للمسند إليه في خبره ذاك، إفادتُه

[1] سعد رفعت سرحت: معنى قول البلاغيين (لذاته/ جامع مانع) عند تعريف الخبر والإنشاء، منصّة أريد، 2023/04/29، الرابط:
https://portal.arid.my/ar-LY/Posts/Details/8c7858bb-7cf0-4738-b016-10d854d67c3e?t=&fbclid=IwAR39LE669XE8b-o6oL4U7FHACWLmzGkpnVQ2hxuBeTlSOsFbYLvnwJyGu8Y

[2] العياشي أدراوي: عن الاستلزام الحواري في التّداول اللساني، منشورات الاختلاف، ط1، 2011م، الجزائر، ص 29.

[3] نعيمة سعدية: صور الخبر والإنشاء في فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ص 355.

للمخاطَب...فتستغني الجملة عن مؤكدات الحكم»[1] فالخبر الابتدائي يُلقى على مخاطَبٍ خالي الذّهن فيتقبّله دون الحاجة إلى ما يثبت صحته.

أمّا الخبرُ الطلبي فيكون فيه المخاطَب طالِبا لما يؤكّد صحّة الخبر لكي يزول تردُّدهُ، الأمرُ الذي يدفع المرسِلَ إلى استعمال أداة توكيد واحدة لتقوية الخبر، «وإذا ألقاها إلى طالب لها، مُتَحيِّرٍ طرَفاها عندَه دون الاستناد، فهو منه بيْنَ بين، لِيُنقذَه عن ورطة الحيرة، استحسن تقوية المنقذ بإدخال اللام في الجملة، أو إنَّ»[2]، وفي الخبر الإنكاري يلجأُ المرسِل إلى استخدام أكثر من مؤكدٍ، لأنّه «إذا ألْقاها (الجملة) إلى حاكِمٍ فيها بخلافه، ليرُدَّه إلى حكم نفسه، استوْجب حكمه ليَترَجَّحَ تأكيدا بحسب ما أُشرب المخالف الإنكار في اعتقاده»[3]، فمنكر الحكم الجاحد به بحاجة إلى دعائمَ لغويةٍ تدفعه إلى التّسليم بمضمون الخبر، الأمر الذي يدفع المرسِل إلى الاستعانة بأدوات التّوكيد.

2ـ حجاجية الخبر

تركّز التّداولية على الغاية التّواصلية في الخطاب، ولعلَ الإقناع أحدُ أهمّ مقتضيات التّواصل، لذلك يعدُّ الحجاج أحد الغايات التّداولية في الخطاب، ولا تخفى غاية الأسلوب الخبري التي تستهدف الإعلام والإخبار والتّقرير وحَمْل المتلقي على قبول الحكم الذي يتضمّنه الخبر، لذلك فإنَّ سّعيَ الباثّ إلى إقناع مخاطَبه يصُبُّ في مصلحة الأسلوب الخبري، وقد حظي الحِجاج في الدّراسات الحديثة بعناية النّظرية التّداولية لأنَّ موضوعَها «هو دراسة التّقنيات الخطابية القصوى التي تعمل على حثّ

[1] السّكاكي يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي: مفتاح العلوم، ضبط وتعليق: نعيم زرزور، ط2، بيروت، 1987، ص 170.

[2] المصدر نفسه، ص 170.

[3] المصدر نفسه، ص 171.

الأذهان للتّسليم بالأطروحات المعروضة عليها، أو تزيد في درجة ذلك التّسليم»[1]، وهذا الموضوع وثيق الصّلة والوشائج بالأسلوب الخبري الذي "لا يشتغل بمعزل في الفراغ، بل يقتضي اتصالا بين ذهن الخطيب والمستمع، حتى لا يكون فعله منعدما، ومن خلال ذلك يكون الحجاج حلقة الوصل بين طرفيْ العملية التّواصلية، ويتضمّن ردّ فعل المستمع وجوابه وما يمكن أن يكون، إنّه يشمل القول واللاقول، الفعل وردود الفعل"[2]، ومن منظور نظرية المساءلة عند "**ميشال ماييز**" فإنّ الخبرَ يتضمّن مساءلةً بين الباث والمتلقي؛ تقوم على تقديم كلِّ طرف ما يُقنعُ به الآخر.

3ـ حجاجية الخبر في خطاب الآخر

3ـ 1ـ خطاب الآخر ابن الوطن

تعدُّ قصيدة "**لنا صبح نؤمله**" القصيدة المفتاحية في ديوان "نبوءات الجائعين" ذلك أنّها تحملُ خطاب التّقرير والتّحدي، وتفصح عن النّهج الذي تنتهجه الأنا في مجابهة الآخر، الذي كبّلَ حياتها وحرمها حقوقها الإنسانية، وإذا كانت الرّسالة موجهةً إلى "أمِّ أيمن" باعتبارها أول من يتأثر بالغياب، وبالوضع الذي تعيشه الأنا الشّاعرة، فإنّ الخطاب يتجاوز هذه الحدود إلى كلِّ ذاتٍ حُرّة أبية تأبى الضّيم، وتنشد حياة الكرامة والإنسانية، وفي ذلك يقول أيمن العتوم:

يا أمَّ أيْــمنَ لا شــــكوى تُردّيـــــنا

إلّا إلـــى الله، إنّ اللهَ يحْـــــمِينا

نمـوتُ مِن أجل أنْ تحــيا عقيدتُــنا

[1] محمد سعيد محفوظ: حجاجية الأسلوب الخبري، جامعة تيارت، مجلة فصل الخطاب، م 07، ع 25، مارس 2019، ص 27.

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 28.

ولا نـــذلُّ لجـــبّار وطَــاغِـــينا

لقدْ وَرِدْنَـا على حوضِ الهُـدَى شرفًا

فلا السّجــونُ ولا التَّـعذيبُ يَــثْنِينا

لنَا نفُوسٌ يَهــابُ المــوتُ عزّتَـــها

ولا تَنَـــامُ عــلـــى ذُلٍّ مـــــآقيــنا

إنَّــا صَبَرْنا على ضَيْــمٍ نُـــساقُ لهُ

وإنْ يَكُ الصّبرُ في الأحْشَاءِ سِكّيـنا[1]

يعدّ الخبرُ الأسلوبَ الأكثر حضورا في هذه الشّواهد الشّعرية، وقد تنوّع الخبرُ بين الإثبات والنّفي حسبَ طبيعة الخطاب ورسائله الموجّهة إلى الآخر (أبناء الوطن انطلاقا من ملفوظ أم أيمن)، ولذلك لا يمكن الفصل بين النّوعين للارتباط الوثيق بينهما في أداء رسالة المخاطِب، إذ تفتتح الأنا خطابها بأسلوب الحصر (لا شكوى إلا إلى الله) والذي يُحيل إلى إيمان الأنا بمصيرها وقدَرِها، ليتضمّن القولُ رسالةَ التّطمين وبعثِ الثّقة، والتّدليلِ على طاقة التّحمّل الخلّاق والصّبرِ الجميل، وهو دعوة أخرى إلى المخاطَب ليكون على هذا العهد في مجابهة غياب الأنا، وفي المقابل تحديد الموقف من الآخر المتسبّب في معاناتها، إنّها رسالة الشّعر التي ترفع من قيم النّضال والصّبر في سبيل الحرية، وقد رأى "**سيرل**" أن «العبارات الخبرية تملك اتجاه المطابقة من الكلمة إلى العالم»[2]، وممّا يزيد من قوة هذا الخبر في نفس المخاطَب ما تُورده الأنا من تعزيز لمضمون الخبر في التّركيب الشّارح (إن الله يحمينا) الذي يعدّ خبرا طلبيا (من حيث ضربه) لإدراك الأنا حاجةَ المخاطَب إلى ما يرفع من درجة

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 11.

[2] نعيمة سعدية: صور الخبر والإنشاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري، ص355.

تصديقه لمضمون الخبر الأول وأبعاده الخطابية، إذ لا يمكن أن يخامر الذّات المخاطِبة شكٌ في قيمة الحكم الذي تضمّنه الخبر(الله يحمينا) لأنّ مبدأ التّعاون الذي يقتضيه الخطاب التّداولي محققٌ سلفا، فاستراتيجية المخاطِب المعتمدة على أسلوب الحصر ثم الاتيان بما يحْمِلُ المخاطَب على التّصديق يجعل أغراض الخبر ذات حجاجية عالية تدفع المخاطَب إلى التّفاعل الإيجابي.

يتّكئ الخطابُ في هذه الشّواهد على استراتيجية الإجمال ثم التّفصيل، إذْ تمت تهيئة ذهن المخاطَب لتقبّل الرسائل الضّمنية عن طريق الإجمال ثم يأتي التّدرّج في عرض قضية الأنا بعيدا عن التّقرير السّاذج؛ الذي قد يستدعي الإشفاق أو التّضامن السّلبي، بل يخرج إلى غايات أكثر عمقًا، تستهدفُها الأنا لتوحّد القوى في مجابهة الآخر المعتدي على الحريات، ومن هذه الغايات الثّبات على النّهج الذي يعدّ أحدَ أهمّ السّبل الكفيلة بالتغلب على قوى الآخر (نموت من أجل أن تحيا عقيدتنا) وهو أسلوبٌ متعدّد الأغراض يبرز إيمان الأنا بصحة عقيدتها، وفي مقابل ذلك يفضح فساد عقيدة الآخر وفلسفته، وهو ما يدفع المخاطَب إلى تحديد موقفه في هذا الصّراع، ولذلك نرى الأنا الشّاعرة تكثّف من استخدام الأساليب الخبرية التي تجعل مخاطَبها يميل إلى التّصديق والإذعان والتّضامن (لا نذلّ لجبّار وطاغينا) فإنّ الاتّكاء على النّفي يُخرج الأنا من دائرة سيطرة الآخر (جبار، كافي) إذْ يعدّ القولُ دعامةً حِجاجية تؤكد صحّة عقيدةِ الأنا وقناعتها بالتّفوق عليه.

إنَّ المخاطَب والمتلقي لهذا الخطاب يعدّان من أقطاب العملية التّواصلية من منظور المقاربة التّداولية لذلك تستهدف الأنا الإقناعَ والتّأثيرَ؛ لدفعِ كلّ طرفٍ ليحدّدَ موقفَه من الآخر أوّلَ الأمر، ثم دفعِه إلى تنفيذ الحُكم الذي توصّل إليه من خلال تفاعل السّياقات المختلفة لتكوين الرؤيا الصّحيحة.

ويستمر نهجُ الخطاب على استراتيجية التفصيل السّاعية إلى إقناع المخاطَب بفلسفة الأنا الشّاعرة وصحّةِ موقفها في مواجهته، فيُورد في صدر الشّاهد خبرا طلبيا(لقد وردنا على حوض الهدى شرفا)،

فالخبر يتضمّن افتخار الأنا بمواقفها وأفعالها لدفع المخاطَب إلى الاقتداء بالمنهج، ثم يُردف ذلك بخبرٍ يتّكئ على تكرار النّفي بُغية تنزيه الأنا عمّا يمكن أن يتوهّمه السّامع عنها (لا السّجن، لا التّعذيب يثنينا) ليكون التّركيب الخبري محاجة تؤكّد مضمون الخبر الوارد في صدر الشّاهد، فيتضافر الصّدر والعجز (الإثبات والنفي) في تحقيق الأبعاد الحجاجية المفترضة مسبقا في وعي الأنا، ويأتي الشّاهد الشّعري التّالي على النّمط نفسه (الإثبات في الصدر، النّفي في العجز) فتكون المفارقة (نفي/إثبات) ذات غاية واحدة، وإن تعدّدت الأبعاد التّداولية لمضمون الخبر(لنا نفوس يهابُ الموت عزتها)، إذ تبرز نزعة الفخر والشّموخ بالأنا الفاعلة، أملا في إضعاف آلة الآخر حينا، ورغبةً في إقناع المخاطَب بوجوب الانتصار للأنا، وتعديل المواقف لتتعاضدَ القوى المساعدة فتصنعَ مصيرها وتضمن وجودَها، فالخبرُ (لا تنام على ذلٍّ مآقينا) يتضمّن عدولا عن المعنى الذي تفيده صيغة المستقبل (تنام) إلى الإقرار بالحصول، ليكون الاستلزام الحواري على هذه النّحو (لا تنام ✓ لم تنم) لأنَّ السّياقات القبلية تُحيل إلى هذه الدّلالات، ولعل المتلقي (المخاطَب) قد توصّل إلى هذه القناعة، وتدرّج من خلال استراتيجيته المنتَهجة تركيبيا في بناء موقفه، ممّا يجعلها على قدر من الكفاءة التّداولية في تفسير أبعاد الخطاب.

وينتهي الخطابُ الشّعري المبني على البنية الخبرية في هذه الشّواهد إلى تقديم النّتيجة الختامية لكل ما سبق (إنا صبرنا على ضيم نُساقُ له) إذ يبدو من ظاهر اللّغة تقريرا لحقيقة مواقف الأنا، غير أنّه يحمل بُعدا تداوليا تنصُّ سياقات المقال السّابقة على غايته الخطابية ، فالمرسِل يبعث الثّقة في نفس المخاطَب، وهو إذ يؤكد على استمرار فلسفة الأنا في مواجهة الآخر مستقبلا يطلب منه السّند والإخلاص للمبدأ لتحقيق الغاية المشتركة، فالتركيب الخبري قد جمع بين صيغة الإقرار (الماضي) وصيغة الاستمرار (المصارعة) لإبراز طبيعة الصّراع الهادف إلى تقويض قدرات الأنا عبر الزمن

(صبرنا، نُساقُ) لكنّ الأنا تُدرك من خلال هذه الثّنائية ما يتطلّبه الموقف، فمالت إلى خطاب التّفاؤل وبعث الثّقة في الأنا الجمعي، والتّنويع في الغايات الخطابية التي تُضمرها الأساليب الخبرية.

إنّ مشروع الأنا الهادف إلى بناء منظومة صحيحة قادرة على مواجهة مركزية الآخر وسياسته في تهميش الأنا الجمعي لا بدَّ أن تبني استراتيجيتها بإحكام بمراعاة الزّمن وطبيعة العلاقة بين مختلف طبقات الأنا الجمعي، وقد حملَ الخطاب الشّعري في المقطع الموالي أسسَ هذه الاستراتيجية يقول أيمن العتوم:

أنا رَضِيتُ بِما أُوذيتُ مِــنْ بلـدِي

وكُـــــلُّ جرْحٍ بِصَدري فَـاضَ نِسْــرينا

أحبّـــهم مَــا أساءُوا لسْتُ أكرَهُهُم

وهَلْ سأكْرَهُ مِنْ شَعْـــبي المسَاكِـــينا؟!

إذا دَعَوْتُ بِإحْسانٍ دعَــوْتُ لَــهمْ

وقـــالَ كُـــــلُّ زفيــرٍ فــيَّ آمِـــينا[1]

إنّ البنية الخبرية في مطلع الشّاهد تحيلُ إلى السّياقات المقامية، فهي تقرير للحقيقة التي تعيشها الأنا الشّاعرة، تصوّر زفراتِ الأنا ومعاناتها، لكنّها تضمر الحسرةَ والكمد بسبب تخلي الآخرين عنها في مواجهة عبث الآخر الظالم، فالاتّكاء على أسلوب الاستدراك في التّركيب المُوالي يثبتُ الوقائع، وقد خلا ظاهر الخبر مِنَ الرّابط الحجاجي (لكن) إذ التقدير (أنا رضيتُ بما أوذيت/ لكن: كلّ جرح بصدري فاضَ نسرينا) وعليه يُعدّ الخبر المتأخِّر تأكيدا واستدراكا في الآن نفسه، ويحيل إلى البعد

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 12.

الحجاجي الهادف إلى الإقناع بفلسفة الأنا في التّعامل مع الأنا المتّحد معها في المصير، وهي استراتيجية ترفض المواجهة؛ لكونها لا تحمِّلُ غيرَها مسؤولية ما تعيشه، ومثلُ هذه الخطابات يدفع المخاطَب إلى مراجعة المواقف ونقد الذّات، ومتى تحقق ذلك فقد بدأ مشروع الأنا الشّاعرة يُحقّق مقاصِدَه.

يتضمن المقطعُ استراتيجية الأنا البعيدة الأمد (أحبّهم ما أساءوا)، فقد ورد ضربُ الخبر ابتدائيا لأنَّ الخطاب قد تضمّن مُسبقا ما يدفعُ إلى تصديق الآخرين وعدم إنكارهم لمضمون الخبر، وإذا كان الخبر (حب الأنا لغيرها رغم التخلي عنها) لازم الفائدة فإنَّ الخطاب يستهدف غاياتٍ مضمرةً، ويملك المخاطَب كفاءة استنتاج مضمون الرّسالة من منطلق السّياقات المتكاملة (المقام والمقال)، فقد أوردَ المُرسِل بعضها في تركيب إنشائي (هل أكره من شعبيَ المساكينا؟!) فلغة الأسلوب الظاهرة تخالف المدلول الإخباري المقصود، الذي يحمل حجة الأنا في عدم معاتبة غيرها.

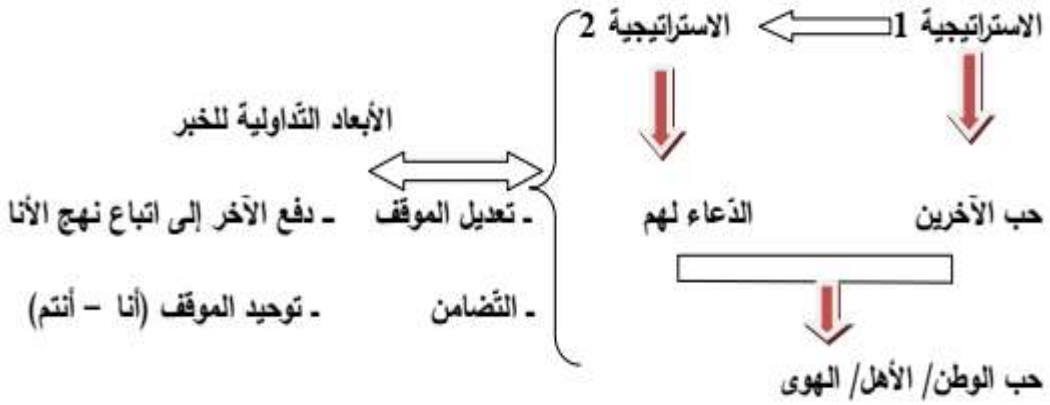
أمّا الاستراتيجية الثّانية فهي دليل صحّة المبدأ الأول (حبّ الآخرين) الذي يعدُّ استراتيجية أولى (دعوت لهم) فظاهر الخبر يتضمّن نقاء السّريرة والتّجاوز عن التّقصير، وله بعد حجاجي كونه يلتمس الأعذار للآخرين، فالدّعاءُ لهم يقتضي حاجتهم وضعفَهم، لكنَّ مضمَرَ الخبرِ يُستقى من وراء هذه الاستراتيجية الهادفة إلى كسب قلوب الآخرين، لتعديل مواقفهم منْ أجل بناء منظومةٍ صلبة في مواجهة الآخر المعادي، فالافتراض المُسبق للأنا يتبنى الاتّكاء على مبدأ التّعاون في الخطاب انطلاقا من سياق المقام وبعض سياقات المقال ومنها (أوذيت في بلدي).

ويورد في ثنايا الخطاب استراتيجية أخيرة جامعةً، لها أبعادُها التّداولية في افتكاك الإقرار بالانحياز للأنا الشّاعرة؛ التي تبنت رسالة الآخرين، فسخّرت إمكاناتِها المتاحةَ في مجابهة تسلّط الآخر، يقول:

أحبُّ أرضــي وأهْلــي والهَوى أبــدا

وذُبتُ في الحبِّ حتى صِرْتُ مجْنونا[1]

تتبنى هذه الاستراتيجية المبدأ الأوّل (الحب) لكنّه أكثر شمولية (الوطن، الأهل، الهوى)، إذْ يقوم الخبر بدفع المخاطَب إلى الإذعان، لأنَّ استراتيجية التّدرّج (حب الآخرين، الدّعاء لهم، حب الوطن، الأهل، الهوى) تقع من نفسِ المخاطَب موقع الرّضا، فهو يتوصّل عن طريق العقل إلى الغاية التي من أجلها التزمتِ الأنا بهذا الدّور الخطير، فالأسلوبُ الخبري في الشّاهد الشّعري ينأى بالأبعاد التّداولية عن مجرد الإقرار إلى دفع الآخرين إلى تبني موقف الأنا، وبالتّالي إلى وجوب تصحيح المسار وتعديل المواقف، ونقد الذات، إنّه مبدأ التّطهير الذي يتوخاه الفن، مبدأ التغيير السّلس؛ الذي يجعل كلَّ (أنا) تستخلص العبرة، لتصل إلى مرحلة اختيار أفعالها عن قناعة، ويمكن توضيح ذلك في هذا المخطط.



الشّكل (25) تداولية الخبر واستراتيجياته في خطاب الآخر (ابن الوطن)

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 12.

3 . 1 ـ 1ـ فاعلية النّفي والإثبات في الإقناع

اتّكأ الخطابُ الشّعري في قصيدة "لنا صبح نؤمّله" على المزاوجة بين النّفي والإثبات ضمن استراتيجية استمالة الآخر عن طريق التّحوّل من العتاب إلى إبراز مسؤولية الأنا قبل غيرها، ثم بناء الحجاج الهادف إلى نقد مواقف الآخر دون التّصريح المباشر بذلك عن طريق الأفعال الكلامية غير المباشرة؛ التي تؤطِّرُها سياقات الخطاب المختلفة، يقول "أيمن العتّوم":

فلا أقول: أساءوا إليَّ عَلى مَضَـضٍ

ولا أقول: هُـمُ الأدْنَــوْنَ تهْــوِينا

ولا أقول: انْتُقِصْــنا مِنْ كَرامَتـنا

ولا أقول: ذُبحْنا عَــنْ أمَــانِيــنا

لقدْ بَرِئْــنا مِنَ الأحْــقادِ يا وَطَــني

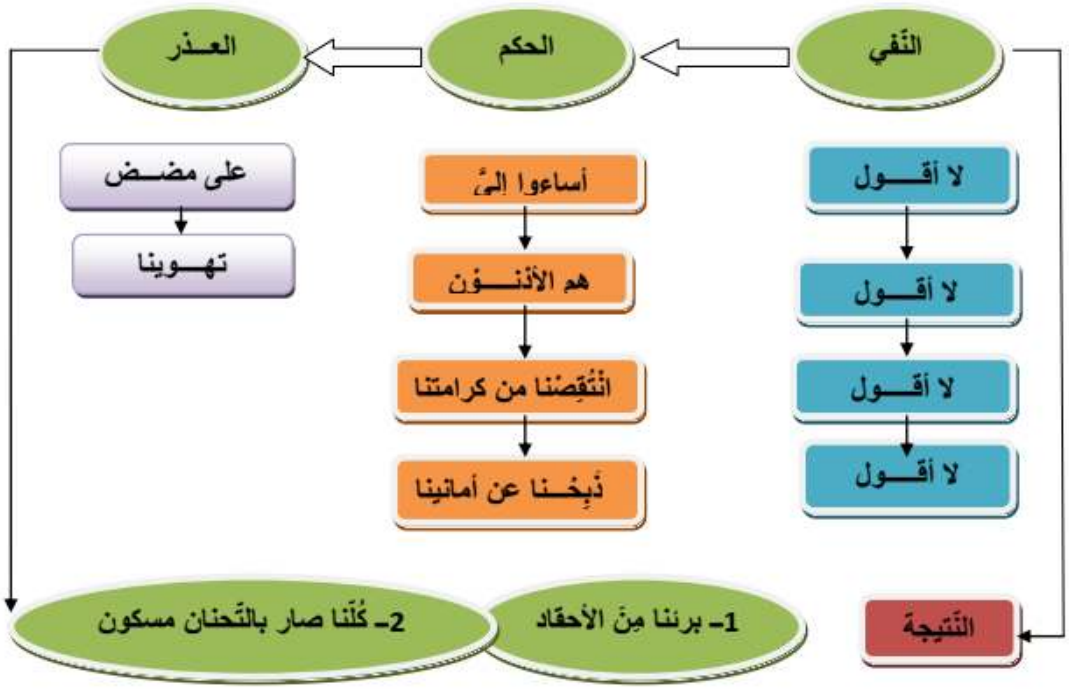
وكلُّــنا صارَ بِالتَّحْــنانِ مَسْـكُونا[1]

إنَّ تكرار الخبر المنفي يُحيل تداوليا إلى تبرئة الذّات النّاطقة بالخطاب مِن مضمون الحكم، بما يحمل المخاطَب على استدعاء أفكاره حول القضية (الحكم) والموازنة بين ما انطبَعَ في ذهنه وما ينفيه المخاطِب عن ذاته، وإنْ كانت صيغة الفعل (اقول) دالّة على الحال والاستقبال فإنَّ المقصود بها الماضي المستمر (قلت/ أقول)، ثم يُورد المخاطِب الحُكْمَ الذي يُوهِم به مخاطبَه أنَّه غير حاصلٍ (أساءوا إليَّ على مضض)، وبما أنَّ الخطاب مُوجّه إلى مخاطَب تشترك معه في مبدأ التّعاون والقصدية فإنَّ أساس الأسلوب الخبري هو مضمون القول لا التّصريح به، إنّه خطابٌ يتّكئ على

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 12-13.

استراتيجية إيهام المخاطب وتبرئته من الحكم لدفْعِه إلى تقبُّل الخطاب وعدم معارضته حفاظا على استمرارية الحوار، ليحققَ الخطابُ مقاصده كاملة، خاصّة وأنَّ الأنا قد قدّمتْ للمخاطَب ما تراه مناسبا مِنَ الأعذار أثناء اختياره لأفعاله ومواقفه يبرزها ملفوظ (على مضض).

ويتدرّج الخطاب الهادف إلى تعديل الموقف والسّلوك بعد ذلك إلى تبرئة المخاطَب من الحكم؛ وقد استخدم المفعول لأجله (تهوينا) لتحقيق هذه المقصدية، وعليه يكون التّركيب على النّحو الآتي: (لا + الفعل المضارع) لا يحققُ المدلول الزّمني الحقيقي، فينتقل النّفي إلى الزّمن الماضي (لم+ الفعل الماضي)، أمّا الدّلالة المضمرة فهي نقد مواقف الآخرين ودفعهم إلى تجاوز الأعذار الواهمة.

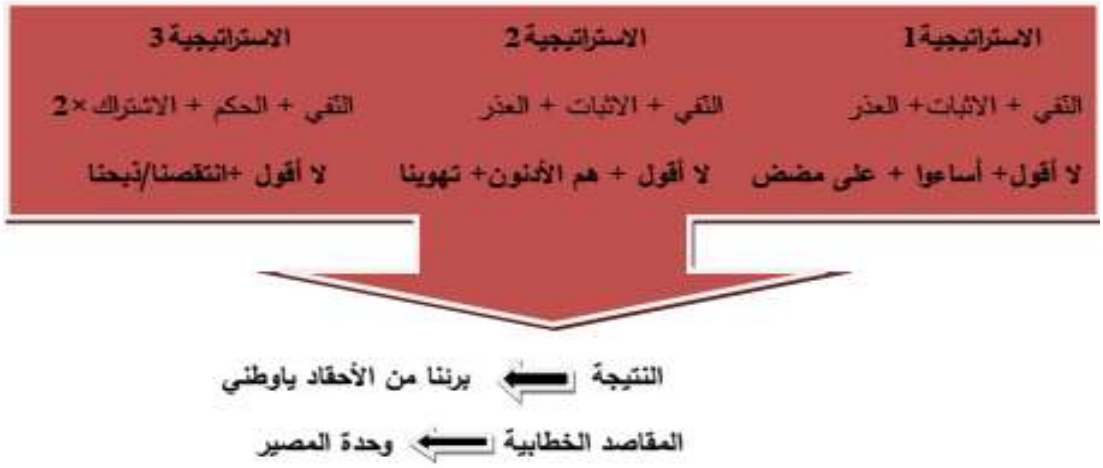


الشّكل (26) تداولية النّفي وأبعاده الحجاجية في خطاب الآخر (ابن الوطن)

وينتقل المخاطِب من نفي الحكم عن الآخرين إلى إظهار الاشتراك في مضمون الحكم (انتُقِصْنا من كرامتنا/ ذُبِحْنا عن أمانينا) وقد ورد الحكم منفيا بالصيغة (لا + فعل القول الدّال على الحال والاستقبال) إذْ لا يمكن بلوغ مقاصد هذه الأساليب الخبرية المنفيّة إلا بالسّياقات اللّاحقة التي تُجْلي

ضبابية المعنى (لقد برئنا مِن الأحقاد)، فالمخاطِب لا يستهدف البحث في حقيقة الأحكام (الكرامة/ الأماني) بل يستهدف تجاوز الحقيقة الواقعة وتوحيد الصّف، فيتعاضد الآخرون مع الأنا في مواجهة مركزية الآخر المتسلّط.

فاستراتيجية التّلفظ التي بُنيت على تكرار النّفي (لا أقول) تؤدي دورها في المحاجّة من خلال ذكر النّتيجة بالاتّكاء على الأسلوب الخبري المؤكَّد (لقد برئنا) وعيًا مِن المخاطِب أنَّ مخاطَبَه يطلب ما يُثْبتُ الحكم ـ فكان ضرب الخبر طلبيا ـ قصد التّصديق، ومنه الانخراط في مشروع الأنا (المخاطِب)، ولعلَ إيراد الحكم مقترنا بالجملة الخبرية (كلُّنا صار بالتِّحْنان مسكونا) يستميل قلبَ المتلقي فيكون بذلك دِعامة حجاجية ثانية؛ تحققّ مقاصد الخطاب، ويمكن تجسيد استراتيجية الخطاب في هذا المقطع في المخطط الآتي.



الشّكل (27) استراتيجيات الخبر وأبعاده الحجاجية في خطاب الآخر (ابن الوطن)

3 ـ 2ـ جاجية الخبر في خطاب الآخر الحاكم

يكشف المقطع الثاني من قصيدة "نبوءات الجائعين" الوضعَ الذي تحياه الأنا في ظل تسلط الآخر الحاكم، ويتناول خطاب الأنا الشّاعرة قضيةَ سلب الرعيّة حريتها وحقها في الدّفاع عن نفسها، ومن السّياقات التي توجِّه الخطاب الشّعري في هذا القسم قوله:

شعبٌ يعذّبُ فِي السُّجــونِ بِغيْـر ذَنبٍ

ثُــم يُسْلـبُ دونَه حَــقّ الدّفاعْ[1]

يتضمن الخبر تقرير حقيقةٍ؛ يَبرُزُ فيها الفاعل من خلال ملفوظ (السّجن) ويجسّد حسرة الأنا، لأنَّ فعلَ الاستبداد ظاهر (بغير ذنب)، وتبلغ الحسرة منتهاها من خلال مبالغة الآخر في طغيانه (يسلب حقّ الدفاع) إذ يعد الشّاهد الشّعري الاستراتيجية الخطابية التي يبنى عليها خطاب الأنا، فهو الحجّة الدّامغة التي تدفع الأنا الحرّة المقاوِمة إلى رفض الحال وتوجيه المساءلة الضّمنية من خلال مضمرات الأساليب الخبرية يقول:

هذا أنا... مازلتُ أعرِفُهُمْ

لقدْ خرجُوا جميعا مِنْ جُحُور الغَرْبِ

قدْ شرِبوا حَليبَ الغَدْرِ مِن ثَدْيِ الضِّباعْ

لم يُنكرُوا أبدا...

وأجْبَنُهُم تعرَّى مِن نُصوص الدَّوْرِ فوقَ المَسْرحِ القومِيِّ

أعْلَنَ أنْ لَهُ نسَبٌ يَمُتُّ لِقَيْنقاعْ

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 21.

وتبرّأتْ مِنه ثيابُ النّاسِكينَ

وفارقَ الوجْهَ القناعْ[1]

ورد الخبر الذي يفضح الآخر (الحاكم، السّجان، المتسلّط) مؤكّدا لجعل المتلقي يقبل على مضمون الخبر، وإذا كان ظاهر اللّغة يُحيل إلى أنّ المخاطَب هو الآخر الذي يتعرض لتسلّط الحاكم فإنَّ المخاطَب الحقيقي هو نفسه الحاكم، لكنّ الأنا الشّاعرة مالت إلى عدم التّصريح لغايات مختلفة (فكرية، فنية، حجاجية...) فالخبر يضمر نقدا لاذعا للآخر، ويعدّ الأسلوب الخبري اللّاحق نتيجة لما قبله (شربوا حليب الغدر من ثدي الضباع) فالتّركيب المجازي للخبر يتضمّن نقدا صارخا للآخر الذي يعتبَرُ صناعةً غربية في غير بلادها، وعليه يكون الإنكار أهمَّ الاستدلالات التي يضمرها الأسلوبان الخبريان المؤكدان بحرف التحقيق (قد).

يكثّف الشّاعر مِن خطاب النّقد حين يصوّر الآخر ممثِلا على مسرح الحياة باعتباره الرّاعي، لكنّه تخلى عن دوره الحقيقي فخرج عن النّص، وترك مركزَ المسؤولية واحتفى بالهوامش، وقد عبّر عن ذلك باستخدام الأسلوب الخبري الذي يتعدّى التّقرير إلى الوصف المهين، والسّخرية من أساليبه المفضوحة وادعاءاته المخالفة لأفعاله (له نسب يمتُ لقينقاع).

تجلي السّياقات اللّاحقة رفض الأنا لهذا الحاكم الرّاعي المزيّف المنافق، وإنْ كان ظاهر التّركيب يستخدم ضمير الغائب فإنَّ متلقي الخطاب يدرك أنّ ضمير المخاطَب هو المقصود (تبرأت منك) فالجملة الخبرية تقرِّر مكانة الآخر في نفوس الرّعية، وتكون النّتيجة سقوط قناع الزّيف والخديعة (فارق الوجهَ القناعُ) فاستراتيجية عرض حقيقة الآخر والحجّةُ الدّامغة وصدقُ الوصف والنّقدِ واستراتيجيةُ

[1] المصدر السابق، ص 21-22.

عرض الأسباب لبلوغ النّتيجة ذاتُ طبيعةٍ حجاجية تجعل المخاطَب والمتلقي ينتهي إلى الرضا والقبول بالأحكام.

أمّا في قصيدة "**مشاعر في هوى الأردن**" التي يسجّل فيها تعرّضَه للظّلم والسّجن فإنَّه يتحدّى فيها الآخر الظّالم السّجّان، ويُصرُّ على المقاومة والانتصار للمبادئ، ومن السّياقات التي تؤطّر الخطاب الشّعري قوله:

لأنّني عشْتُ لا أرضى بِـــطاغيةٍ

ولا أذلُّ لسَمْـــــسارٍ وخـــــوّانِ

ولسْتُ أقبلُ صمتًا سوفَ يُنقـــذُني

مِن بطشِ مُنتقم، أو ظُلمِ سجّانِ

لقدْ خُلــقْتُ لأُعْـــلِيها مُـــدوّيةً

براءَتِي مِـن طـواغيتٍ وطُغْـيان[1]

يتجاوز الخبر تقرير الوقائع إلى حمل رسائلَ متعدّدةٍ بحسب طبيعة متلقي الخطاب، قد يكون من أهمّها ما يضمره الخطاب من تحدٍّ للآخر الذي صرّح به الشّاعر (طاغية، سمسار، خوّان)، فالسّمة البارزةُ في هذه الأساليب هي اقتران النّفي بالتّوكيد في تناغم أسلوبي يحاجج به المخاطِبُ لإقناع مخاطَبه بقدرته على الانتصار عليه، ولا شكَّ في أنَّ مثل هذه الاستراتيجية الخطابية تؤدي دور التّرهيب المعنوي للآخر، فتدفعه إلى مراجعة مواقفه مع الأنا.

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 45-46.

يتوالى خطاب الرّفض والتّحدي والاستهانة بالآخر تقويضا لسلطته، ودفعه للتّشكيك في طاقاته، وإنذارا له بفشل مشروعه في إخضاع كلِّ (أنا) حرّة تتحدّى سياسته، فترضى بالسّجن على أن تكونَ قطيع فئران فيقول:

فـــإنْ تَشاءُوا خُذوا رُوحي فإنَّ لهَا

مِليــونَ قافية ضجّت بألْـــحانِي

إذا تُطالِـــعها الأجْـيال تشْتُمـــهُم

فتلْك مِـنْ بعدِهْم لعْناتُ جُثْمـانِي[1]

يتضمّن الخبر في الشّاهدين وسيلة مقاومةِ الأنا (قافية الشعر) لأنَّ طاقة الرّفض وفضح الآخر لن ترحلَ مع الجثامين، فهي السّلاح الذي لا يصدأُ ولا يندثرُ، وقد ارتقت لغةُ الخطاب إلى مستوى الوعيد ممّا يجعل حجاجيتها مؤثرةً في الآخر من خلال شحن سلاح الأنا بمعانٍ تتجاوز مستوى المدلول اللفظي (قافية ضجّت، تشتمهم، لعنات) فهي ذات زخم دلالي تُعلن من خلاله الأنا ثورتها على الآخر، يقول أيمن العتّوم:

كفرتُ (بالبِسّ) يزهُـو في شواربِه

يَقودُ مِنْ خَلْـفه قُطْعانَ فِئــرانِ[2]

تصرِّح الأنا الشّاعرة في الخطاب الشّعري بكفرها بالآخر وسلطته منذ البداية، أمّا في هذا الموضع فقد ورد التّأكيد على ذلك لكون الأنا تملك السّلاح الأنْسبَ لقهر الآخر (قافية الشّعر) وهو ما يجعل

[1]: أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 46.

[2] المصدر نفسه، ص 47.

الخبر يخرج إلى أغراض بلاغية أخرى أهمّها التّحقير، وحجاجيته بارزة في تفصيل القول عن الحقارة والهوان؛ الذي يتضمّنه عجز الشّاهذ الشّعري (يقود قطعان فئران)، ولعلَ الآخر حين يتلقى الخبرَ يُدرك أنّه المقصود بالدّلالات المضمرة التي تستفِزُّه، فتدفعه إلى ردود أفعال متباينة، فيكون بعضها على قدرٍ مِن العناية التي يفترضُها باثُّ الخطاب مُسبقا، حينئذ تُحقّق استراتيجية الإقناع؛ التي تتبني على قراءة أفكار الآخرين غاياتِها الحجاجية، لأنَّ الآخر يتوهّمُ أنَّ القضاءَ على كلِّ فكرٍ مُخالف يتوقف على رَكْنِه في دهاليز السّجون، لكنَّ هذا الخطاب يُحرّكهُ ويدفعه إلى مراجعة القضية من جديد.

3 ـ 3 ـ حجاجية الأساليب الخبرية في خطاب الآخر المختلف الأجنبي

إنَّ الخطاب الشّعري في قصيدة "**دمانا عد ربّ العرش أغلى**" يصرّحُ بالآخر الأجنبي (أمريكا) فيُوجّه المتلقي إلى طبيعة الخطاب الشّعري، لأنَّ هذا الآخر يدبّر شؤون الأنا العربي من بعيد، فقد نصّب مَن ينوب عنه، ويدفعه أنْ يُخضِعَ شعوبَه لإرادة هذا المستحْكِم، فيقول الشّاعر:

دِمانا فِـــي المـــزاد فساوِمـينا

وصُبِّي الكأسَ منها واشْرِبِيـــنا

إذا مـــا جِئتِ حتّـــى تشْـــتَرِيـنا

فَـــيا (أمريكيا) كَـمْ تدفعيـــــنا؟![1]

هذا الشّاهد يحددُّ أطراف العملية التّواصلية وطبيعة الخطاب في القصيدة، أمّا الأسلوب الخبري الذي أُفتتح به الخطاب فيبرز فلسفة الآخر (أمريكا) في تعامله مع الأنا العربي؛ فلسفةٌ ترفضها الشّرائع والتّشريعات، أمّا التّصريح بها فله بُعدٌ تداولي يرمي إلى الرّفض والضّجر وعيًا بانحراف الآخر عن مسارات الإنسانية، وينحو الخطاب منحى السّخرية في كثير من السّياقات النّصية التي تتّكئ على الأسلوب الخبري في مثل قول الشّاعر:

فـــإنَّا أمّةٌ وسَـــــــطٌ ولسْـنا

نريدُ ســوى رِضــاكِ فسامِحِـينا[2]

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 77.

[2] المصدر نفسه: ص نفسها.

تبرز حجاجية الأسلوب الخبري في صدر الشّاهد من خلال التّناص القرآني الذي يؤكد على الوسطية والاعتدال، لكنَّ ملفوظات الخطاب تتضمّن مفارقة ذات بعْدٌ تداولي يُدْركُه الآخر من خلال سياق التّناص، فالأنا تُحيل إلى سياسة الآخر (أمريكا) المعادية لكلِّ ما له علاقة بإيديولوجيةِ مَنْ يُخالفه (الأنا العربي)، فالخبرُ (نريد رضاك) يضمر كثيرا من الدّلالات؛ من أهمِها إبراز علاقة الهامش بالمركز مِن منظور النّقد والاستهجان، أو مِن منظور الضّعف والتّبعية، ويذكِّر الآخرَ بجرائمه التي يُديرُها عن بُعدٍ، فيقول:

نُســـاقُ إلى المحاكـــمِ دونَ ذَنْـــبٍ

على اسمِ عدالةٍ عَفِنتْ قرونـــــا

قوانيـــــنٌ لغـــــــرْبيٍّ لـــــــئيمٍ

ومـــازلنـــا لهـــــا مُسْتَعمَرِينـــا[1]

إذا كان الخبر في الشّاهد الأول يذْكُرُ المُسبَّبَ ويُورِدُ السّببَ فإنَّه يوجِّه التّهم إلى الآخر، ويُحمِّله المسؤولية المباشرة في إدارة جهاز العدالة المحلّيةِ، ثم لا يلبث أنْ يذكرَ علَّة ذلك (قوانين لغربي) فالمخاطَبُ يدرِكُ أنَّ مضمون الأساليب الخبرية يُثير سَخط الأنا التي تدعو إلى إسقاط جهاز العدالة، والتّحرر من سلطة الآخر، (ما زلنا لها مستعمرينا)، فالاستراتيجية الخطابية القائمة على الأسلوب الخبري الذي يربط المُسبِّباتِ بالأسباب ذو أبعادٍ حجاجية، تزيد من قوة الخطاب، فتدفع إلى الإذعان وإجبار الآخر على مراجعة المواقف، كما تنبّه الأطراف الفاعلة في صراع الأنا مع الآخر.

[1] المصدر السابق: ص 78.

يحفلُ الخطاب الشّعري بالأسلوب الخبري الذي يبرز تأثير الآخر (أمريكا) على حياة الأنا، وإذا كانت الأنا الشّاعرة تميل إلى أسلوب التّقرير والتّصوير في ظاهر اللّغة اعتمادا على ضمير الغائب فإنَّ الأبعاد التّداولية تتجاوزهما إلى اللّوم والعتاب والرّفض الصّارخ، يقول:

نَبُــوس نِــعالَ أَمْريــكا لِتَرْضَــى

ونَطْلــبُ وُدّهَــــا مُتَذلِّــينَا

كَــذا تُرعَى كَــرامتُنا وتُــعلــى

حَــياةُ الأوفِيــاءِ الصّادِقِيــنا؟!![1]

وما يؤلم الأنا الشّاعرة أكثر هو مبدأ اللاعدالة الذي يطبقه الآخر حين يكون حكَما بين الأنا العربي والآخر اليهودي، لذلك تصوّر الانحياز الفاضح للآخر اليهودي، ممّا يجعل الخطاب الشّعري مفتوحا على دلالات لا حدود لها تتعدّد باختلاف متلقي الخطاب، ومن الأساليب الخبرية التي تصوّر هذه المفارقات قول الشاعر:

رخُصْــنَا بينَ أَنْفُــــسِنا وَهُــنّا

كَأَنّا قَـدْ ألِفْــنَا أنْ نَهُــونَا

وأمّــا فاليــهودُ لَهُــم أمَــــانٌ

متَى سفَكُــوا دِمانا وَامْتَطَــوْنا

فَكَــمْ مِــنْ قَاتِــل قَـدْ حــاكَمُوهُ

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 78.

بحبْـس سـاعـةٍ مُسْتكثريــنا

يُـــغرَّمُ ثُلثَ سِنْـــتٍ أو أَغُـــورا

ويُطْلَـقُ بعْـدَها حُرًّا مَصُـــونا[1]

ينتقل الخطاب الشّعري من فضاءِ النّص والمخاطَب الواحد(أمريكا) إلى فضاءٍ واقعي تشهد الأنا العربية فصولَه وتفاصيله كُلَّ يومٍ، وما يهمُّ ههنا هو التّأكيد على دور الآخر في هذه المفارقة، ممّا يزيد من معاناة الأنا، فسرد الوقائع في الشّاهد الشّعري يُنبّه الطّرف الفاعل في هذه المعادلة إلى الكفّ عن سياسته المنحازة، التي تحركها أيديولوجيته الفاسدة، وفلسفته المادية العفنة، فأسلوب المفارقة (أنفسنا/اليهود)(رخصنا/سفكوا) (هنّا/ قاتل)، يجعل الأسلوب الخبري ذا فاعلية حجاجية، لأنّ المفارقة تكشف حقيقة الآخر الظّالم، المُعين على الظّلم، فالأساليب الخبرية (حاكموه بحبس ساعة مستكثرينا) (يغرَّم ثلث سنت) (يطلق حرّا مصونا) أساليبٌ تضع المخاطَب (أمريكا، اليهود) أمام حقائقَ ثابتةٍ، فالخبرُ صادقٌ واقعيا(الصّدق من قوانين الخطاب) يعبّر عن موقف الأنا الرّافض لما يحدث على الأرض، إذ تُسهم واقعية الخبر على بلوغ البعد الحجاجي المتوخَّى في كثيرٍ من الخطابات.

إنّ الخطاب الشّعري الذي تتوجّه فيه الأنا إلى الآخر في القصيدة موضوع الدّراسة يُثبت الوقائع ويحمّل الآخر مسؤوليته التّاريخية والإنسانية، وينقل جرائمَه التي ضاعفت من معاناة الأنا العربي، وليس على الخطاب الشّعري أنْ يحقق مكاسبَ على الميدان بقدر ما يهدف إلى إقحام المتلقي في فضاء الخطاب الشّعري ليؤدي رسالتَه الإنسانية من خلال الفن، وإذا كانت مركزية الآخر وسلطته قد حققت له هذا التّموقع داخل الفضاء النّصي وجعلته المركز والفاعل؛ فإنّ الأنا أمام هذا الوضع تُسلم

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 79.

أمرَها للقوّة القاهرة من منطلق أيديولوجيتها الرّاسخة، وتتوعّد الآخر بانهيار مركزيته، فيقول أيمن العتّوم:

سنصْبـــرُ للّذي ذُقناه أجـــــــرًا

وكمْ أجْـــرٍ يُوفّى الصّـــابرونا

لـــــنَا عِندَ الإلَهِ جِـــــنانُ خُـــلْدٍ

وهُم وسْـــط الجحيم مُخـلَّدونا[1]

يتضمّن الخبر الابتدائي في مطلع الشّاهد رسالة التّحدّي وعدم الاستسلام أمام تعاظم قوّة الآخر، إذ تتّكئ هذه الرسالة على حجة أيديولوجية تستفزّ الآخر، وتثير الرّهبة فيه، وقد تدفعُه إلى الانحسار نظرا لكونها تشير إلى الاحتكام إلى قوة ثالثة، لها السلطة الأقوى، ولعل مبدأ التّعاون الحاصل بين الأنا والآخر في الخطاب يرفع من الطّاقة الحجاجية لمضمون الخبر، ويحقق للأنا مقاصدَها الخطابية، وتكثّف الأنا خطابها الشّعري بناء على هذه الاستراتيجية القائمة على مبدأ التعاون التّداولي في العملية التّواصلية حين تتوعّد الآخر بالمآل المحتوم بناء على أسلوب المفارقة (لنا/ لهم) (جنان/جحيم) وهو أسلوب يرهّب الآخر ويدفعه إلى الانحسار ومراجعة المواقف.

يؤدّي الخبرُ في الخطاب الشّعري غايات متنوعة، فيخرج عن مجرد الإخبار والتّقرير إلى إبراز الموقف الشّعري أو التّعبير عن الحالة الشّعورية، وتحقيق غايات تخاطبية؛ تختلف باختلاف طبيعة المخاطَب وتنوع السّياقات، فقد تجاوزت المقاربة التّداولية في هذه الدّراسة العنايةَ بالأغراض البلاغية

[1] المصدر السابق: ص 80.

التي يخرج إليها الأسلوب الخبري إلى مراعاة وضْعِ المخاطَب وسياق التّخاطَب (المقام، المقال) بُغية إدراك الأبعاد التّواصلية والحجاجية التي يضطلع بها الأسلوب الخبري في ديوان "نبوءات الجاشعين".

ملخص المبحث الأول

عَنيت الدّراسة بالبحث في حجاجية الأسلوب الخبري في خطاب الشّاعر "أيمن العتّوم" للآخر على اختلاف أنواعه (ابن الوطن، الحاكم المستبدّ، الأجنبي)، إذْ كشفت الخطابات الشّعرية التي يتوجّه فيها الشّاعر إلى ابن الوطن عن أبعاد تداولية تختلف بسحب طبيعة هذا المخاطَب وعلاقته بالأنا الشّاعرة، إذْ يستهدف الخطاب دفعَه إلى مراجعة مواقفه الحيادية من قضيةِ سجن الأنا الشّاعرة؛ التي تدافع عن قيم العدالة والحرية، والسّعي إلى تأسيس منظومة متكاملة في مواجهة عبث الآخر.

وقد تميّز الخطاب الشّعري الذي يستخدم الأسلوب الخبري بتنوّع الاستراتيجيات الخطابية ذات الأبعاد الحجاجية؛ التي تحمل المخاطَب على التّسليم والاقتناع أو الإذعان، ومِن هذه الاستراتيجيات نذكر الإجمال والتّفصيل لجعل المخاطَب يتعلّق بالخطاب، إضافة إلى تجاوز التّقرير السّاذج لاستمالة المخاطَب والمتلقي ودفعه إلى بناء الاستلزام الحواري، ومن حيثُ البِنية التّركيبية للأسلوب الخبري فقد مال الخطاب إلى المزاوجة بين النّفي والإثبات كاستراتيجية أسلوبية تستهدف وَضْعَ المخاطَب في موضع الحَكَمِ على مضمون الخبر لاستلزام البُعد الحجاجي، ومن القصائد التي حفلت بهذه الاستراتيجية قصيدة "لنا صُبْحٌ نؤمِّله" التي تتوحّدُ فيها الغاية الخطابية بين الأنا والآخر (ابن الوطن).

أمّا خطاب الآخر الحاكم فقد اتّكأ على استراتيجية المساءلة اعتمادا على ضمير الغائب دون استخدام ضمير المخاطَب لغايات فنّية وأخرى فكرية حجاجية، فكان ضمير الغائب القناع الذي يستتر وراءه المخاطَب، وقد تضمّن الأسلوب الخبري خطاب الرّفض والتّحدّي، والميل إلى كشْفِ مخططات الآخر، ودفْعه إلى التّشكيك في قدراته وطاقاته، وتوعّده بفشل مشروعه القائم أساسا على سجن الكلمة

الحرّة، من خلال التّنويع في الآليات الأسلوبية ذات الأبعاد الحجاجية كاستخدام التّقرير مقترنا بالنّفي والتّأكيد وخاصّة في قصيدة "نبوءات الجائعين".

أمّا في خطاب الآخر الأجنبي فقد تميّز الأسلوب الخبري باستراتيجية المواجهة والتّصريح بالمخاطَب (أمريكا/ اليهود)، أما مِن حيث البِنية الأسلوبية فقد مال إلى استراتيجية الخطاب المفارق؛ الذي تتنوع آلياته وأداوته وخاصّة السّخرية والتّهكم؛ التي تدفع المتلقّي الحقيقي (الأنا العربي) أولا، والافتراضي (المخاطَب المذكور) بعد ذلك نظرا للأبعاد التّواصلية لهذا الخطاب التي تسعى إلى إيصال رسالة الشّاعر الرّافضة لمخططات الأجنبي على الأرض العربية، ومنها على وجه الخصوص التّحالف مع المحتل الصّهيوني، واللّافت في هذا الخطاب هو التّعبير بضمير الأنا الجمعي (نحن) التزامًا برسالة الأنا العربي لتقويض سلطة الآخر (قصيدة دِمانا عند ربّ العرش أغلى أنموذجا).

المبحث الثّاني: الأبعاد التّداولية والحجاجية للأسلوب الإنشائي في خطاب الآخر

1ـ الإنشاء

هو القسم الثّاني للكلام المفيد، وهو«الكلام الذي لا يحتمل الصّدق والكذب لذاته، وذلك لأنّه ليس لمدلول لفظه قبل النّطقِ وجودٌ خارجي يطابِقُه أو لا يُطابقه»[1]، وينبغي التّنويه إلى أنَّ عدم احتمال الإنشاء للصّدق أو الكذب مرتبط بذات الأسلوب، وليس من منظور ما يمكن أنْ يُستلزَم منه، والإنشاء قسمان؛ إنشاء طلبي وإنشاء غير طلبي، فأمّا الطّلبي «ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقتَ الطّلب، وهو على خمسة أنواع؛ الأمر، النّهي، الاستفهام، التّمني، النّداء»[2]، وأمّا الإنشاء غير الطّلبي فهو «ما لا يستدعي مطلوبا، وله أساليب وصيغٌ منها؛ صيغ المدح والذّم، التّعجب، القَسَم، الرّجاء، صيغ العقود»[3].

وإذا بحثنا في الفرق بين قسمي الأسلوب الإنشائي فإنّنا نجد «الإنشاء الطّلبي هو ما يتأخّر وجود معناه عن وجود لفظه، أو يسبق وجود لفظه وجودَ معناه، فالأمر (اِغسل يديك) يسبقُ فيه اللّفظ وجود المعنى...أمّا الإنشاء غير الطّلبي فهو ما يقترِنُ فيه الوجود، أيْ ما يتحقّق وجود معناه في الوقت الذي يتحقّق فيه وجود لفظه، فقول أحدهم للآخر: (زوّجتك ابنتي، وقول الآخر: قبلت) فمعنى الزّواج ووجوده يتحقّق وقت التّلفّظ بكلمة القبول»[4]، تجدر الإشارة إلى أن الأسلوب الإنشائي يتجاوز دلالاته اللّفظية

[1] عبد العزيز عتيق: علم المعاني، دار النّهضة العربية، ط1، بيروت، 2009م، ص 69.
[2] المرجع نفسه: ص 70.
[3] المرجع نفسه: ص 70-73.
[4] ينظر: المرجع نفسه: ص 73-74.

فيضمر معانٍ نفسيةً وعاطفية أو فكرية مختلفة، و«متى امتنع إجراء هذه المعاني على الأصل تولّد منها ما يُناسب المقام»[1]، ومِنْ منظور ارتباط اللّفظ بالمعنى في هذا القسم تتحدّدُ الأغراض البلاغية للأسلوب الإنشائي، إذْ تقلُّ في الإنشاء غير الطّلبي، لذلك لا يحظى بعناية علم المعاني بخلاف الإنشاء الطّلبي الذي تتعدّد دلالاته المضمرة في العملية التّواصلية وفي الخطاب الأدبي على وجه الخصوص، لذلك يعتبر مبحثا مُغريا للمغامرة في عملية التّأويل المرتبطة بسياقات التّخاطُب.

تسعى الدّراسة إلى استجلاء أهمّ الأبعاد التّداولية والحجاجية للأسلوب الإنشائي الطّلبي في خطاب الآخر على اختلافه (المتّفق معه/ الحاكم العربي/ الأجنبي المختلف) إذْ يفرض الخطاب الموجّه إلى الآخر تنوّعَ الأساليب الإنشائية الطّلبية بحسب مضمون الخطاب وسياقاته لمختلفة.

2ـ حجاجية الإنشاء في خطاب الآخر (المتّفق معه)

2ـ1 الأمر:

ويقصد به في البلاغة العربية «طلب الفعل على وجْه الاستعلاء والإلزام، وله أربع صيغٍ تنوب كلٌّ منها منابَ الأخرى في طلب أيّ فعل من الأفعال على وجه الاستعلاء والإلزام، وهي فعل الأمر، المضارع المقترن بلام الأمر، اسم فعل الأمر، المصدر النائب عن فعل الأمر»[2]، وقد يخرج أسلوب الأمر عن حقيقته وخاصة في الخطابات الأدبية، فيتجاوز سمة الاستعلاء والإلزام ليُضمرَ دلالات مختلفة بعيدا عن صيغته الطّلبية، ولا شكَّ في أنَّ السّياقات المختلفة المرتبطة بعملية التّواصل وحْدَها المُعين على كشف هذه الدّلالات، ونقصد السّياقات الخارجية، العاطفية الانفعالية، السّياقات الثّقافية، سياقات الموقف، وهذه الأخيرة مِنْ أهم السّياقات لأنّها مرتبطة بعملية التّلفّظ (سياق الحال).

[1] السّكاكي: مفتاح العلوم، 1986، ص304.

[2] ينظر: عبد العزيز عتيق: علم المعاني، ص 75-76.

يخاطِب الشّاعر في قصيدة "نبوءات الجائعين" الآخر المحلي الذي حُرِمَ الحرّية وانتزعت بعضُ حقوقه، إذْ يبدو من خلال المقطع الرّابع أنَّ الأنا الشّاعرة غير راضية على منهج المخاطَب؛ الذي سقط في فخ الرّضوخ والاستسلام، فالسّياقات النّصيّة تؤشّر للسّخرية والتّهكّم، لأنَّ سياسة الحاكم المتسلّط قد حقّقت أهدافها، يقول أيمن العتّوم في المقطع الرّابع:

يا خيــرَ مَن خُلِــقوا لأفْضلِ مَنْ سَلفْ

صِــحْ بالمقادير التي سلَبتْكَ حقَّكَ

رُدَّ بالصّــاعيْن صاعْ

حتى الخِرافُ إذا تجوعُ تقولُ مَاعْ

قل أنت: ماعْ[1]

يحدّدُ أسلوب النداء طبيعة المخاطَب، إذْ لا يمكن بلوغ مقاصد أسلوب الأمر إلا بمراعاة هذا السّياق في ظل غياب مؤشرات السّياق الخارجي، فأسلوب الطّلب (صحْ بالمقادير التي سلبتك حقّك) يحمل مفارقة مع طبيعة المخاطَب (خير مَن خُلقوا) فالأمر يخرج عن الدّلالة الحقيقة إلى المجاز ليضمِرَ أغراضا بلاغية ومقاصدَ كلامية تصوّر حقيقة هذه المفارقة، إذْ لو كان المخاطَبُ (خير خلف) ما كانت دعوة الأنا ترِدُ على هذه الشّاكلة! وعليه فالمراد بهذا الطّلب هو التّهكّم، وهو«إخراج الكلام على ضدِّ مقتضى الحال كقوله تعالى: ذُقْ إنَّك أنت العزيزُ الكريم»[2]، ذلك أنَّ ملفوظات الأسلوب تُحيل إلى

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 25.

[2] الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن، تح: يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، ج 4، ط1، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، 1990، ص52.

رفض الأنا لمنهج الآخر (المقادير سلبت الحق)، فالأمر يتطلّب من المخاطَب موقِفا يخالف الصّياح أو الصّراخ.

يتوصّل متلقي الخطاب قبل المخاطَب الحقيقي إلى حالة عدم الرّضا التي يضمرها السّياق الثقافي للخطاب، لأنَّ ملفوظات التّركيب تُحيل إلى الواقع الاجتماعي والثّقافي، فقد صوّر الأسلوب طبيعة هذا المخاطَب العاجز عن تغيير واقعه والتّمرّد عليه، بما يُحيل إلى تمكُّن قوى أخرى من سلْب قوّته وإمكاناته، فيُحدّد جملة العلاقات بين أطراف التّخاطُب المباشرة (الأنا/ الآخر) وغير المباشرة (المقادير التي تحيل إلى تلك القوى المضمرة)، والعناية بهذه الأطراف وغيرها من العوامل المرتبطة بسياق التّلفّظ كفيلٌ ببلوغ الأبعاد التّداولية لهذا الأسلوب، فتعدّد الأغراض في حدود الحقل الدّلالي الرّافض لمنهج الآخر يرفع من حجاجية الدّعوة التي تتجاوز المعاني السّطحية لملفوظات هذا التّركيب.

تولي المقاربة التداولية العناية بالعلاقات التي تتضمنها السّياقات النّصية في إطار شبكة العلاقات الدّلالية لفهم أبعاد العملية التواصلية، وبناء على ذلك فإنّ أسلوب الأمر اللّاحق يُعين على فهم مضامين الخطاب السّابق، فالتّركيب (ردّ بالصّاعيْن صاع) يستفزّ المتلقي والمخاطَب نظرا لانحراف المخاطِب بخطابه عن المألوف والمتوقّع، ممّا يستوقف الأذهان للبحث عن العلاقة التّبادلية التي اتّجه إليها المخاطِب، وإذا كان مُؤوِّل الخطاب على قدر كافٍ من الكفاءة التّداولية (مفهومها) فإنه يقيم شبكة من العلاقات ليفكّ شفرات هذا الانحراف الأسلوبي.

واتّكاء على ما سبق يُعدُّ الأمر (ردّ بالصاعيْن صاع) أمرا مجازيا يتضمّن معنى التّهكم، لأنَّ الفعل لا يُرضي العقل المفكِّر، ولا يريح الذّات التي سُلِبت أناها وحرّيتها إلا إذا كانت ضعيفة الهمّة، خائرة القوى، ترضى من الأمر بالفتات، وفي مضمون القول تناص ديني ورد مضمونه في الآية القرآنية

«قال أتستبدلون الذي هو أدني بالذي هو خير»[1]، فاستحضار هذا المعنى في ذهن المخاطَب (الآخر المستضعَف) يدفعه إلى مراجعة مواقفه، والبحث في السّبُل الكفيلة التي تعيد للأنا هويتها وكرامتها.

ويكثّف المخاطِب من أسلوب التّهكم الذي يرمي إلى الإيجابية دون التّثبيط من عزيمة الآخر، فيبلغ التّهكم ذروتَه في قوله:

حتى الخِرافُ إذا تجوع تقول: ماع

قلْ أنت: ماعْ[2]

قبل أنْ يعمد المخاطِب إلى استخدام أسلوب الأمر لجأ إلى الاستراتيجية الخطابية القائمة على ضرب المثل ليحقق الخطاب اللّاحق رسالتَه وغايته، فهذه الاستراتيجية تُخفّف من وطأة الأمر على نفسية المخاطَب (قل: ماع) لأنَّ التّمثيل بالخراف يبرز بعضَ أبعاد الخطاب، فالاستعارة التّمثيلية ههنا تتضمّن مدلولات عدّة؛ قد يبدو التّحقير مقصودا من خلال ملفوظ (ماع)، لكنَّ دلالات أخرى تُستقى من تشبيه المخاطَب بالخراف انطلاقا من السّياق المحدّد (تجوع) تُحيل إلى مدلول جديد يتوصّلُ إليه المخاطَب الذي يدرك الأبعاد التّداولية للتّركيب، وهو المطالبة بالحقوق والجهر بها ليدركَ الآخر واجباتِه تجاه رعيته، فالسّياق الثقافي من خلال ملفوظات التّركيب تتضافر في خدمة الغاية الحجاجية لأسلوب الطّلب في الشّاهد الشّعري.

لا يخرج الخطاب الموجّه إلى الآخر المستضعف في المقطع الخامس عمّا سبقت الإشارة إليه، بل يُكثّف الشّاعر من أسلوب الأمر لبلوغ غايات مختلفة فيقول:

يا أيُّها المزروعُ في قلبِ العروبةِ...

[1] سورة البقرة: الآية 61.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين: ص 25.

أيّها المطْعون بالحُزنِ الدَّفِينِ...

المُولَعُ... المَهْوُوسُ بالعربِ...المُعبّأُ بِالْتيَاعْ

غيِّرْ مكانَكَ... فجِّرِ الرّوْتِينَ...أشْعِلْ صفحةَ المُتآمرينَ

ونكِّسِ الأعلامَ للمُسْتسْلِمين... وراجِعِ التّاريخَ[1]

يتبنّى الشّاعر الاستراتيجية السّابقة التي تبني الخطابَ بناء منسجما يؤسّس لتأويل دّلالات أسلوب الأمر، حيث يكشف أسلوب النّداء عن طبيعة المخاطب ثم يوجّه إلى مخاطَبه جملةً من الرّسائل منها (غيّرْ مكانك) فالتّركيب وإنْ كانَ يحمل مدلولات واقعية، إلا أنَّ الوصف المُحدّد لطبيعة المخاطَب ينحو بالخطاب إلى دلالات مضمرة، من خلال العلاقة العمودية بين بعض الألفاظ منها (المطعون/ غيّر مكانك) هذه العلاقة تجعل أسلوب الأمر يدفعُ الآخر إلى ترك الموقع الذي يشغَلُه في مساحة الخطاب التي تُحيل إلى موقعه في ساحة المعركة؛ التي يحيا فصولها (محكوم، مستعبَد)، ونظرا لاعتماد المخاطِب على استراتيجية التّهذيب الإيجابي «التي تؤكّد على التّقارب بين المتكلّم والسّامع على أنّه استراتيجية تآزر solidarity strategy »[2]، لأنّ الخطاب يتضمّن استعمال ألقاب مشتركة (مزروع في قلب العروبة، الموسوس بالعرب) فإنَّ حَمْلَ المخاطَب على الإذعان لا تُعارضه الفوارق بين الأنا والآخر.

أمَّا أسلوب الأمر (فجّرْ الرّوتين) الذي تشكّل ملفوظاته استعارة ترتبط بالكناية السّابقة (غيّرْ مكانك) الأمرُ الذي يجعل الخطاب قريبا مِن الواقعية، لكنّه ينحو به إلى دلالات الرّفض والانصياع والتّحجر والاستسلام إلى الظروف، ذلك أنّه «ينبغي التّأكيد على أنَّ الوحدات الكلامية للّغة الطّبيعية

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 27.

[2] جورج يول: التّداولية، ص 106.

ليست مجرد سلسة من الكلمات، فهناك مُكوّنٌ كلامي يُفرَض دائما بالضرورة فوق المُكوّن الكلامي في كلِّ وحدة كلامية محكية... فثمّة عناصر غير لغوية ذات دخل كبير في تحديد المعنى، بل هي جزء من معنى الكلام؛ وذلك كشخصية المتكلّم وشخصية المخاطَب وما بينهما من علاقات وما يُحيط بالكلام من ملابسات»[1]، وعليه فإنَّ ملفوظ (الزّوتين) يحيل إلى الحياة النّمطية في ظلّ الاستعباد والانكفاء على الذّات، وبمراعاة مبدأ التّعاون coopérative principle بين المخاطِب ومخاطَبِه لاشتراكهما في كثير من السّياقات الخارج نصّية يتحقّقُ البعد الحجاجي لأسلوب الأمر.

ويعمدُ المخاطِب (الأنا الشّاعرة) إلى الإحاح في الدّعوة إلى التّغيير والتّغيّر في نفس المقطع من خلال أسلوب الأمر (أشعلْ صفحة المتآمرين/ نكّس الأعلام للمستسلمين) إذْ يتضمّن التّركيب الإنشائي الطّلبي ملفوظات تحيل إلى السّياق الخارجي (التآمر، الاستسلام) ولا شكّ في أنّ المخاطَب على قدر كافٍ مِن إدراك هذه السّياقات، ممّا يجعل الأسلوب يتوفر على أحد مبادئ الخطاب، ونقصد مبدأ النّوع quality principle وهو «أحد المبادئ الثّانوية الذي يقتضي أنْ يكون المتكلّم صادقا»[2]، حيث يدرِكُ المخاطَب مسؤوليته بعد توجيه الأمر، ويعلم موقعه الجديد في معركة التّغيير والتّحدي ليكون سندا للأنا في نضالها، لذلك يخرج الأمر إلى غرض الحثّ والتّشجيع، لأنَّ الخطاب اتّكأ مُسْبقا على مبدأ التّهذيب الإيجابي، وقد عَمَد المخاطِب إلى استراتيجية الشّروط المعمّمة generalized conditions وهي «شروط قبلية لإنجاز فعل كلام»[3]، إذْ تدرّج في فعل التّغيير من السّهل إلى الصّعب (غيّر مكانك، فجّر الزّوتين، أشعل، نكّس الأعلام) ليأتي الدّور على مراجعة التّاريخ لإدراك السّبيل المُمَكِّنِ لنيل

[1] سالم سليمان الخمّاس: المعجم وعلم الدّلالة، جدّة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، 1428هـ، ص 50.

[2] جورج يول: التّداولية، ص 196.

[3] المصدر نفسه: ص 190.

المطالب وتحقيق الوجود الفعلي في الزّمان والمكان (راجع التّاريخ)، ولعلَ الغاية الخطابية لا تتوقف عند صيغة الأمر بل تتعدّاه إلى جواب الطّلب (تعرف كيف ترتَجع البلاد) حيث يصرّح بالغاية من الأمر، وعليه يتضافر الطّلب وجوابه في إطار تداولية هذا الخطاب لبلوغ المقاصد السّامية، فيكون المخاطِب قد قدّمَ السّبب والمُسبَّبَ عنه، فيرغم مخاطَبَه على الإذعان وقبول الدّعوة دون اعتراض، وعليه يكون السّلم الحجاجي لأساليب الأمر في هذا القسم على هذا النحو.



الشّكل (28) السّلم الحجاجي لأسلوب الإنشاء في خطاب الآخر (المتّفق معه)

ولا يلبث المخاطِب أنْ يدفع الآخر عن طريق الفعل الكلامي إلى ما هو أعظم قيمةً من مراجعة التّاريخ، فيقول:

ضــمَّ موطنَك الكبير على الصّدور وجهِّزِ الرّشاشَ

أحْرقْ بالرَّصاصِ الآنَ وَجْهَ الرّاجعين إلى الوراءِ

ومُـدَّ موتا مِـــنْ ذراع[1]

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 27.

إنَّ الأنا تُعظّم الوطن وتُقدِسه في النّفس لذلك تدعو الآخر إلى تعظيمه، وتدفعه إلى حمايته من خلال أسلوب الأمر (ضمّ موطنك) وبما أنَّ مبدأ التّعاون واضح المعالم في الخطاب الشّعري فإنَّ الآخر يدرك رسالة الباثّ ويتمكّن من فك شفرات الخطاب، وقد خطّط له مُسبقا لأداء هذه الرّسالة، وهاهو ينتقل به من التّنظير (راجع التّاريخ) إلى التّجسيد باتّخاذ السبيل الأنجع (جهّز الرّشاش/ أحرقْ بالرّصاص)، فالأمر في هذه الأساليب يتضمّن المدلولات الواقعية، ويزيد عنها إلى أغراضٍ بلاغية أعمّ وأشمل؛ إنّها الدّعوة إلى الجرأة واعتماد القوّة المادية في فعل التّغيير، تصحيحا لمسار الآخر الذي يبدو أنّه فشل في بلوغ أهدافه، بما يُحيل إلى نقد الذّات والاستجابة إلى هذه الدّعوة التي تعدّ البديل الأنجع.

أمّا التّركيب الأخير (مدَّ موتا من ذراع) فإنَّه يُشعِرُ المخاطَب بقوّته، ويدفعُه إلى استعادة ثقتِه بنفسه، ذلك أنَّ الباثّ يميل إلى بناء استراتيجيته الخطابية بناء تتطوّر ملفوظاته في دلالتها بما يحمل المخاطَب على الإذعان والتّسليم (ضمّ/ جهّز الرشاش/ أحرق بالرّصاص/ مدّ موتا)، ويرتقي به من خلال الخطاب الشّعري إلى أن يصير حزمةَ مُتفجّرات أمام عدوّه، فيقول:

تحزّمِ المتفجّرات اللاّهبات تجدْهُمُ مِزقًا

ودَولتُهُمْ مَتاعْ[1]

فأسلوب الأمر (تحزّم المتفجّرات) لا يخرج عن المضامين السّابقة لكنّه يرفع من نسبة التّحدي والمخاطَرَة نظرا لقيمة لهدف، وإذا كان مدلوله الظّاهر يثير الرّهبة فإنَّ الباثّ لم يفُتْه أنْ يُغيّر دفّة الخطاب ومدلوله السّلبي حين يقدّم جواب الطّلب (تجدْهم مِزقا) الذي يتضمّن نتيجة الفعل السّابق، فالاتّكاء على الاستراتيجية السّببية يُضمن البعد الحجاجي للخطاب بناء على أنَّ النتيجة دائما إلى جنب المخاطَب.

[1] المصدر السّابق، ص 28.

2- 2 ـ حجاجية الاستفهام

الاستفهام من صيغ الإنشاء الطّلبي، وهو مصدر للفعل المزيد (استفهم) أي سعى إلى طلب الفهم، فهو «طلب حصول صورة الشيء المستفْهَم عنه في ذهن المستفهِم بإحدى أدوات الاستفهام»[1]، وهذه الأدوات إمّا حروف (الهمزة، هل) وإمّا أسماء (ما، مَن، متى، أيّان، أين، أنّى، كم، كيف، أيْ) ويكون الاستفهام لأحد غايتين؛ التّصديق أو التّصور، وغالبا ما يكون الاستفهام في الخطاب الأدبي للتّصوّر؛ أيْ التّعبير عن معان نفسية يُضمرها التّركيب.

تحاول الدّراسة في هذا الباب استجلاء الأبعاد التّداولية لأسلوب الاستفهام في خطاب الشّاعر للآخر (ابن الوطن) الذي تربطه به علاقات المصير المشترك، والكشف عن أهم الدّلالات التي يضمرها الاستفهام في الخطاب الشّعري وطاقاته الحجاجية التي تخدم رسالة الشّاعر.

يعدّ الاستفهام من أكثر الصيغ الطّلبية حضورا في قصيدة "نبوءات الجائعين" واضمارا للمعاني التي تنقل رسالة الباثّ للخطاب، وفي المقطع الثّالث منها على وجه التّحديد، وممّا يقول فيه:

مِنْ أينَ قالو عنكَ تَقتُلُهم...؟!

وفي كلِماتِكَ الخضراءِ رائحَةُ الحيَاه

مِنْ أينَ قد سحَبُوا اعترَافًا مِنكَ

أنّكَ ضد تشريعِ الإلــهْ؟![2]

[1] عبد العاطي غريب علّام: دراسات في البلاغة العربية، ط1، بنغازي، منشورات جامعة خان يونس، 1997، ص 43.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 23.

إنَّ افتتاح الخطاب الشّعري بأساليب الاستفهام يؤسِّس لطبيعة الخطاب وأطراف العملية التّواصلية، إذْ يُبرز خطاب الأنا للآخر في مطلع الشّاهد الصّراعَ الحادّ بين طرفين، فالاتّكاء على أداة الاستفهام المناسبة للمكان لا يجعل القتلَ محوَر الخطاب، بقدر ما يكون البحث عن الجهة التي تُصدر الحكمَ على المخاطَب، والمخاطِب لا يستهدف الجواب لأنّه يعلم مُسبقا براءة مخاطَبه من الحكم، بل يعبّر عن حالة الاستغراب والدّهشة لصدور هذا الحكم من أي جهة كانت، ولعلَ المخاطَب إذا كان ذا كفاءة تداولية يُدرك تنزيه المخاطِب له عن هذا الفعل (القتل) ممّا يثبت في نفسه الاعتزاز، وقد أورد الباثّ الحجّةَ التي تبرّئ مخاطَبه.

إنَّ دلالات هذا الاستفهام لا تتوقف عند الاستغراب وتبرئة المخاطَب؛ لأنَّ البلاغة الجديدة تفتح آفاق التّأويل انطلاقا من الإلمام بسياقات التّخاطب المتعدّدة، وانطلاقا من بعض العتبات النّصية ينتقل مدلول القتل من الدّلالة اللّفظية إلى دلالة جديدة يضمرها المخاطِب، إذْ يعدّ القتلُ في عرف المظلوم حياةً له، ويرفض الاصطلاح عليه بهذا اللّفظ، نظرا لتحقق مبدأ التّعاون بين الشّاعر ومخاطَبه حول هذا المفهوم، وينتقل مفهوم القتل إلى رفض مركزية الآخر، بالنّضال والتّحدي، وهو ما يُعدّه الآخر المتسلّط في خانة المُحرّمات (القتل)، والسّياق النّصي اللاحق يُبينُ عن وسيلة النّضال (كلماتك الخضراء) لتتضافر دلالة التركيبيْن؛ فترفعان من قيمة النّضال بالكلمة.

ولا يخرج الاستفهام في الشّاهد الثّاني عن معنى الاستغراب الذي يُحيل إلى رفض اتِّهام المخاطَب بمروقه عن التّشريعات التي تحْكُم الأنا والآخرَ على اختلاف مراتبهما، وبالنّظر إلى طبيعة الخطاب الذي يُعارض الآخر الحاكم، ويسعى إلى إبطال مزاعمه، فإنَّ السّياقات اللّاحقة تبرز فساد تلك التّشريعات؛ التي ترتفع بالآخر الحاكم المتسلّط إلى مراتب التّأليه؛ التي تستدعي التّسليم والخضوع.

تحدّد هذه الاستفهامات طبيعة المخاطِب الذي يقف إلى صفِّ مخاطَبِه، وتبرز نضالهما، والوسائل التي يقوم عليها النّضال ضدّ سلطة الآخر وتشريعاته، وكلُّ هذا الزّخم الدّلالي المستتر خلف لغة التّركيب الاستفهامي يتجاوز جمالية الخطاب إلى غايات حجاجية تتنوّع بحسب طبيعة عناصر العملية التّواصلية، يقول أيمون العتّوم":

مِنْ أيْنَ صارت كلمةُ الأحْرارِ خانِنَةً...

وصارَ الشّعرُ جُرْما...

والقصيدةُ قنْبُلَةْ؟

مِنْ أيْنَ صارَ الحرْفُ سفّاحا...

وصرْتَ المُشكلةْ[1]

تتعالَق دلالات الاستفهام داخلَ الخطاب الشّعري في القصيدة للاشتراك في السّياق وطبيعته المخاطَب (الآخر المستبدّ) فالاستفهام في مطلع الشّاهد يُعدُّ استفهاما إنكاريا، فظاهر التّركيب إنكار فلسفة الآخر في تصنيفه للكلمة الحرّة وللشّعر ضمنَ الأسلحة المحرَّمة والمقاومة المرفوضة، ودلالة الإنكارُ ههنا تقرُّ به البلاغة الكلاسيكية التي تركّز على الأسلوب وملفوظات تركيبه وعلاقاتها البنوية، أمّا المقاربة التّداولية في تحليل الخطاب الشّعري فلا تغفل كلَّ ما له علاقة بالعملية التّواصلية، إذْ نلحظُ تكرار أداة الاستفهام (أين) بما يُحيل إلى أنَّ التّركيز يقع على بيئة التخاطُب، فما تمَّ الاستفهام عنه يُعدُّ منْ لوازم هذه البيئة ومُقوِّماتها (كلمة الأحرار، الشعر، الحَرْف..)، فالاستفهام يتضمّن التّقرير، ونلمس فيه عاطفة الرّفض والاستغراب من التّحوُّل الحاصل حتى غدا الشّاعر والإنسان الحرُّ مشكلة

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 23.

في هذه البيئة، وعليه يبرزُ الأسلوب اتّحادَ الأنا الشّاعرة والمخاطَب الموصوف بملفوظ (الحرّ، كلمة الأحرار) ضدّ آخرَ مُعادٍ غيَّرَ الأعرافَ وأنْكَرَ الشّرائعَ، فكان جزءُ الآخر المحكوم ما تضمَّنَه آخِرُ المقطع الشّعري، الذي يقول فيه الشّاعر:

أنتَ يا وَطَني: شُعوبٌ غِرَّةٌ وَالَتْهُم سبْعِين عَامًا

ثمَّ سِيقَتْ كالخِرَافِ ذَلِيلَةً للمِقْصَلَةْ[1]

هذا الجزاء الذي يُورده الشّاعر يدفعه إلى استخدام أسلوب الاستفهام؛ الذي يعتبر تعليقا على تلك النّتيجة المخالفة لتوقّعات الأنا المحكومة؛ التي اتّصفت بموالاة الآخر الحاكم، وسارت على نهجه أزْمنةً، فيقول:

هلْ يُؤْثَمُ المَوْتَى إذا مَأتُوا

وهلْ يُجازَى على الجُوْعِ الجِيَاعْ؟!!!

هَلْ يُمْنَعونَ مِنَ الوجودِ وَيُوجَدونَ على امْتِنَاعْ؟!!

الوَاقِفونَ على الرَّدَى...والبَاصِمُونَ عَنِ اقْتِنَاعْ[2]

تُؤَوَّلُ هذه الاستفهامات على مُسْتويَيْن مختلفين (الفاعل/ المفعول به) بمراعاة السّياقات التي تُعدُّ قاعدة الخطاب الأنسب، إذْ يمكنُ أنْ تُقرّرَ علاقة الأنا الفاعل بالآخر المفعول به، كما تُتَرجمُ موقِفَ الباثِّ لهذا الخطاب وموْقفَه في هذه المعادلة، فالاستفهام الأوّل (هل يُؤثَمُ الموتى؟) يُفيد النّفي القطعي والاستحالة، ذلك أنَّ الميّتَ لم يسْتهدف الموتَ في هذا الباب (باب الموالاة) وعليه يكون الخطابُ

[1] أيمن العتّوم: ديوان نبوءات الجائعين، ص 24.

[2] المصدر نفسه: ص 24.

مُوجّها للآخر (المفعول به) فيحمل دلالة العتاب والتّوبيخ، فتنتقل دلالة الاستفهامُ إلى استفهام آخرَ مُفادُه (لماذا نموت لأجله حينَ نموت؟) كما يسْتهدف خطابُ الآخر العتاب والتّجريم، فيكون التّساؤل (لماذا تجْعلُه يموت؟) أمّا الاستفهام الثّاني في الشّاهد (هل يُجزَى على الجوع الجياع؟) فإنَّ الدّلالة الظاهرة تقبلُ التّصديق (نعم/ لا) حسبَ طبيعة الظروف، غيرَ أنَّ سياقَ التّخاطب ينفي التّصديق، ويفتح باب التّصوّر المُحيل على النّفي والاستحالة، فتكون رسالةُ المخاطِب لطرفيْ الخطاب تنبيها للمحكوم بأنْ يرفضَ الجوع لأجل جلّادِه، ورسالة عتابٍ للأنا الفاعلة يمكن فيها أنْ تتولّد استفهامات جديدة عن الاستفهام الأصل، مِنْ أهمّها (لماذا تجعله يجوع؟ لماذا لا يجازى الجائعون على جوعهم؟...) فتبرزُ بذلك الغاية الأخلاقية والإنسانية، لأنَّ التّراكيب المولَّدَة تُحيل إلى الإنكار والتّعجب.

3ـ حجاجية الإنشاء في خطاب الآخر الحاكم

3 ـ1ـ خطاب الرّفض والمساءلة

3-1 – 1– الاستفهام:

يبرز استخدام أسلوب الاستفهام في قصيدة "المتماسِك" بأبعاد خطابية تحملُ رسالة الأنا إلى الحاكم العربي الذي كمّمَ الأفواهَ وبترَ الأجنحة التي تنشدُ الحرّيةَ انطلاقا من السّياقات النّصيّة التي اشتمل عليها الخطابُ في هذه القصيدة، يقول الشّاعر بلسان الأنا الخاضعة للآخر:

وما قَــالَ يوْمًا لأيِّ وَزيرٍ بِشكْلٍ حضاري:

لماذا حِسابُكَ في البَنْكِ (جَارِي)

ومِثْلي ورَاءَ اللُّقَيْمَةِ (جَارِي)

وجُــوعِي جَارِي؟!!!

لماذَا تُبَعْثِرُ أمْوالَ شَعْبي

بِصَالاتِ لِعْبِ القِمَارِ؟!!

لماذا تَكُونُ أسَاسَ الفَسادِ

وتُعلِنُ حرْبا على أُجَرَاءِ الفَسادِ الإداري؟!![1]

يبني الشّاعر خطابَه وِفقَ استراتيجية الإيهام، إذْ يستخدم ضمير الغائب ليُسائل حاكمَه، غيرَ أنَّ واقع الأنا وطبيعة الخطاب الشّعري الانزياحي يجعلُ المتلقي الإيجابي يُدرِكُ بِيُسْرٍ أنَّ المخاطَب الحقيقي هو الأنا الشّاعرة، وقد ابتدأت مساءلة الآخر باستفهام تقريري عن مصدر أموالِه في مفارقة

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص81-82.

رهيبة بين حال الأنا وحال هذا الآخر، مساءلة تُحيل إلى النّقد اللّاذع، فالجرأةُ في المساءلة وواقعية السّؤال ترفعُ من حجاجية الخطاب، بما يؤدي إلى إفحام المخاطَب، لأنَّ نتيجة المقارنة بين الواقِعَيْن لا تحتاج إلى تأويل.

إذا كان الانسجام أحدَ الخصائص النّصيّة التي تُسهم في جلاء الدّلالات وحجاجية الخطاب، فإنَّ الأنا الشّاعرة لم تُغفل ذلك، إذْ بعد التّقرير يأتي التّفصيل في مساءلة الآخر عن مجالات إنفاق أموال الرّعيّةِ، (لماذا تُبعْثِرُ أموال شعبي؟) إذْ لا يخرجُ الاستفهام عن التّقرير، غيرَ أنّ ذِكْرَ ملفوظات (الصّالات، لعب القمار) يُخرج الدّلالة إلى الإنكار الذي يُحيل إلى التّوبيخ، ثم يُكثِّف من خطاب المساءلة في القضية ذاتِها من خلال تقرير الوقائع بما يُعينُ على إصْدار الأحكامِ المناسبة (لماذا تكونُ أساسَ الفساد؟) إذْ لا يَحْسُن السّكوتُ على هذا الاستفهام، لأنَّ جوْهر المساءلة هو تلك المفارقة التي تفضح أساليب الآخر، وتُقدِّم الدّليل على فساد حُكْمِه (لماذا تُعلِنُ الحربَ على أُجراءِ الفساد؟) إذْ يتضمّن الاستفهام التّقريري دلالات الاستغراب من المفارقة الحاصلة في التّعامل مع المفسدين إضافة إلى الإنكارِ والتّجريم المُستفاد من الاستفهامات السّابقة، ممّا يجعل المخاطَب والمتلقي يستحضران قول الشّاعر "أبي الأسود الدؤلي":

لا تنْــهَ عــنْ خُلُــقٍ وتــأْتِيَ مثلَــه عــارٌ عليكَ إذا فعلْتَ عظـــيم[1]

فالدّلالة الواقعية للاستفهام التي تُثبِتُ الحُكمَ على الآخر والاتّكاءُ على المفارقة الواقعية (في إطار السّياق النّصي) التي تتناصُ مع حكمة أبي الأسود تُعدُّ آلية حجاجية لمضامين الاستفهام الإنكاري، ويختم الشّاعر هذه المساءلة باستفهام أخير يُجسِّدُ حالة الأنا المحكومة، فيقول:

وأسألُ في عَجَبٍ

[1] أبو الأسود الدؤلي: الديوان، نفائس المخطوطات، تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط2، بغداد، مطبعة المعارف، 1964، ص 130.

كيفَ يَحْيا المواطِنُ في كلِّ هذا التَّناقُض صَلْبًا

ولَمَّـا يُصَبْ بِانْهِيَارِ[1]

يميلُ الاستفهام إلى التّقرير في ظلّ المفارقات التي تحياها الأنا، لكنَّ الدلالة الأعمقَ تُحيل إلى الافتخار وتعظيم فلسفة الأنا في مواجهة مخطّطات القهر، ثم إنَّ نزعة التّفاؤل التي يضمرها الخطاب ترفع من هِمّة الأنا في إفشال مشروع الآخر.

3-1- 2 - الأمر

تُعدُّ صيغة الأمر مِنْ أكثر الصّيغ الطّلبية الأنْسبِ لحملِ رسائل المخاطِب إلى مخاطَبِيه سواء كانت مباشرة (الاستعلاء والإلزام) أو غير مباشرة (مقاصد خطابية مضمرة)، وفي خطاب الشّاعر للآخر رسائل عدّة، تسعى الدِّراسة إلى كشف بعضها في قصيدة "**نحن من أوجاعنا لا نتألّم**" ومن ضمن ما يقول فيها:

لـــي لـــسَانٌ طَائلٌ يَحْبِسُـــني

وقَصِيدٌ مُفْصِـــحٌ لَيْس بِأَعْجَـــمْ

فاقْطَـــعوهُ، إنْ قَضَـيْتُم وامْنَـــعُوا

كَلِماتي أنْ تَرَى النُّـــورَ وتَنْعَـــمْ

هدِّدُونِي، وانْصَحُونِي، وعِظُـــونِـي

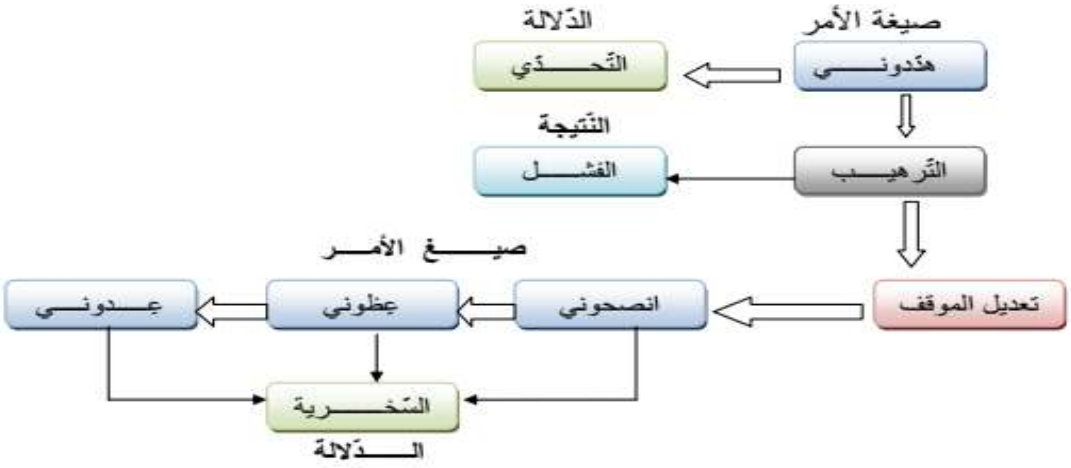
وعِـدُونِي أنَّنِي يوْمًـــا سَـــأَنْدَمْ[1]

[1] أيمن العتّوم، ديوان نبوءات الجائعين، ص82.

إنَّ أسلوبَ الأمر (فاقطعوه إنْ قضيتم) الموَجَّه إلى الأعلى سلطةً ومكانةً يُشيرُ إلى الدّلالة الحقيقة، فيحيل إلى فِعل العقاب ردًّا على فعل الأنا (لسان طائل، قصيد مفصح)، فيكون الأمر تقريريا، لكنَّ سياق الحال يُخْرِجُ الأمرَ إلى دلالات جديدة، فيكون قطع اللّسان معنويا وذلك بالسّجن والحصارِ، وذاك أيضا تقرير حال، إذْ يُكَثِّف المخاطِب من المدلول المجازي لفعل (القطع) في أسلوبٍ آخرَ (امْنَعوا كلمَاتي أنْ ترى النُّور وتَنْعم) فهو نتيجة للفعل السّابق (اقطعوا) فيحيل إلى سجن الكلمة الحرّة المُفصِحة؛ التي تهدِّدُ كيانَ الآخرِ وتُبطل مشروعَه المتسلّط، فتكون دلالة الأمر تقرير النّتيجة (اقطعوا لساني/ تمنعوا كلماتي) فالعلاقةُ السّببيةُ ذاتُ بعدٍ حجاجي يدفعُ المخاطَب إلى التّسليم بقوّة الأنا وثِقتِها في سلاحها (الكلمة).

تبرزُ نزعةُ التّحدي واضحة المعالم في الخطاب الشّعري الذي يتّخذُ أسلوب الأمر نَسَقَهُ الحاملَ لرسالة الأنا في القصيدة، فيكثِّف المخاطِبُ مِن صيغ الأمر (هدّدوني/ انصحوني/ عظوني/ عِدوني) إذْ يبرز فيها التّدرُّج في عرض هذه الأفعال من الأقوى دلالةً على التّسلّط إلى أقلِّها تسلّطا ونُزوعا إلى ليونة المعاملة، لكنَّ أبعاد هذه الأخيرة تنزعُ إلى السّخرية من أساليب الآخر في إشارةٍ إلى فشل الفعل الأول (هدّدوني) ممّا يشعرُ الآخر بالضَّعف والرّضوخ إلى سلطة الأنا، وهذا المخطط يُبرز الأبعاد التّداولية لصيغة الأمر في هذا الخطاب.

[1]أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 92-93.



الشّكل (29) الأبعاد التّداولية لأسلوب الأمر في خطاب الآخر (الحاكم)

إنَّ خطاب التّحدّي وعدم الاستسلام لسلطة الآخر أَهمُّ المقاصد المضمرة في خطاب الأنا في قصيدة "**نحن من أوجاعنا لا نتألّم**" إذْ تعتبر عتبة العنوان سياقا قبليا يؤشّر لذلك، والأنا الشّاعرة تلحُّ على هذه الدّلالة فتميل إلى استراتيجية إضعاف الآخر اتّكاء على صيغ الأمر ذات المقاصد السّاخرة المُوهنة لقوة الآخر، المثبّطة لعزائمه.

3ـ 1ـ 3ـ النّداء

هو طلب «الإقبال حقيقة أو حُكمًا، فالأوّل نحو: يا فلان، والآخر نحو: يا جبال أَوِّبي معه»[1]، فالأمر من الأساليب الطّلبية التي تستوجب الإستعلاء والإلزام إذا قُصد بالصّيغة النّداء الحقيقي، لكنّه يخرج إلى مقاصِدَ كثيرةٍ يُحدِّدُها سياق التّخاطب، وبعيدا عن لفت انتباه المخاطَب يخرج النّداء إلى التّحقير أو التّعظيم وغيرهما.

لا يميل الشّاعر في خطاب الآخر إلى استخدام صيغة النّداء بوجه بارزٍ نظرا لمحدودية المقاصد التي يضمرها أسلوب النّداء، لأنَّ مدلوله مرتبط بطبيعة الخطاب الدي يلي أسلوب النّداء، أيْ أنَّ النّداء

[1] عبد العزيز قلقيلة: البلاغة الاصطلاحية، ط3، القاهرة، دار الفكر العربي، 1992، ص 181.

لا يكون مقصودَ الخطاب في ذاته في كثير من السّياقات بقدر ما يُعدُّ بنيةً نسقية ومؤشرا سياقيا يُعين على فهم الخطاب، ومن نماذج خطاب الآخر الذي يتّكئ على أسلوب النّداء ما ورد في المقطع الأخير من قصيدة "**نبوءات الجائعين**" إذْ يقول أيمن العتّوم:

يا أيُّها الجُلساءُ في قاعاتِ قرطُبَةٍ ورُومَا وَالخَليجِ

وَدُورِ آخِرِ ساعَةٍ في اللَّيْلِ

قبلَ الصّفْرِ مِنْ هَدْمِ القِلاعْ[1]

إنَّ المنادى في الشّاهد ـ نحويا ـ هو لفظ (أيُّ) بينما يشكّل ملفوظ (الجلساء) البدل وهو المقصود بالنّداء في الخطاب، ومن زاوية المقاربة التّداولية نجد الشّاعر يوجّه نداءَه إلى منادى لم يشأْ أنْ يذْكرَه باسمه الحقيقي، فكنّى عنه بلازمٍ من لوازم تموضُعِه في المكان (قرطبة، روما، الخليج) وهي ملفوظات تُحيل إلى المؤتمرات واللّقاءات التي يُدعى إليها الزّعماء والحكّام ويحضرونها، هذا الإخفاء يضمر مدلول التّحقير، لأنَّ هؤلاء لا يُحسب لهم إلا الزّيارات والسّهر إلى ساعات متأخّرة من اللّيل.

وإذا كانت حقيقة المُنادى في أسلوب النّداء تظهر غالبا في الرّسالة المُوجّهة إليه؛ فإنَّ الشّاعر استخدم في خطابِه لهذا الآخر ملفوظاتٍ كثيرةً تُحيل إلى طبيعته، فقدّمَه إلى المتلقي مُكْتَمَلَ الوصف (الجلساء، دور آخر ساعة، قبل الصّفر، هدم القلاع)، هذه الملفوظات التي تُقرِّر حقيقة المخاطَب تُجلي الأبعاد التي يرمي إليها المخاطِبُ مِنْ تقريع وتحقير، ازدراء وتذمّر، إذْ تتجلّى حجاجية النّداء في تحديد المنادى بالتّقرير الواصف مع إثبات الدّليل (قبل الصّفر مِن هدم القلاع)، وهو كفيل ببلوغ المقاصد التي من أجلها أُنتِج هذا الخطاب، لأنّه يُحمِّل حكام العرب انهيار قلاع الأمّة واقعيا وقيميا، ممّا يبعث على الحسرة والتّوبيخ، فيقع الخطاب موقعا حسنا من ذهن المتلقي.

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 26.

3 ـ 2 ـ نداء الآخر وخطاب التّهكّم

يكشف أسلوب النّداء في قصيدة "مشاعر في هوى الأردن" حقيقة الآخر وفلسفته في سياسة الآخر(الرّعية) دون أنْ يُصرّحَ بحقيقته على غرار معظم خطاباته في قصائد ديوان "**نبوءات الجائعين**" بل يميل إلى استخدام الوصف الذي يُبيّن علاقتَه بالأنا، فيقول:

يا سارِحًا بجيوش النّمِــل في وطَنِــي

قدْ كُنْــتَ أَرْأَف فــينَا مِنْ (سُليــمان)[1]

وردَ المنادى اسمَ فاعل نكرة مُوَضّحا بالاسم المجرور في تركيب انزياحي يُبرزُ طبيعة المخاطَب وسلطَتَه الفاعلة في سياسة الآخر، إذْ يُؤشّرُ أسلوب النّداء على العلاقة بين اسم الفاعل والاسم المجرور، فتتجلي دلالة المنادى وفق العلاقة النّحوية (فاعل/ مجرور) هذا المنادى الذي يحتقر رعيَّتَه ويعتبرهم كالنّمل، فيُحْكِمُ قبضَتَه في سياستهم، إذْ يُحاصرهم ويحدُّ مِن حريتهم، فيحيوا حياة النّمل في الجحور، ويبرزُ التّهكّم جليا في تفصيل حقيقة هذا (الآخر) الرّاعي بأسلوبٍ مجازي يعتمد على التّمثيل والتّناص (كنتَ أرأفَ فينا من سليمان) بما يؤشّر إلى قصّة النّبي سليمان وجيشه مع مجتمع النّمل لكنْ بتحويل الدّلالة من الرّأفة إلى الاستعباد والإذلال، وهو تهكّم وسخرية تبرز المفارقة بين دوْر الحاكم العربي اليوم وسياسة النّبي سليمان قديما، وبالموازنة تتجلّى حجاجية المضامين، فيحقّق الخطاب غاياته التّواصلية.

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 47.

4. حجاجية الأساليب الإنشائية في خطاب الآخر المختلف(الأجنبي)

4- 1- النّداء

تعدُّ قصيدة "**دمانا عند ربّ العرش أغلى**" من القصائد القليلة التي يُصرّح فيها الشّاعر بالآخر المختلف في ديوان "**نبوءات الجائعين**" ذلك أنَّ سياق المقام (السّجن) يؤطّر لمعظم خطاباته، لذلك يعدّ خطاب (أمريكا) استثناء؛ يستوجب التّصريح به نظرا لموقع هذا المخاطَب من قضية الأنا (الخاصة والعامة) واختلاف الرّسائل المبثوثة في ثنايا الخطاب عن غيرها الموجّهة للآخر العربي، يقول أيمن العتّوم:

دِمــانا فــي المــزادِ فَسَاومِــينا

وصُبِّــي الكَأسَ مِنْــها واشْرَبِينا[1]

لا يبرز المخاطَب في أسلوب الأمر (ساومينا) لإغراء المتلقي على السّعي لمعرفة هذا الذي يتقدّم إلى هذا العرض (مساومة الدّماء)، وما يَشدُّ الانتباه في التّركيب هو كسر أُفق التّلقي، لأنَّ عروض التّجارة وما له علاقة بها وحْدَه الذي يقبل دعوة المخاطِب، وهو ما يُحيل إلى استنكار الفعل، فيدفع إلى التّساؤل عن دواعي ذلك الأمر، فالخطاب حسب "**ميشال ماييز**" عبارة عن تساؤل يفترض إجابة، وفي بناء هذه التّساؤلات يَعْمَدُ المتلقي إلى استحضار ما تختزنُه الذاكرة في باب المبادلات التّجارية، ويُسْقطُه على العرض المجازي في هذا الخطاب (الدماء)، فترتفع الغاية وتتحدّد طبيعة المخاطَب؛ الذي يكشف عنه أسلوب الأمر في السّطر اللّاحق (وصُبِّي الكأس/ اِشربِينا)، وهو ما يحدّد زاوية التّأويل العام، لذلك فهذه الدّعوة مرفوضةٌ أخلاقيا وعقديا وإنسانيا، وإذا كان الأمرُ يخرجُ إلى مقاصد عدّة، فإنَّ العتبةَ الأولى للنّص تُوجّه الخطابَ وتُعين على التّأويل، لذلك فإنَّ الشّعور بالانكسار والهوان

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 77.

أحدُ الدّلالات التي يُضمرها أسلوب الأمر في مطلع القصيدة، ولعلَ أسلوب الشّرط اللّاحق يدافع عن هذا الطّرح في قول الشّاعر:

إذا مـا جئْـتِ حتى تشْـتـــرِينا

فيَا (أمريكيا) كَـــمْ تَدْفَعــينَا؟![1]

يحدّدُ الشّاهد أطراف التخاطب وطبيعة كلٍّ منهما فتظهر المفارقة بين الأنا (الجمعي) المخاطِب والآخر (أمريكا)، وإذْ يتحوّلُ البائعُ إلى سلعةٍ يقعُ التّفاوض حول ثمنها تظهر حقيقة المفارقة، فيبعث التّركيب الانزياحي على تذمّر المتلقي وانحيازه إلى المحتقر المستضْعَف، وهو ما يعتبر آلية حجاجية (الاستعطاف غير المباشر)، ويكثّف المخاطِب من هذه المفارقة الفاضحة لمنهج الآخر وسلطتِه المركزية، فيقول:

ضَعِـي ثَمَــنا كـما قَدْ شِئتِ بَخْسًا

وكُونِـي فِــي عِدَاد الــزّاهِديــنَا[2]

يميل أسلوب الأمر في الشّاهد إلى التّقرير، بما يؤشّر إلى المألوف والنّهج الثّابت للآخر في تعامله مع الأنا (قد شِئتِ/ بخسا) وهذه الدّعوة المُتجدّدَةُ التي تفضح سياسة الآخر تبعث على السّخط، فهي تترجم حالة الهوان وهامشية الأنا في منظومة الآخر، إذْ يُكَثّف المخاطِب من هذه الدّلالات في أسلوب طلبي يميل إلى التّقرير السّاخر (كوني في عِداد الزّاهدينا)، فتتضافر الصّيغتان في تحديد طبيعة طرفيْ التّخاطب، وإبراز المفارقة بين المركز والهامش، وحينئذٍ تكتمل صورة المعنى في ذهن المتلقي، فيطمئن إلى الدّلالات المضمرة، فتحقّق الكفاءة التّداولية للمرسِل حجاجيةَ الخطاب الإقناعي.

---

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص77.

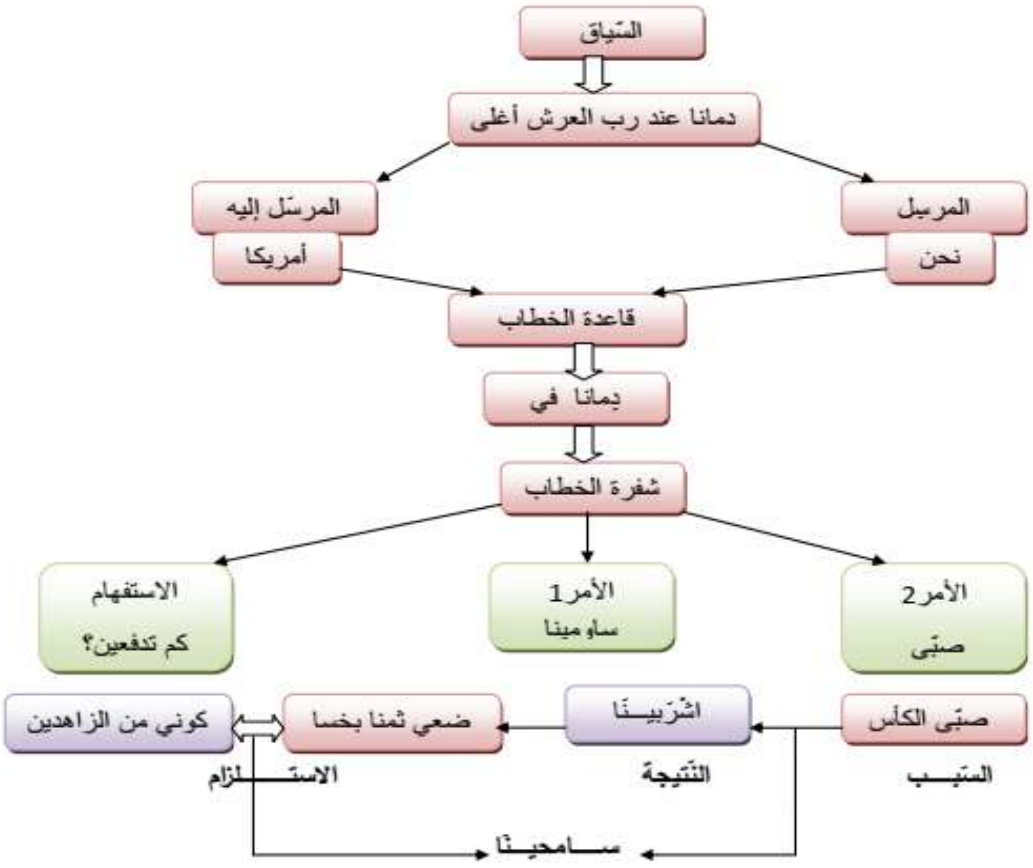
[2] المصدر نفسه، ص نفسها.

إنَّ الكفاءة التّداولية في خطاب الأنا قد اتّكأت على استراتيجية بناء الاستدلال لبلوغ المقاصد الدّلالية، إذْ يُورد المخاطِب نتيجة دعوته إلى الآخر في قول الشّاعر:

فإنّـــا أمَّـــةٌ وسَـــطٌ ولَسْـــنا

نُريدُ سِـــوى رِضَـــاكِ فسَـــامحينَا[1]

إذْ يُشكّلُ أسلوب الأمر في الشّاهد الغاية من الخطابات السّابقة التي تحمل دعوة إلى الفعل المجازي بإحالاته المضمرة، فتكون النّتيجة دلالةً مجازية مضمَرةً تُلخّص وَضْعَ الأنا ومَوْقع الآخر، فتزداد الهُوّة اتّساعا؛ تُشخّصُ مأساة الأنا، إذْ يمكن تجسيد العملية التّواصلية في هذا المخطط .



الشّكل (30) البنية الحجاجية لأسلوب الأمر في خطاب الآخر المختلف (الأجنبي)

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 77.

4- 2 - الاستفهام

تتضافر بِنياتُ الخطاب وتنتظم في علاقات داخل نسيج النّص لتحقيق البعد التّواصلي من كلِّ عملية تخاطبية، إذْ نجدُ أساليبَ الاستفهام تُعين على فهم مقاصد الخطاب الذي يتّكئ على أسلوب الأمر في قصيدة "**دمانا عند ربّ العرش أغلى**" حيث يقول أيمن العتّوم:

فيَا لَلْحـــزْنِ مَــاذا قَدْ تُســـاوِي

دِمَـــــانا مِنْ دِمـــاءِ الكافِرِينَا؟!![1]

إنَّ اتّكاء أسلوب الاستفهام في الشّاهد على النّداء الذي يفيد التّحسّر يُعدُّ نسقا مُوجِّها للدّلالة، يضع المتلقي أمام حالة نفسية قدْ تدْفعه إلى المغامرة في فك شِفْراتها من خلال أسلوب الاستفهام اللّاحق؛ الذي يتضمّن أهمَّ مؤشرات الحالة النّفسية (التّحسّر)، لأنّه يتناول المفارقة بين دماء الأنا وما يُقابلها عند الآخر، فالسّياقات السّابقة تؤشّر لأسباب هذه المفارقة، وقد تمّت الإشارة إليها في باب حجاجية الأساليب الخبرية، ممّا يحققّ انسجام الخطاب النّصي، وإذا كانت حالةُ الانفعال المصاحبة لعملية الإبداع تدفع الأنا إلى الاضطراب والتّشكيك فإنَّ حالة التّوازن النّفسي تبرز بعد استرجاع الأنا الشّاعرة للثّقةِ، وتجاوز حالة الانكسار، وهو ما نلحظه في الخطابات اللّاحقة، ويمكن الاستدلال عليها بقول الشّاعر:

دِمَـانا عندَ رَبِّ العرْشِ أَغْـــلى

وَإِنْ هـــانَتْ عَلـى المُتآمِـــرينَا

بِلادِي لِلْيَهُـــودِ لَظى جَحِـــــيمٍ

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 79.

ونَأْنَـــفُ مِثْلَـــهُمْ أنْ يَخْدمـــونَا[1]

أُوردَت هذه الأساليب الخبرية وهي ليست موضوع الدّراسة ههنا لتكون مفتاحا معينا على تّأويل مقاصد الاستفهامات التي تليها مباشرة حيث يقول:

أَنَأْمَنُـــهُمْ وهُـمْ أَحْـــفَادُ غَـــدْرٍ

ومَنْ مـــــكَروا بِقَتْلِ المُرْســـلِينَا

فَكيْفَ نَـــمُدُّ أَيْـــدِينَا إِلَيْـــــهم

وَنَـــرْضَـــخُ لِلـــوُلَّاةِ الخَـــائِنِينَا؟!![2]

يخرج الاستفهام (أنأْمَنُهم؟) إلى النّفي والاستحالة استنادا إلى الجملة الواصفة للآخر المذكورة بعد الاستفهام، وانطلاقا من السّياقات القبلية التي تُقرِّرُ حقيقة الآخر، إذْ إنَّ إيراد الدّليل القاطع على صِدق ما يتضمّنه أسلوب الاستفهام المجازي يعدُّ آليةً حجاجية تبعثُ على التّسليم بالمقاصد الضّمنية، ويمكن الرّبط بين الأسلوب الطّلبي والجملة الخبرية بالرّابط المنطقي (لام التّعليل) فيتحدَّدُ البُعْدُ التّداولي للاستفهام من خلال إصدر الحكم وتعليله، فالحُكم (لا نأْمنُهم) والعلّة الأولى (همْ أحْفاد غدْرٍ)، أمّا العلّة الأخرى (غدروا بقتل المرْسَلين) وبناء على إيراد الحكم المُعَلَّل تَطْرَحُ الأنا تساؤلاتٍ مجازية جديدة ذات أبعاد توجيهيّة؛ ترفضُ مشروع الآخر حاضرا ومستقبلا.

إنَّ الإلمام بكلِّ ما لهُ علاقة بعملية التّواصل في هذا الخطاب الشّعري يدفعُ المتلقي إلى تجاوز البنى النّسقية للاستفهام (كيف نمُدُّ أيْدينا إليهم) الذي يتضمّنُ تقرير حقيقة واقعةٍ؛ هي ما يُدعى مفاوضات السّلام مع الآخر (اليّهود)، فاستحضار هذه الحقائق يستفِزُّ المتلقي؛ الذي يُدركُ نتائجَ تنازلِ

[1] أيمن العتّوم: نوءات الجائعين، ص 79.

[2] المصدر نفسه، ص 79-80.

الأنا ومدِّ يدِها إلى الآخر، ويذهبُ المخاطَب في إنكاره لهذا الفعل إلى إنكار القيام به مع الأنا الحاكمة؛ التي يحدّدُ طبيعتها من خلال ملفوظ (الخائنين) في إشارة إلى مَنْ تنازل مِنْ حكّام العرب عن قضيته واتّجَه إلى التّطبيع مع الآخر (الأمريكي، المحتل الصهيوني)، فيكون الاستفهام في شِقَّيْه رفضًا وإنْكارا، وتوجيها وكشفا للقناع، فانفتاح الأسلوب على هذه الدّلالات وأبعادها على أطراف العملية التّواصلية مرهون بتوفر مبادئ الخطاب من تعاونٍ وصدقٍ وتأدُّبٍ.

ملخص المبحث الثاني

إنَّ التّركيز على دراسة الأبعاد التّداولية والحجاجية للأسلوب الإنشائي الطّلبي يعود إلى قدرة هذه الأساليب على تجاوز المعنى الظاهر إلى مضمرات قول مستتر خلف صيغ الاستفهام، الأمر، النّداء، النّهي والتّمني، لأنَّ مدلولاتها تتأخّرُ عن ملفوظاتها، وإذا كان الخطاب الأدبي يتجاوز الخطاب العادي بطاقاته التّخييلية وأبعاده الدّلالية وآلياته التّعبيرية فإنَّ تلك الصّيغ تعدُّ أحدَ أهمّ الآليات التّعبيرية الطّافحة بشعريتها وحجاجيتها وبُعد مقاصدها، وتقترح المقاربة التّداولية مراعاة مختلف السّياقات المرتبطة بالعملية التّواصلية والإلمام بطبيعة الفاعلين فيها وخصوصياتهم أثناء التّأويل لتحقيق الكفاءة التّواصلية واستلزام البعد الحواري من الخطاب.

وقد سعتِ الدّراسة إلى البحث في الأبعاد التّداولية والحجاجية للأساليب الإنشائية الطّلبية في خطاب الآخر (ابن الوطن، الحاكم العربي، الأجنبي)، إذْ أبانت الأساليب المدروسة (الأمر، الاستفهام) في خطاب الشّاعر للآخر (ابن الوطن) عن عدم رضا الأنا الشّاعرة عن مخاطَبِها المستضْعف وإنكارِها لاستسلامه وتسليمه بالضّعف والعجز، فاتّجه الخطاب إلى تقرير الحقائق بلغة شعرية طافحة بحجاجيتها لإثبات الوقائع وتقرير الأحكام، فوَضع المِشرط على جراح الآخر لإحياء موات الإحساس بالذّل والاستعباد، وتدرَّج في عرض رسائل الخطاب المختلفة؛ ومنها خطاب التّحفيز لاسترجاع الثّقة بالنّفس ثم بث الأمل إيمانا بالمستقبل، وبرسالة المخاطِب للانخراط في مشروع التّغيير.

تنوّعت استراتيجيات الخطاب بحسب طبيعة المخاطَب والقضيّة المتحاور فيها في كلّ قصيدة، ومِن تلك الاستراتيجيات نذكر استراتيجية التّمثيل كآلية للحجاج لكونها ذات صلة بالمقارنة بين المُمَثَّل به والمُمَثّل له، واستراتيجية السّخرية التي تستفزُّ الذّهن فتكون بمثابة المثير لطلب ردّ الفعل وتغيير المواقف، إضافة إلى استراتيجية التّدرّج في إلقاء رسالة التّغيير مراعاة لوضع المخاطَب، وإدراكا لأهمية التّدرّج في التّغيير الهادف، فتضافرت تلك الاستراتيجيات بآلياتها المختلفة تحقيقا لرسالة المخاطِب ذات الأبعاد الإصلاحية المحاجّة.

أمّا خطاب الشّاعر للآخر (الحاكم) فقد خرج إلى تقرير الوقائع والتّفصيل في عرْضها وتقديم الصّورة التي ترتسِمُ في خلفية الأنا الجمعي عن الحاكم العربي بطريقة فنّيّة تُجلي معاناة الأنا المحكومة مستخدما الأساليب الإنشائية الطّلبية التي تجاوزت مستوى الدّلالة اللّغوية السّطحية، فاتّجه الخطاب إلى كشف القناع عن الآخر، ومساءلته عن سياسته وفلسفته في إدارة شؤون الأنا، فحمل الخطاب رسائلَ التّحدّي والتّهديد، اتّكاءً على استراتيجيات خطابية أهمّها: التّهكم والسّخرية من الآليات والطاقات التي يستخدمها في إذلال الأنا وإضعاف قوّتها، فاتّكأتِ هذه الاستراتيجية على آلية التّقابل بين فعل الآخر وردّ فعل الأنا، بما يُحيل إلى الاستلزام الحواري الكاشفِ عن المفارقة بين الأنا والآخر، كما استخدم استراتيجية الإيهام من خلال التّعبير بضمير الغائب في مخاتلة الآخر لغايات مختلفة.

وقد توجّه الشّاعر إلى خطاب الآخر الأجنبي في قصيدة واحدة "دمانا عند ربّ العرش أغلى" مُصرِحا بلفظ المخاطَب، مُستخدِما الأساليب الإنشائية (الأمر، الاستفهام) حيث تتجاوز مدلولاتها تركيبها اللّغوي إلى تقرير أفعال الآخر؛ التي ترفُضها التشريعات والشّرائع من خلال ممارسة الهيمنة على الأنظمة العربية، ودفعها إلى تنفيذ سياسيته على رعيّتِها، ثم انحيازه إلى حليفه (اليهود) ممّا يُعمِّق الفجوة بين الأنا والآخر، ويُبرِز عمق الصّراع بين المركزي والهامشي، فتلوَّنَ الخطاب بصبغة الرّفض الصّارخ، وتوعّد الآخر بالعقاب.

لقد استند الأسلوب الإنشائي على استراتيجية بناء الاستدلال لإقناع المتلقي بمضامين الخطاب، وتوظيف أسلوب المفارقة وعرض أسبابها، إضافة إلى عرض الأحكام وتعليلها من خلال تضافر الأسلوب الإنشائي والأسلوب الخبري أداءً لرسالة الشّاعر وأبعاد خطابِه الحجاجية سواء لإقناع المتلقي توجيها وتصحيحا لمساره، أو إفحاما للآخر ودفعه إلى الإذعان وتغيير فلسفته مع الأنا العربي.

المبحث الثالث: حجاجية المفارقة في خطاب الآخر

1 ـ المفارقة

المفارقة آلية أسلوبية بارزة في الشّعر العربي المعاصر، ترى "**سيزا قاسم**" بأنّها: «شكلٌ من الأشكال البلاغية التي تشبه الاستعارة في ثنائية الدّلالة»[1]، وهو ما تذهب إليه "**نبيلة إبراهيم**" في كون هذا التّعبير البلاغي ينطلق من إدراك العلاقة الذّهنية بين البينات المشكّلة للخطاب، لذلك فإنَّ منْشأها الأوّل هو الذّهن الواعي بما يحيط بالذّات[2]، والباحث في التّراث البلاغي العربي سيكتشف الجذور البلاغية الأولى للمفارقة، وقد كان الاهتمام ينصبُّ فيها على لونٍ من التّصوير البديعي القائم على مبدأ التّضاد والتّقابل؛ من خلال الجمع بين المتضادات اللّفظية في الكلام، وإنْ لم يستعمل القدماء مصطلح المفارقة فإنّ دلالاتها بارزة من خلال الحديث عن التّضاد وافتراق المدلول اللّفظي عن المقاصد المستترة وراء اللّغة، كاستخدام المدح بما يشيه الذّم.

وقد تأسّست المفارقة عند الغربيين على المفاهيم الفلسفية منذ أرسطو، وتمّ تناولها حديثا بالدّراسة والنّقد، الأمر الذي جعلها أحد مكونات الأعمال الفنّية وخاصة الأدبية منها، ويذهب "**فلايشر**" (Fleisher) و**ميشيل** (Michel) إلى أنَّ المفارقة «نوع من الدّلالة المحوّلة في مقابل الدّلالة الأوليّة، إنّها تصويرٌ آخرُ للمعنى يُومِئُ إلى المعنى العكسي Gegenbedeutung»[3].

---

[1] سيزا قاسم: المفارقة في القص العربي المعاصر، مصر، فصول مجلة النقد الأدبي، مج2، ع2، الهيئة المصرية للكتاب، يناير فبراير مارس 1982، ص 143.

[2] نبيلة إبراهيم: المفارقة، مصر، فصول مجلة النّقد الأدبي، مج 07، ع 04/03، الهيئة المصرية للكتاب، سبتمبر 1987م، ص 132.

[3] محمد العبد: المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة، ط1، مصر، دار الفكر العربي، مطبعة الأمانة، جزيرة بدران، 1994، ص16.

وقد تطورَ مفهومُ المفارقة حتى غدت في الدراسات الحداثية «خروجا عن دائرة المألوف، تمثّلُ رؤيةً معينةً للعالَم قبل أنْ تكونَ أسلوبا أدبيا أو لعبة لغوية، وهي تهدفُ إلى هدْم الثّوابت واختراق العادي والمتوقَع، والجمع بين المتناقضات والمتضادات»[1]، فهي مِنْ أنسب الوسائل التّشكيلية لإجلاء رؤيا المبدعين والأدباء للعالَم والكون والأشياء، والمفارقة نوعان؛ لفظية وسياقية، ولكلّ نوع استراتيجياته الخاصّة.

2 ـ المفارقة في خطاب الآخر

2ـ 1ـ خطاب الآخر (ابن الوطن)

تحدّد السياقات المقامية المرتبطة بالخطاب الشّعري في ديوان "نبوءات الجائعين" الوضعَ الذي تعيشه الأنا الشّاعرة في السّجن، بينما تُبين السّياقات المقالية مواقفَ الآخر (ابن الوطن) المتباينة تجاه تعرّض الأنا للسّجن بسبب مواقفها النّضالية المعارضة للاستبداد السّياسي، ورفضها للنّهج الذي تُدار به الملفّات الاجتماعية والاقتصادية والثّقافية محلّيا، لذلك مالتْ الأنا الشّاعرة في كثير من الخطابات الشّعرية إلى استخدام أسلوب المفارقة لقدْرته على حمْلِ المقاصد الكلامية والتّواصليّة المختلفة، نظرا لتنوّع وسائلِها وتعدّد مقاصدها، وقدرتها على المحاجّة.

[1] ربابعة موسى: المتوقع واللامتوقع. دراسة في جمالية التلقي، الأردن، جامعة اليرموك، مجلة أبحاث اليرموك سلسلة الآداب واللّغات، مج 15، ع 02، 1997م، ص 27.

2ـ 1. 1ـ المفارقة اللّفظية: *Verbal Irony* :

و تعتمد هذه المفارقة في بعض صورها على« جملة من الحقول الدّلالية التي تقدّم مدلولا حرفيا قاصدةً به مدلولا مناقضا»[1]، فهي بذلك تتّخذ بعض أشكال التعبير الذي يُساق فيه معنى ما، لكنَّ المقصود غالبا ما يأتي مخالفا له، ممّا يستدعي البحث في البنية العميقة عن المعنى المستتر وراء البنية السّطحية، ولأنّ اللّغة حاملة المعنى سواء في الصّورة الظاهرة أو فيما تضمره من مقاصد انطلاقا من مراعاة سياق الخطاب المختلفة، فإنَّ الأنا الشّاعرة التي خَبِرت الظّروف واكتسبت تجربتها الفذّة في علاقاتها مع مختلف الأطراف التي لها علاقة بالوضع الذي تحياه الأنا قد أدركت ما تتطلبه المواقف المختلفة من خطابات تحتاج إلى استراتيجيات خطابية تتواءم وطبيعة المخاطَب ومواقفه، ومن هذه الاستراتيجيات نذكر:

2ـ 1ـ 1ـ 1ـ التضاد

يكثرُ في كلام العرب الاتّكاءُ على أسلوب التّضاد وعيا منهم بقدرته على حصر المقاصد البلاغية وتأكيد الأحكام المتضمّنة في القول، فقد نطقوا بأهميّة الضّد في إبراز الضّد، ويشيع في العصر الحديث استخدام التّضاد في المفارقة، و تقوم هذه المفارقة على الجمع بين الألفاظ المتنافرة في الدّلالة اللّغوية، وتدعى أيضا (مفارقة التّجاور)، وإذا كان علم البديع في البلاغة العربية القديمة قد احتفى بالتّضاد يقينا بدوره في تحسين الكلام، وعنيت به الدّراساتُ الأسلوبية كخصيصة بنائية لها قيمتها على مستوى الأداء الصوتي والمعنوي، فإنَّ المقاربة التّداولية تدعِّم هذه الآلية وتعتبرها من آليات الحجاج، ذلك أنَّ تجاورَ الملفوظات المتضادَّة يعمل على استقطابِ الذّهنِ المتلقي للخطاب،

[1] إبراهيم محمد أحمد الشاذلي: المفارقة اللّفظية والمفارقة التّصويرية في شعر ابن سناء الملك (دراسة أسلوبية) جامعة المنوفية بمصر، مجلة بحوث كلية الآداب، مج 32، ع 124، 2021، ص 04.

ويدفعه إلى التّعلق بالتّركيب المفارق سعيا إلى إدراك مقاصده المضمرة، ومن الخطابات التي اتّكأت على استراتيجية التّضاد نذكر قصيدة "لنا صبحٌ نؤمّله" التي ما يقول فيها:

يا أمَّ أيــمنَ لا شكْـــــوى تُرَدِّيـــنَا

إلا إلـــى الله؛ إنَّ اللهَ يحْمِيـنا

نموتُ مِنْ أَجْلِ أنْ تَحــيا عَقيدَتُـــنا

ولا نَـــذِلُّ لِجَبّارٍ وطَـــاغِيـــنَا[1]

يوجّه الشّاعر الخطابَ في مطلع القصيدةِ إلى "أمّ أيمن" ومِنْ خلالها إلى شعْبه، وإذا كان الشّاهد يستخدمُ الثّنائيةَ الضّديةَ (نموت/ نحيا) ليبرزَ الصّراع بين الأنا والآخر (جبار/ طاغينا) فإنَّ البعدَ التّداولي للمفارقة الضّدية يتجلى في ثنائية الافتراق بين الضّمائر التي تؤدي الفعل (نموت/ تحيا)؛ وهي بدورها استراتيجية أخرى للمفارقة (مفارقة الحضور والغياب)، وهو ما يسْترعي عناية المخاطَب لدخول طرفٍ ثالث في مجال الصّراع (الأنا/ الآخر/ العقيدة).

إنَّ التّفاعل المفارق بالأضداد في الفعل وبين الضمائر في إطار السّياق يدفع المتلقي إلى إدراك أبعاد العلاقة بين الأطراف الفاعلة في العملية التّواصلية (الأنا وَالآخر) وغير الفاعلة (هي/ العقيدة) يحقّق رسالةَ المخاطِب بسلاسة لغوية؛ تضمن شعريةَ الخطاب، وتُجلي الغاية الحجاجية التي مِن أجلها أُستخدِمَ أُسلوبُ التّضاد.

وإذا كانت بِنيةُ التّضاد في الخطابات التي تتضمّن صراعا قيْمِيا من أبرز البنيات الأسلوبية الأنسب لهذا النّوع من الخطابات؛ فإنّها في الغالب تجمع بين الملفوظات المتضادّة دلاليا؛ والتي تضمرُ

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص11.

مشاعرَ إنسانية رافضة لما يُحيلُ إليه اللّفظ المفارقُ، ممّا يجعل التّقابلَ بين المواقف وردود الفعلِ سِمةً بارزةً في هذه الاستراتيجية، يقول "أيمن العتّوم":

أُحبُّهُـــمْ ما أَساؤوا لسْتُ أكْرَهُـــهم

وَهــلْ أَكْرَهُ مِنْ شعْبِي المَساكـــينَا؟![1]

تُبينُ الأنا الشّاعرةُ عنْ موقفِها من الآخر (ابن الوطن) من خلال الملفوظات (أحبُّ/ لست أكره)، وإنْ كانت الدّلالة واحدةً على مستوى اللّفظ فإنَّ استخدام التّضاد يعدُّ سمةً بارزة (أحب/ أكره) تسْتوقفُ المخاطَب، وتسترعي اهتمامه، ذلك أنَّ التّضاد كبنية صوتية مفارقة يحظى برعاية جهاز السّمع، فيكون آليةً حجاجيةً إنْ على مستوى الصّوت، وإنْ على مستوى الدّلالة؛ من حيثُ التّأكيد على الموقف، فمتلقي هذا التّركيب سواء عُدَّ مِن ضِمن المُعبَّر عنهم بضمير الغائب أو كان على نهج الأنا؛ فإنّه مدعو لإبراز موقفه من مضمون الخطاب، ذلك أنَّ البعدَ التّواصلي يتجاوز التّقرير إلى دفع المخاطَب إلى تعديل موقفه، واكتشاف نهج الأنا في صراعها مع الآخر، الذي يعتبَرُ المعارضَ الحقيقي المُوحِّد للأنا، وهذا المقصود بالخطاب (أُحبّهم ...) وعليه تكونُ رسالة الباثّ هي الدّعوة إلى الوحدة واستشراف المستقبل، فيستخدم المفترقان(أنا/ هم) على الرغم من الدلالة السّلبية للفعل (أساء)، وذلك لوجود العنصر الجامع (شعبي المسكين)، وهذا التّضاد من جهة والاتّحاد من جهة أخرى، يعدّان استراتيجية تحقّق الغاية من الخطاب التّواصلي لوجود العلّة التي تُلغي المفارقة بينَ الأنا والغير.

[1] المصدر السابق: ص12.

2- 1- 1- 2- مفارقة التّهكم

يعتبر التّهكم أحدَ الآليات التي تدخل ضمن أسلوب المفارقة، بل كان التّهكم مُعادلا لمفهوم المفارقة؛ الذي لم يُعرَف قديما في البلاغة العربية، إذْ «يعدُّ عامل التّهكم والهُزْء والسّخرية من العوامل المهمّة التي تؤدي إلى قلب المعنى وتغيير الدّلالة إلى ضدّها في كثير من الأحيان»[1]، فاستراتيجة التّهكم تقوم على خرق توقّع المتلقي، فيُورِدُ الباثُّ القولَ المتضمّنَ لما يُخالف المقام فيفترِقُ المقام والمقال، ويبعثُ ذلك على استفزاز ذهن المتلقي سعيا لفكِّ شفرات هذا الافتراق للوصول إلى مقاصد الخطاب، وفي قصيدة "**نبوءات الجائعين**" يوجّه الشّاعر خطابَه إلى الآخر المستضعَف الذي تُنتَهك حقوقُه، وحين يرفضُ أو ينتقدُ يُتَّهَم بالخيانة والإرهاب، يقول "أيمن العتّوم" في المقطع الثّالث:

مِنْ أَيْنَ قالُوا عَنْكَ تَقْتُلُـــهم...؟!

وفِي كَلِماتِكَ الخضْراء رائِحَةُ الحيـــاةْ[2]

إنَّ اتّهامَ الأنا التي تُدافع عن كيانِها وحرِّيتها باستخدام الكلمة لا يُعدُّ في المنظومة التّشريعية فعْلُ قَتلٍ أوْ جُرْما يُعاقَبُ عليه، فمتلقي الخطاب يتوقّعُ من خلال ملفوظ (تقتلهم) ذِكْرَ الوسائل التي تؤدي إلى هذا الفعل، غيرَ أنَّ الشّاعر يُورِدُ ما يُخالف التّوقع، فيذكرُ ملفوظ (الكلمات الخضراء) فيستغِلُّ خاصّية امتلاء هذا الملفوظ بالدّلالة الإيجابية لِيُضفي على التّركيب تهكّمًا من سياسة الآخر المُتسلّط، يُسْهم في رسم صورة الضّعف والعجز في سياسة الآخر لرعيته، وبالمقابل يرفع من سلطة الكلمة، وحين يعقد المتلقي هذه الموازنة يحصل فعلُ الاقتناع بأهمّية المواجهة لقوّة الكلمة وضعف الآخر، وفي

[1] محمد العبد: المفارقة القرآنية، ص 19.

[2] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 23.

ثنايا الخطاب يوجّه الشّاعر خطابَه إلى الآخر المستضعَف ليبُثَّ رسائل الوعي والتّوجيه باستخدام أسلوب المفارقة، فيقول:

هُـمْ يطْعنُونَكَ في الظّهــورِ

وأنت تُهديهم دِماءَكَ وِرْدَةً وقرَنْفُلةً

هُـمْ يزْرعُونَك بالجراد ويحْصُدُونَك سُنْبلةْ[1]

يُخاطِب الشّاعر الوطنَ مُستخدِما المحلَّ قاصدا الحالَّ، فيصوّرُ الموقف المفارقَ للآخر في رحلة ردّ فعله على الأنا في سخرية وتهكّمٍ؛ تُبرِزُه السّياقات المقالية (تُهديهم دماءَك/ يطعنونك في الظّهور)، إذْ يسْخر الشّاعر مِنْ طَرفيْ المفارقة مُنتقِدا منهجَ الأنا التي لم تُحسنْ اختيارَ أفعالها، ويسخر مِن ردّ فعل الآخر المتسلِّط الذي لم يُقدِّرْ فعل الأنا التي تسعى إلى الحفاظ على وُجودِه وسلطَتِه، فالعنايةُ بالأبعاد التّداولية للخطاب واستلزام البُعد الحواري لهذا التّركيب المفارق يجعلُ المتلقي حَكَمًا بيْن طرفيْ التّخاطب، ويملك مِن ملفوظات السّياق ما يُعينه على إصدار الأحكام، «ومثلما ترتبط المفارقة بالسّياق اللّغوي فإنّها أيضا وثيقةُ الاتّصال بالمقام الاجتماعي المنجب لها، ولذا يتنوّعُ توظيفُها وطُرُق فهْمِها بحسب قدرة الكاتب على بنائها وحذق القارئ في فكّ رموزها»[2]، وهو أيضا يدفع الأنا المُعبَّر عنها بضمير المخاطَب تَعي حقيقةَ الفعل، وتبحث عن ردِّ الفعل الأنْسب فيحصلُ التّطهير وتعديل الموقف.

[1] المصدر السابق، ص24.

[2] محمد سالم محمد الأمين الطلبة: مستويات اللّغة في السّرد العربي المعاصر، ط1، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 2008، ص 146.

ويكثّف الشّاعر من خطاب السّخرية تحقيقا للأبعاد التّواصلية سالفة الذّكر حين يجمع بين فعل الزّراعة والحصاد ثم إبراز طبيعة المزروع والمحصود في مفارقة ساخرة تُبينُ عن موقفه من الفاعل والمفعول به (أنت/ هم).

2- 1 - 2- المفارقة السياقية (مفارقة الموقف) *Situation Irony*

ويعتمد هذا النّوع على رؤية الأحداث والحسّ الشّاعري بها بغية تحليلها واستنباط أبعادها، وتُنْسب هذه المفارقة إلى السّياق الذي حظيَ بعناية مدارس تحليل الخطاب وعيًا بالوظيفة الاجتماعية للّغة، وباعتبار الخطاب الأدبي ينحرف عن الدّلالات السّطحية لملفوظات التّراكيب فإنَّ «أهمّ ما يُعوَّلُ عليه في تجاوز المعنى الحرفي المباشر الأسلوبي المفارق هو السّياق»[1]، فاعتماد الخطاب الأدبي على الانزياح الذي يميل إلى استخدام استراتيجية المفارقة أحيانا يحتاج إلى مراعاة سياق التّخاطب للإلمام بمقاصده المضمرة المستترة وراء كثير من الشّفرات الكلامية، وتتمثّل حجاجية المفارقة السّياقية في قدرتها على أنْ «تستوعبَ موقفا متكاملا يجسّد علاقة الذّات المتكلّمة أو الموضوع المُتكَلَّم عنه بالبيئة المحيطة، وسواء انتشرت المفارقة أو انكمشت فإنّها تملك القدرة على استيعاب كلِّ ما يقع في منطقة نفوذها من المواقف والأحوال»[2]، إذِ الإلمامُ بكلّ ما له علاقة بفعل التّخاطب يحقّق للخطاب أبعادَه المعرفية والحجاجية في قالب فنّي يتّكئ على استراتيجيات المفارقة السّياقية ومنها:

2- 1- 2- 1- مفارقة التّحوّل:

يقول أيمن العتّوم في قصيدة "نبوءات الجائعين":

ستمُـرُّ أعْوامُ كأَعْوامِ الرّمــادة في بلادي

[1] محمد العبد: المفارقة القرآنية، ص 39.

[2] محمد عبد المطلب: كتاب الشّعر، ط1، مصر، الشّركة العالمية للنّشر لونجمان 2002، ص 70.

لا شيْءَ غير الجُوعِ ... والفحْشَاء...

والأحْزاب ... والفِرَقِ العَديدةْ

سيَمُرُّ مَنْ أكَلوا التُّرابَ على البيَأدِر

ثمّ يبْتَدِئون أُغْنيَةَ الحصيدَةْ:

نحنُ العجينةُ للْحُكومَاتِ الرَّشيدة[1]

يتأسّس الخطاب الشّعري في هذا المقطع على استشراف وضعِ الأنا بناءً على السّياق الخارجي الذي يؤكّده التّركيب (لا شيءَ غير الجوع...)، إذْ يتوهَّم المخاطَبُ والمتلقي أنَّ الخطابَ الشّعري سَيُفصِّلُ في الصّورة الاستشرافية بما يتَوَاءَمُ وَأُفُقَ التّوقّع حين يُورد التّركيب (سيَمُرُّ مَن أكلوا التّراب على البيادر)، لكنَّ الشّاعر يُصوّر حالة الأنا المُستضْعفة في مفارقةٍ تُخالف السّياق السّابق (يبتدئون أغنية الحصيدة)، إذْ إنَّ وضع الأنا لا يتطلّب هذا الموقف (الغناء) الذي يعبّر عن الولاء المطلق لمن تسبّبَ في تردّي الوضع، هذا الموقف المخالف لحال الأنا يُشكّل صدمةً شعورية لكلّ مَن يتلقّى الخطابَ، وقد يكون الشّاعر يستهدِف الأنا الجمعي في استراتيجية تنحرف عن الخطاب المباشر من خلال استخدام ضمير الغائب (هم) لدفع الأنا لمراجعة مواقفها مراعاة لشروط اللّباقة في الخطاب felicity conditions ، إذْ هي «الشروط المناسبة التي تتوافر لفعل الكلام كيْ يُفهمَ كما قُصِدَ له أنْ يكون»[2]، فالشّاعر يُلحُّ على خطاب النّقد المفارق للسّياق حين يُفصّل في المواقف الصّادرة عن الأنا، حيث يقول:

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 19.

[2] جورج يول: التّداولية، ص 190.

وسيهتفون بروح قائدِهم وأيْديهِ المَديدَة

وسيجلسونَ على الحديدة

وسيهتفون... ويهتفون[1]

فالمقام يرفض هذه المواقف لأنَّ النّتيجة صريحة في الشّاهد، وتتعاظَم حجاجية هذا الخطاب المفارق في إيراد النّتيجة التي لا تحتاجُ إلى تأويل.

وتبرز مفارقة التّحوّل واضحة المعالم في قصيدة "**كِلانَا رَاهِنٌ فيما يراه**" التي يُخاطِب فيها فئةً من النّاس التي تتّفِقُ معه في المصير والحال الرّاهنة، لكنّها انحرفت عن المسار المشْترك معَ أوّل امتحانٍ بين الطّرفيْن، ويتّخذ الشّاعر استراتيجية التّحوّل ويخاطِبُ الآخر بضمير المفرد حتى يُشْعِر كلَّ مخاطَبٍ يُلامِس الخطابُ عقْلَه ووجدانَه بأنَّهُ المقصود بالخطاب فيقول:

ولَــوْ سَــوَّغْتَ رَأْيَك مَـا اتَّفقْــنا

ولكنّا اشْتــركنا فِــي المصــيرْ

عــــدُوٌّ واحــــدٌ ... أنا أَقِــيه

وتخطُــبُ وُدَّهُ بِفَــمٍ ضَــريــرْ

ويحميــني أنا قــوْلٌ حَكِــيم

وتَخْــدَعُ أنتَ بالــقَوْلِ الغَــرور[2]

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 19.

[2] المصدر نفسه: ص 126.

لا يُصَرِّح الخطاب بطبيعة المخاطَب سوى ذِكر المفارقة الحاصلة بين الأنا الشّاعرة وهذا الآخر؛ الذي اشترك معه في المصير، لكنّه اختار سبيل الاختلاف، إذْ استَهْدفَ مطلعُ الشّاهد التّركيز على الافتراق ليكونَ سياقا مُوجِّها للخطاب الشّعري معتمدا استراتيجية الإجمال ثم يُفصِّل في خطاب الاختلاف؛ الذي تُشكّل سياقاتُه المقالية مقابلةً في المواقف بين حال الأنا وفعلها ومواقفها، وما يكون عليه الآخر، إذ تتداخل استراتيجيات المفارقة من حيث التّركيب اللّغوي (التّضاد/ المواقف/ الحضور والغياب)، وإذْ يتّكئ خطاب مفارقة التّحوّل على عنصر التّضاد اللّغوي في انسجام بين التّركيب والدّلالة، فإنَّ هذا التّضافر الفكري والفنّي يرتقي بحجاجية المقاصد المصرَّح بها نحو (أتَّقيه/ تخطب وُدَّه) أو المقاصد المضمرة (يحميني قول حكيم/ تخدع بالقول الضّرير) إذْ يستهدف فكرة المعارضة بصدقٍ والمعارضة بتملّقٍ ونفاق.

يستخدم الشّاعر في هذا الخطاب مختلف استراتيجيات المفارقة في كلِّ بيت شعري، فيكون التّقابل بين أفعال الأنا ومواقفها المفارقة لما يُقابلها عند الآخر، بما يُبينُ عن انحرافٍ ترفُضُه الأنا، وعنْ نقدٍ مُبطَّنٍ لمنهج الآخر، وقد تتجاوزُ الرّسالة هذا الآخر فهي ذاتُ غايةٍ توجيهيةٍ إصلاحية عامة لمواجهة صروف الدّهر، وما يَحُدُّ مِن حرية الإنسان وإنسانيته خاصّة، ومن هذه المفارقات ما يُورده الشّاعر في قوله:

أنا أسْـــــعى لخيْرِكَ باعتـــــقادي

وتســعى أنتَ للكرْسِيّ الوَثـــــير[1]

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 126.

يجسّدُ الشّاعر علاقة الأنا بالآخر الذي ينحرِف عن النّهج السّليم، وتبرز مفارقة الموقف طبيعة هذا المخاطَب وقِصَر نظره في الحياة، ويختم الشّاعر خطابه بذكر النّتيجة التي تُجملُ مضامينَ المفارقات بيْنَه وبيْن مخاطَبِه قائلا:

إذا ماتَ الضّمـــــــيرُ لــدى أنَاسٍ

فإنّـــي لم يَمتْ يومًا ضَمــيرِي[1]

تسعى هذه المفارقة التي تتّكئ على استراتيجية التّضاد إلى إصلاح منظومة الآخر، إذْ يعدُّ الضّمير أساسَ هذه المنظومة من خلال جعله محوَرَ المفارقة، ولا تخفى حجاجية أسلوب المقارنة الذي يدفع الآخر إلى مساءَلة ذاته، وجعلها في ميزان النّقد، وهذا الرّسم التّخطيطي يختزل هذه المقارنة وأبعادها الحجاجية.



الشّكل (31) حجاجية أسلوب المقارنة في الخطاب المفارق

[1] المصدر نفسه، ص 127.

2 ـ 1 ـ 2 ـ 2ـ المفارقة الدّراميّة

تتأسّس هذه المفارقة على البعد الدّرامي القائم على الصّراع، إذْ إنَ «كلَّ فكرة تُقابلها فكرة، وأنَّ كلَ ظاهر يستخفي وراءه باطن»[1]، وعليه فإنَّ المفارقة الدّرامية تقوم على «تصوير حالةٍ أو حدثٍ أو تبنّي موقفٍ ما، يمكن من خلال إدراك أبعاد كلٍّ منها، أنْ يرُى فيها وجهُ المفارقة على أنّ مَنْ يقوم بالتنبّهِ إلى هذا النّمط مِن المفارقة والوعي بأبعاده هو المتلقي»[2] إذْ إنَّ ارتباط المتلقي بالموضوع وتفاعله الذّاتي مع مختلف المواقف يسهم في إدراك أبعاد الخطاب المفارق، وعليه يتأسّسُ الاستلزام الحواري، ويسهم في بروز البعد الأخلاقي للخطاب.

يستخدم الشّاعر أسلوبَ المفارقة الدّرامية في خطاب الآخر في قصيدة "**نبوءات الجائعين**"، ومن السّياقات التي تجسّد المواقف الدّرامية قوله:

سيهتفون بِروحِ قائِدِهم وأَيْدِيه المديدةْ

وسيجلسُونَ على الحَدِيدةْ

وسيهتفون ... ويهتفونَ ...

فما أجادُوا

فما أجادوا غَيرَ تَصفِيقٍ لأصْحابِ السّعاداتِ السّعيدَةْ

وسيشربون دِماءَ عِزَّتِهِمْ

[1] عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر. قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ط3، بيروت، دار العودة، 1981، ص 279.

[2] دي سي ميويك: المفارقة وصفاتها، تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993، ص 78.

ويَقْتتلُونَ مِنْ أَجْلِ الكراماتِ الفَقِيدَةْ[1]

يتضمّن الشّاهد مفارقة درامية تقوم على صراعٍ غيرِ متوَقّع، إذْ يُورد الشّاعر موقفَ الأنا المُعبِّر عن الرّضا والموالاة للحاكم، ثم لا يلبث أنْ يصوِّر ردّ فعل الآخر في مشهد درامي يترجم الحسرةَ والرّفض، فالجزاءُ لم يكن من جنس العمل، هذا الخطاب المفارق الذي يتأسّس كذلك على السّخرية ـ حين يصف الآخر الحاكم (أيديه المديدة، أصحاب السّعادات)، ويضمر فعل الآخر، فيذكر تأْثيرَه على رعيّته ـ يستفزُّ المتلقي بملفوظاته التي تحرِّك الضّمير الإنساني (يشربون دماء../ يقتتلون) فتتضافر فيه العناصرُ المُشكِّلَةُ للخطاب في إطار السّياق، يحرِّك الخيال الواعي فترتَسِمُ الصّورة المشْهدية الدّرامية في ذهن المتلقّي أو المخاطَب، فيحقّق الخطاب رسالتَه الهادفة.

2ـ 2 ـ حجاجية المفارقة في خطاب الآخر الحاكم

تتداخل استراتيجيات المفارقة في خطاب الآخر (الحاكم) في قصيدة "**نبوءات الجائعين**" إذْ لا يمكن فصل المفارقة اللّفظية عن مفارقة الموقف، أو فصل مفارقة التّهكّم عنهما معا، ويعود ذلك لتنوّع الخطاب الشّعري بسبب تعدّد المخاطَبين في المقطع الشّعري الواحد، ومنْ أساليب المفارقة في خطاب الآخر ما يُورده الشّاعر تجسيدا لعلاقة الأنا المحكومة بالآخر الحاكم قائلا:

وانتهى شعبٌ تَمَرَّسَ في النّضالِ لَهُم وَوَاجَهَ مَصْرَعَهْ

هُـمْ يَشرَبونَ مدامِعَهْ

هم يصْنَعونَ فجائِعهْ

إلى أنْ يقول:

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص19-20.

هُـمْ ضِدَّهُ أبَدًا ...

وأكْثَرُ ما يُعذِّبُ أنَّهم حُسِبُوا مَعَه[1]

يجسّد الشّاهد موقفَ الآخر وردّ فعله بعد ولاءِ الأنا المحكومةِ في أسلوب مفارقٍ لا يستجيب لطموحات الأنا، ولا يُرضي المتلقّي، فالعلاقةُ بين السّطر الأوّل وما بعْدَه علاقة تنافر تُبينُ عن مفارقة موقفية (شعبٌ تمرّسَ في النّضال/ يشربون مدامعه)، وإذْ يثبتُ الشّاعر موقف الأنا فإنّه يُلحُّ على موقف الآخر في سياقات كثيرة؛ تتضمّن رفضًا مُبطّنا ونقدا صارخا، وقد اهتدى الشّاعر إلى استخدام ضمير الغائب في تناول علاقة الأنا بالآخر مِن زاوية المشاهد الذي يرصُد الأحداثَ ويدرُسها بعمقٍ، ثم يصدرُ أحْكامَه على طرفيْ المعادلة، ولعلَّ الاهتداء إلى هذه الاستراتيجية يعود إلى رفض منهج كليْهما؛ لأنّه ضحية الحاكم والمحكوم، وقدْ جسّد ذلك في آخر هذا المقطع.

إنَّ الاتّكاء على المفارقة الموقفية التي تستخدم التّضاد في آخر المقطع يعدُ آليةً حجاجية تُسهم في الكشف عن حقيقة الآخر (هم ضدّه/ حسبوا معه) لدفع الآنا إلى مراجعة مواقفها واختيار منهجها عن وعي.

ويُصرّحُ الشّاعر في المقطع الثّالث بالأفعال المنافية للإنسانية؛ التي تتنافى وطبيعة العلاقة المُفترَضة بين الحاكم والرّعية، إذْ يستخدم أسلوب المفارقة الذي يجسّد المواقف المتباينة فيقول:

هم يطعنونك في الظُّهُورِ

وأنْتَ تُهدِيهم دماءَكَ وِرْدةً وقرنْفُلَةْ

هُـمْ يزرَعُونَكَ بالجراد ويَحْصُدونَكَ سُنْبُلَةْ[1]

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 20-21.

تتجلّى المفارقة الموقفية التي تترجمُ حجمَ الفجوة بين الحاكم (يطعنونك/ تهديهم وردة)، وإذْ يبدوُ البعد التّداولي لهذه المفارقة في قدرة الفعل المنسوب للآخر في حمْل الدّلالات التي تُناسب طبيعتَه وسلطتَه ممّا يحقّق المقاصد الخطابية في هذا الخطاب الشّعري النّاقد والرّافض لفلسفة الحاكم، والمبرز لتضحيات الأنا في سبيل الحفاظ على وطنها ووجودها، ويعمل خطاب التّكثيف باستخدام المفارقة اللّفظية على جلاء تلك المقاصد (يزرعونك/ يحصدونك).

ويفتتح الشّاعر المقطع الخامس بخطاب السّخرية والتّهكم؛ الذي يستهدف فضح الحاكم العربي وسياسته الفاسدة في التّعامل مع القضايا المصيرية للأمة، فيقول:

يا أيُّها الجُلساءُ في قاعاتِ قُرْطُبةٍ ورُومَا والخلِيجِ

وَدُورِ آخرِ ساعَةٍ في اللَّيْلِ

قبلَ الصِّفْرِ مِنْ هَدْمِ القِلاعْ

سأقُول: لا تقِفُوا اسْتمِرّوا في النّقاشاتِ المفيدةِ

واسْتعدّوا للقَنابِلِ في بَيَانَاتٍ أُعدَّتْ

قبلَ توْزيعِ النّصوصِ وقبلَ تفْريخِ الخداعْ[2]

يصوِّرُ أسلوب المفارقة السّاخرة بعضَ أساليب الحاكم العربي حينَ يلجأُ إلى المؤتمرات والنّدوات في مخاتلة الشّعوب العربية لإبراز وَعْيِه بقضايا الشّعوب والأمّة، وسَعْيِه الحثيث لإيجاد الحلول، غير أنَّ الخطاب الشّعري ينتقدُ السّياسات العربية مجتمعةً، ويُعرّي حقيقتها، فيكشف سوْءاتها، باستخدام

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 24.

[2] المصدر نفسه، ص26.

ملفوظات تجسِّدُ التّنافر بسخرية بيْن مكانة الحاكم ومَهامّه المفْترضَة وَواقعه في السّياسة والحُكم (هدم القلاع/ النّقاشات المفيدة) (القنابل/ بيانات) هذه المفارقات التي تقرّر واقع الحال تستفزُّ ذهنَ المخاطَب والمتلقي لكونها تضع المشرط على الجروح، فتدفعه إلى نقد الذّات

2ـ 3 ـ حجاجية المفارقة في خطاب الآخر المختلف (الأجنبي)

يُحيل عنوان قصيدة "**دِمانا عند ربِّ العرش أغْلى**" إلى موازنة بين الأنا والآخر؛ تتناول مسألة الأرواح وحرمة الدّماء، وإنْ لم يصرّح بهذه الموازنة، ويُقرأُ العنوان تداوليا بوجود حذفٍ ظاهرٍ يُبْرِزُه تركيب العنوان الذي يضمر محذوفا والتّقدير (أغلى مِن دمائكم)، وهو ما يجعل الخطاب الشّعري منفتِحا على عنصر المفارقة والتّضاد؛ التي يتّخذها الشّاعر أهمَّ أدواته الخطابية لإيصال رسالته إلى الآخر (أمريكا)، ومن أستراتيجيات المفارقة في هذه القصيدة نذكر:

2ـ 3 ـ1ـ المفارقة اللّفظيّة

يستخدم الخطاب المفارق في هذه الاستراتيجية بِنية التّضاد التي تحدّد علاقة الأنا الجمعي بالآخر المختلف (أمريكا) الذي يُصرّح به في مطلع القصيدة، ومِن السّياقات التي استخدمت ذلك ما ورد في قول الشّاعر:

دِمانَا عِنْدَ رَبِّ الــعرْشِ أغْلــى

وَإنْ هانَتْ على المُــتآمِريــنَا[1]

يبرز الشّاهدُ صراعَ الأنا مع الآخر، وقد كانت الأرواح محورَ الصّراع، وإذْ يُجسّدُ التّضادُ (أغلى/ هانت) فلسفةَ الآخر الذي يحْرِمُ الأنا حقَّ الحياة، فإنَّ هذه المفارقةَ تتضمّنُ إيمان الأنا برسالتها، وعزمها على الاستمرار على نهجها، لأنَّ التّركيب يتضمّن الحجة أو النّتيجة التي يؤول إليها الصراع

[1] المصدر السّابق، ص79.

(عند ربّ العرش) إذِ الاحتكامُ إلى القوّة الإلهية وانتظار حُسْن العاقبة يرفع من معنويات كُلِّ مُستضعَف أو مُتردّدٍ، فيزيد من إصراره، ويُرغم الآخر على تعديل موقفه أو تغيير أساليبه.

ويختم الشّاعر خطابَه الشّعري بالتّأكيد على الموقف السّابق باستخدام التّضاد ليكون فصل الخطاب إذْ يقول:

لنا عنْدَ الإلَه جِـــنانُ خُـــلْدٍ

وهُـمْ وسْط الجَحِيـــمِ مُخلَّدُونَا[1]

تُبرز المفارقة مآلَ الأنا والآخر في نهاية الصّراع هذه النّتيجة تحرّك الضمير الواعي، ولأنّها تتوعّد الآخر بالعقاب المحتوم (الجحيم)، وإذا كان الخلود عنصرا مشتركا وحتمية على كلّ مخلوق، فإنَّ التّضاد يجسّد هذا التّباين في المآل (جنان/ جحيم) هذا الحُكْم يُحرِّك الضّمير الواعي، لأنّه يتوعّد الآخر بالعقاب الحتمي، وبمراعاة سياقات الخطاب المختلفة؛ ومنها السياقات السّياسية والاجتماعية والثّقافية التي تُبين عنها بعضُ التّراكيب (عدالة عَفِنت قرونا) (اليهود لهم أمان)، فإنَّ هذه المفارقة تتجاوز المدلولات التي تُصرِّحُ بها البِنية السّطحية للخطاب إلى مضمرات قولٍ أخرى؛ يمكن إيصال رسائلها إلى المخاطَب بوساطة أطرافٍ تُعدُّ أعوان الآخر (المتآمرينا)، ومن هذه المضمرات رسائل التّحدّي وتوعُّدِ الآخر بفشلِ مشروعه؛ إذْ لا تخفى ههنا حجاجية أسلوب المقارنة التي تعدُّ آلية مِن آليات المفارقة.

2ـ 3 ـ 2 ـ المفارقة السّياقية (الموقفية)

يُصرّح الخطاب الشّعري في قصيدة "**دمانا عند ربّ العرش أغلى**" بالمخاطَب (أمريكا) ويميط اللّثام عن صورته في متنِ النّص باعتباره يتدخّل في السياسات المحلية للأنا العربي، فيفرضُ فلسفته

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص80.

ومنْهجَه بما لا يتوافق وطبيعة الأنا وأيديولوجيتها، ولإبراز هذا الاختلاف يستخدم الشّاعر أسلوب المفارقة الموقفية؛ التي تجسّدُ الجرحَ الغائر الذي تعانيه الأنا، وما تُمثّله مواقف المخاطَب من حواجزَ أمامها في سبيل تحقيق وجودها وحرّيتها، يقول أيمن العتّوم:

دِمانَا فـــي المـــزاد فسَاوِمـــينا

وصُبّـــي الكـــأْسَ مِنْها واشْـــرَبينا[1]

إنَّ افتتاح الخطاب الشّعري بأسلوب المفارقة يُعدُّ سياقا تخاطبيا يُؤشِرُ لطبيعة كُلٍّ مِن المخاطِب (الأنا الجمعي) والمخاطَب (الآخر/ أمريكا)، إذْ يتضمّن الشّاهدُ مفارقة بين شطريْه تدْفع المتلقي إلى المساءلة الضّمنية ـ حسب ميشال مايير ـ عن علّة تغيير الأنا لموقفها بعدَ أنْ عرضت على الآخر تقديم عروضه (ساومينا)، ذلك أنَّ فعل المساومة يقتضي تقدير ما يُعرَضُ، لكنَّ الفعل (صبّي/ اشربي) يُحيل إلى التّسليم والاستسلام، وهذا التّحول في الموقف يستفِزُّ الذّهن المتلقي، ويدفعه إلى التّعلق بالخطاب لإيجاد مبررات هذا التّحول المفارق، وقد عمد الشّاعر إلى استراتيجية خطابية تقوم على تكثيف الأسلوب المفارق الذي يتدرّج في عرض الإجابة عن تساؤلات المتلقّي المضمرة، فيحدّد طبيعة طرفيْ الصّراع، يقول أيمن العتّوم:

إذا مـــــا جِئـــتَ حتّى تشْترِيـــــنَا

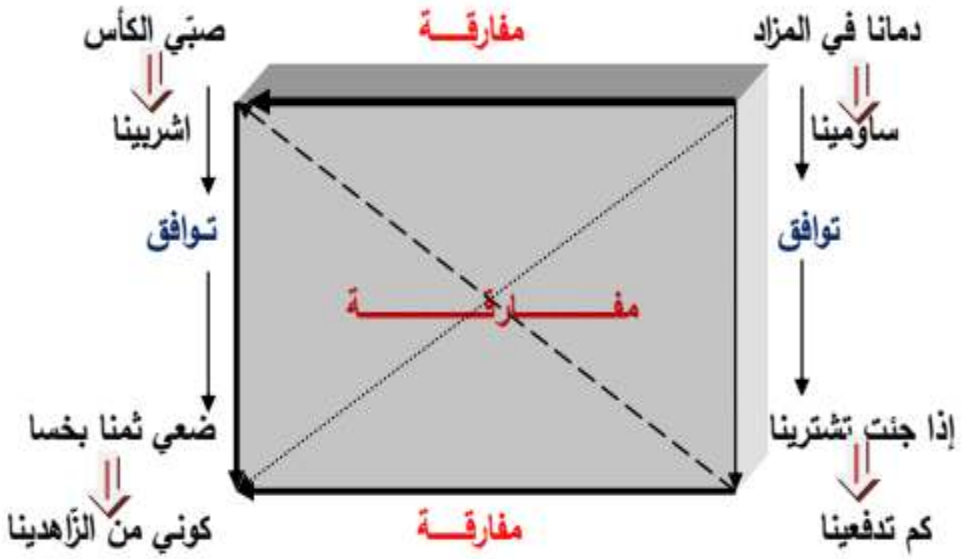
فَيَا (أمْـــريكيا) كَـــمْ تدْفعيـــــنا

ضـعي ثَمَـنًا كمَا قَدْ شِئتِ بَخْسا

وَكُونِـــي فِي عِـــدَادِ الزَّاهـــدِينَا[1]

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص77.

يتوافق مضمون الخطاب في الشّاهد الأول مع مطلع القصيدة؛ إذْ يُعدُّ ملفوظ (ساومينا) مؤشّرا على النّتيجة (تشترينا)، لكنَّ الخطاب ينحرف عن هذه المقاصد في مفارقة تتواءم وما تضمّنه عجز المطلع، ولإبراز ذلك يمكن تمثيل هذه الاستراتيجية الخطابية في المخطط الآتي:



الشّكل (32) استراتيجيات المفارقة السّياقية في خطاب الآخر (الأجنبي)

تُميط استراتيجية المفارقة في هذا الخطابِ اللِّثامَ عن صفة الأنا المفعول بها، في مقابل إبراز طبيعة الآخر الفاعل من خلال ملفوظ (جئت/ شئت)، وقد حدّدت السّياقات اللّاحقة معالم كليْهما بالاستناد إلى أسلوب المفارقة بمختلف استراتيجياتها اللفظية أو الموقفية، يقول أيمن العتّوم:

فإنّـا أُمَّـــةٌ وَسَـــطٌ وَلَسْـــنا

[1] المصدر السابق، ص77.

نُرِيـــدُ سوى رِضـــاكِ فَسـامِحينا[1]

فتقرير حقيقة الأنا في الشّاهد الذي يتّكئ على التّناص الديني لا يُصوِّغُ للأنا الخضوعَ والرّضوخ، إنّه خطاب المفارقة الذي يُضمر دلالات التّنافر والسّخرية انطلاقا من اختلاف زوايا التّلقّي، هذا الثّراء الدّلالي يعتبر آلية حجاجية تُحقّقه المفارقة الموقفية لكونها تمارس دورَ المساءلة الخطابية التي تدفع المتلقي إلى افتراض الإجابات أو طرح تساؤلات أخرى تحقّق علاقة التواشج والانسجام بين الخطاب السّابق واللّاحق، وهذا ما يتّضح في السّياقات الآتية في قول الشّاعر:

قَوَانِيـــنٌ لِغـــــرْبيٍّ لَئـــيمٍ

ومـــازِلْنـــا لهـــا مُسْتَعْـــمَرِينَا

نَبُـــوسُ نِـــعَالَ أمْـريكا لتَرْضَـى

ونطْلُـــبُ وُدَّهـــا مُتَذَلِّلِـــينَا[2]

يصرّح الشّاهد بحقيقة الآخر (أمريكا) وسلطَتِه (غربي لئيم/ مستعمر...) لكنَّ الأنا الشّاعرة تُورِدُ نتيجة التّذلّل والخضوع في أسلوب مفارقٍ لا يتواءَمُ وطبيعة الفعل فيقول:

كَـذا تُـــرْعَى كَرامَتُـنا وتُعْلـــى

جِبَـاهُ الأوْفِيـاءِ الصّادِقـــينَا؟!![3]

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 77.

[2] المصدر نفسه، ص 78.

[3] المصدر نفسه، ص نفسها.

تتجلّى المفارقة السّاخرة في الشّاهد في التّركيب (تُرعى كرامتنا/ تُعلى جباه الأوفياء) التي تعتبَر نتيجة حتميّة لما تضمّنه الشّاهد الأول (نبوس النعال/ نطلب الودّ متذلّلينا)، وهذه المفارقة ذات بُدٍ خَطابي هادفٍ بسخريَتِه، لأنَّ الجزاء لم يكن من جنْس العمل.

وتبْرز مفارقة الموقف في القسم الثّاني في القصيدة، لأنَّ الخطاب الشّعري يستهدِف تعريةَ الآخر من خلال كشْفِ مخطّطاته الدّنيئة في حق الآنا، حيث يتعدّى الأمر إلى الاستعانة بحليف آخر (اليهود) الذي يُدَعّم سياسته، ويتّخذ الخطاب أسلوب المفارقة آليةً لإبراز هذا التّكتّل (أمريكا ـ اليهود) الذي يسعى إلى فرض هيمنته وتقويض وحدة الأنا، فيقول:

إذا قتلـوا لنَـا أَلْـفًا شَجَبْـنا

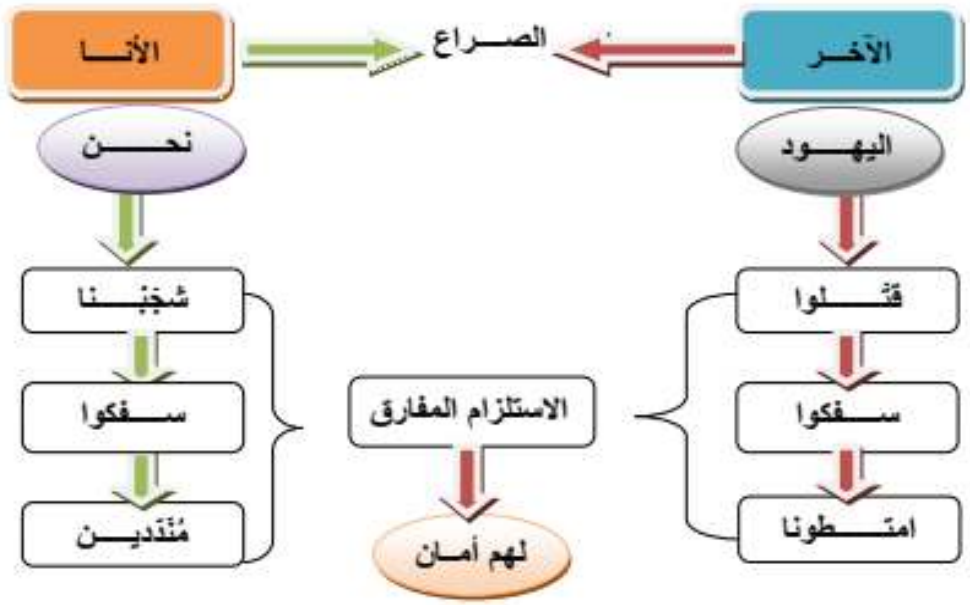
وَقُمْـنَا بالصّيـاحِ مُنددِيـنا

وأَمَّـا فاليَهـود لَهُمْ أَمـانٌ

متى سَفَـكوا دِمـانَا وَامْتَـطَوْنا[1]

يتضمّن الخطاب نقدا للأنا المُستضْعفة التي لا يكونُ ردُّ فعلها مناسبا لاستبداد الآخر وعبثه، إذْ يُعبِّر عنه أسلوب المفارقة في المواقف، وتُجْليه مفردات التّراكيب المتقابلة بالتّنافر (قتلوا/ ألْفا) (شجبنا/ الصّياح/ منددّينا)، كما يتضمّن نقدا للآخر (أمريكا) الذي يقف حكَمًا في قضية صراع الأنا مع هذا الحليف اليهودي، فيعبّر الشّاعر عن ذلك في الشّاهد الثّاني بأسلوب بين صدره وعجزه مفارقة موقفيّة (قتلوا، سفكوا/ لهم أمان) (قتلوا، سفكوا/ قمنا بالصّياح، شجبنا)، والمخطط الآتي يُعيد تشكيل الخطاب المفارق وأبعاده في هذا القسم.

[1] المصدر السّابق، ص نفسها.



الشّكل (33) بنية المفارقة في خطاب الآخر (الأجنبي)

ويركّز الخطاب الشّعري على قضية عبثِ الآخر بالأرواح في ظل الحماية التي يوفِّرها الحليف (أمريكا)، ويعبّر الشّاعر عن اللّاعدالة في الجزاء باستخدام الأساليب المفارقة التي تترجم حال الأنا وهوانها، فخطابُ المفارقة يقوم مقامَ المحاكمة سعيًا لاسترجاع الحقوق ومعاقبة المذنب، وإذْ يُرافِع لصالح الأنا فإنَّه يَعْمَدُ إلى جلْد الذَّات رغبةً في تغيير الموقع والموقف في ظل الصّراع الحتمي مع الآخر وحليفه، يقول:

فكم مِنْ قَاتِـــلٍ قَـدْ حَـــاكَمُوهُ

بِحبْسِ ســـاعَةٍ مُسْتَكْثِريـــنا

يُغـــرَّمُ ثُـــلْث سِنْتٍ أوْ أَغُـــورا

وَيُطْلَقُ بعْــدَها حُــرّا مَصُـونَا[1]

يرتبط الخطاب في هذا الشّاهد بالسّياقات القبْلية، وإذْ يُظْهِرُ التّركيب خضوع الآخر للمحاكمة، فإنَّ أسلوبَ المفارقة الذي يستخدم استراتيجية التّهكّم يُبينُ عن موقف الأنا الرّافض لهذه المحاكمات الصّورية المخادِعة للرأي العام؛ المستهترة بالقيم الإنسانية، هذه المفارقة الصّارخة في أبعادها بين الفعل والجزاء تدفع المتلقّي إلى قبول مضمون الخطاب، والاقتناع بخطاب الرّفض، والسّعي إلى تعديل الموقف، ومراجعة المنهج في التّعامل مع الآخر وحليفه.

ملخص المبحث الثالث

تَبْرُز حجاجية المفارقة في ديوان "نبوءات الجائعين" بجلاء كونها مِنْ أنْسب الأساليب قدرة على تجسيد تناقضات الحياة وإبراز المواقف في الخطاب الأدبي، إذْ يُعدُّها بعض النّقاد من مظاهر الحداثة، لأنّها تمثِّل رؤية للعالم؛ تهدف إلى هدمِ الثّوابت، فتجمع بين المتناقضات، وقد شكّلتْ مَلْمحا أسلوبيا بارزا في خطاب الشّاعر للآخر لتعدّد استراتيجياتها وتنوّع آلياتها الخطابية، وقدرتها على حمْل المخاطَب على الاقتناع.

استخدم "أيمن العتّوم" في خطاب الآخر (ابن الوطن) المفارقة بنوْعيْها اللّفظية والسّياقية (الموقفية)، إذْ تنوّعتْ استراتيجيات كُلٍّ منهما، فاستندت المفارقة اللّفظية على عامل التّضاد؛ لكونه آلية تجمع بين اللّفظ ونقيضه، ومِن خلال ذلك تجسّد الموقف وما يباينه، فقد أبانَ عن الصّراع بين المخاطَب باعتباره يمثّل الهامش، وخصومه الذين يشكّلون المركز (الحاكم/ العدو)، إذْ استهدف الشّاعر في خطابه تعزيز ثقة المخاطَب بنفسه، من خلال إبراز قوّته وإمكاناته التي يهابها الآخر فيسعى إلى إضعافه باستهداف مصدر قوّته (سلطة الكلمة الحرّة).

[1] أيمن العتّوم: نبوءات الجائعين، ص 78.

تتجاوز الأبعاد التّداولية لهذا الخطاب مضامين التّحفيز والتّضامن إلى دفع المخاطَب إلى الانخراط في مشروعٍ بعيد الأمد؛ يهدف إلى بناء منظومة قيْميَّةٍ صلبة تواجه كلَّ الهزّات التي تتعرَّض لها الأنا المحكومة.

أمّا استراتيجية التّهكم فإنّها تستفزّ ذهنَ المخاطَب وكلَّ مُتلقٍ للخطاب، فتدفعه إلى فك شفرات الخطاب التّهكّمي المفارق، الذي يتنافر فيه الفعل وردّ الفعل، أو يفترق فيه سياق المقال عن المقام، وهذا ما يكسبه بعدا حجاجيا يُشغل الذهن بالبحث والمساءلة؛ إلى أنْ يتحقق الاستلزام الحواري الذّاتي، فقد أبانَ التّهكّم عن رفض مواقف المخاطَب التي يُبديها أمام عبث الآخر واستبدادهن إذْ حملت قصيدة نبوءات الجائعين" خطابا تهكّميّا مفارقا بين مقاطِعها الخمسة.

وقد أبانت المفارقة السّياقية عن المواقف المتباينة بين المخاطَب والآخر، لتجسّد حالة التوتّر والاختلاف، ومن آلياتها الخادمة لرسالة الباثّ نذكر استراتيجية التّحوّل؛ التي تُبين عن الموقف المُنْتقد لفلسفة المخاطَب؛ الذي لم يكنْ في مستوى تطلعاته نضالا ومواقفا، أمّا المفارقة الدّرامية فإنَّ حجاجيتها تتمثّل في القدرة على تجسيد الصّراع داخلَ فضاءات الخطاب، إذْ تُحْدِث خلخلة في الوعي، فهي تحرّك العقل والعاطفة لما تتضمّنه من صدمة عنيفة غير متوقّعة بعد كُلِّ موقف.

وما يُلفتُ الانتباه في خطاب الآخر الحاكم هو تداخل استراتيجيات المفارقة، إذْ تتضافر المفارقة اللّفظية في خدمة مفارقة التّهكم، وتتفاعل الآليات الخطابية لأداء رسالة الشّاعر الرّافضة لفلسفة الحاكم العربي، فاتّجه الخطاب إلى عرض المواقف المتباينة اتّكاءً على التّضاد والتّهكّم إبرازا افتراق الأنا عن الآخر في المنهج وفي المنظومة القيْمية، وقد تتّحدُ الأنا الشّاعرة مع غيرها ضد الحاكم الظّالم تقويضا لسلطته، وسعيا لإفشال مشروعه القائم على خلق الصّراع بين المحكومين، فاضطلعت مفارقة التّهكّم بهذه الوظيفة، إضافة إلى استخدامها في انتقاد الحاكم العربي؛ الدي أَلْهَتْهُ المؤتمرات والنّدوات الواهمة

للشّعوب فتخلّى عن القضايا المصيرية، واستسلم لمُتَعِ المجالس وموائدها، فكان خطاب المفارقة في هذا الباب صورة متجانسة مع خطاب الشّاعر "نزار قباني" للأنظمة العربية بسخرية جارحة هادفة إلى إحياء الضمير للوعي بقضايا الشّعوب.

وقد تميّز خطاب الآخر الأجنبي بالمكاشفة والتّصريح بالمخاطَب، فكانت ضروب المفارقة وسيلته في ذلك، إذْ أبانت استراتيجية التّضاد عن حقيقة المخاطَب وعلاقته بالأنا الجمعي، فأسْهم التّضاد في إبراز قوّة الأنا وإيمانها برسالتها في الحياة ردّا على تدخّل المخاطَب في شؤونها الدّاخلية، كما كشف عن مآل الصّراع بين الأنا الجمعي (العربي) والآخر (أمريكا، اليهود) لتحريك الضّمير تحقيقا لرسالة الخطاب التي يفترضها الباثّ مُسبقا.

أمّا المفارقة الموقفية فإنّ لها القدرة على إجلاء حقيقة طرفيْ المعادلة في الخطاب الشّعري، إذْ كشفت حقيقة الآخر من خلال مواقفه المعادية للأنا وانحيازه المفضوح لحليفه اليهودي، بما يُجسّد عمق الصّراع وطبيعته الأيديولوجية، فعرَّتْ سياستَه اللاإنسانية؛ التي تستتِرُ وراء عدالة الشّعارات المزعومة، فبرزت استراتيجية المساءلة الضّمنية للآخر، التي لها الكفاءة على إقحام المتلقّي في فضاءات الخطاب، وتشعره بدوره المسؤول في هذا الصّراع، فتفرض عليه سياقات المفارقة الانخراط في المساءلة وافتراض حوار ضمني يُحدِّدُ موقعه مِنْ قضية صراع الأنا مع الآخر الأمريكي بانحيازه واليهودي بجرائمه في حق الأنا، وإذْ يتحقّق هذا الهدف تبرزُ حجّيةُ أسلوب المفارقة بطاقاتها اللّغوية الجمالية وأبعادها الفكرية الهادفة.

ملخص الفصل الثالث

سعَتِ الدّراسة في هذ الفصل إلى استجلاء الأبعاد التّداولية للأساليب الخبرية والإنشائية وأسلوب المفارقة، والبحث في طاقاتها الحجاجية التي استهدفها الشّاعر "أيمن العتّوم" في ديوانه "نبوءات الجائعين" في خطابه للآخر على اختلاف أضربه، إذْ حاولت العناية بمختلف آليات المقاربة التّداولية في فك شفرات الخطاب الشّعري من حيث المرسِل والمرسَل إليه ومضمون الرِسالة، وأهمّ السّياقات المُعينة على فهم مضمرات الأقوال؛ انطلاقا من السّياقات الخارجية وبعض العتبات النّصية التي صاحبت النّصوص الشّعرية، ومنها (سجن الشّاعر، الوضع العربي، تسلّط أمريكا، مساندتها لإسرائيل) وَواقع حال الأنا المخاطَب (مسْتضعَف، مستكين، مُوالٍ للأنظمة، راضٍ بسجن الشّاعر، موالٍ لفكر الشاعر لكنّه صامت...)، إذْ تتضافر هذه السّياقات مع سياقات المقال مع العناية بملفوظاته داخل النّسيج النّصي الضّام وفق العلاقات الأفقية والعمودية في محاولة لتجاوز المنظور الكلاسيكي في فهم أبعاد التّركيبة البلاغية للأسلوب.

وقد تمّت مراعاة إمكانية خروج الأسلوب الخبري إلى الإنشاء، وتجاوز الأسلوب الإنشائي لطبيعة تركيبته اللّغوية على أداء وظيفة من وظائف الأسلوب الخبري، إذْ أقام الشّاعر جسرَ تواصلٍ بيْن الأسلوبيْن لبلوغ أهدافه من عملية التّواصل، وفق افتراضه المسبق، مُستعينا في ذلك باستراتيجيات خطابية تتوافق وحالة المخاطَب وطبيعة الرّسالة، فقد يتضمّن الأسلوب الإنشائي تقرير الحال، ويكون الأسلوب الخبري مُساءلة ضمْنيَّةً للمخاطَب، وقد يحصُل أنْ يبتدِئ الأسلوب الخبري بهذه المساءلة ثم يُرْدَف بإبراز النّتيجة باستخدام الأسلوب الإنشائي.

وقد تضمّن الأسلوب الخبري استراتيجية الجمع بين النّفي والإثبات تقريرا ومساءلة وتعبيرا عن الحالات الشّعورية التي يستدعيها المقال، إبرازا للموقف من فعل المخاطَب أو ردود أفعاله، فتكون الأنا حَكَمًا بيْن المخاطَب والآخرين لِحمْلِ المُتلقّي على استيعاب الرّسالة بآلية الإقحام غير المباشر،

ليتجاوزَ الخطابُ ثنائية المرسِل والمرسَل إليه، فيستهدف غاية التّطهير؛ لأنَّ وضع الأنا الجمعي من خلال فضاء الخطاب الشّعري يسْتوجِب الإصلاح والحركية الفاعلية، فكانت الغايات الخطابية صريحة بلغة شعرية أو مُضمرة تتنوّع أساليبها وعيًا من الباثّ بأهمّية مراعاة حال المتلقي العربي؛ الذي قد ينفر مِن الخطاب المباشر لشعوره بثقل المسؤولية.

أمّا أسلوب المفارقة فهو أكثر الآليات الخطابية حضورا في ديوان الشّاعر لقدرته على إجلاء تلوُّنات الحياة والتّناقضات الحاصلة في صراع الإنسان ضد القوى المغالبة له؛ التي تسعى للحدّ من حرّيتِه، وتقفُ حائلا أمامَ مشاريعه الفكرية خاصّة، ولعلَ طبيعة المخاطَبِين في الدّيوان والصّراع بيْن الأنا والآخر وعمق الفجوة بين المركزي والهامشي جعلَ الخطاب الشّعري يتّكئ على الاستراتيجيات المُتنوِّعة وعْيا مِن الشّاعر بأهمّية مراعاة مقتضى الحال وطبيعة المخاطَب، وضرورة انتقاء الآليات الخطابية المناسبة للعصر والفكر السّائد، لبلوغ المقاصد الخطابية المفترضة قبل التّلقّظ، لكون رسالة الشّعر اليوم تجاوزت استمالة العواطف إلى التّخطيط الخطابي الواعي لتحقيق حجاجية الخطاب وشعريّته، من خلال تضافر حجاجية البلاغة وبلاغة الحجاج.

لقد استخدم الشّاعر المفارقة اللّفظية في خطاب الآخر معتمدا على التّضاد والتّهكّم الهادفيْن إلى دفع المخاطَب إلى مراجعة مواقفه وإصلاح نفسه، كما برزت المفارقة السّياقية (المقامية) لكونها أقرب الأساليب لعرض قضيّة الصّراع بين الأنا والآخر، ومن أنواعها التي تتوافق وهذه القضيّة نذكر (مفارقة التّحوّل، المفارقة الدّرامية)، إذِ استطاع الشّاعر أنْ يجسّد التّناقض الحاصل بين مواقف الأنا وأفعالها أو ردودو أفعالها وما يقابلها عند الآخر، مُستهدِفا غايات خطابية تتنوّع بحسب طبيعة المخاطَب ومحور الصّراع.

إنَّ هذا الثّراء الأسلوبي في خطاب الشّاعر للآخر الذي تنوّعت استراتيجياته وآلياته قد أبان عن حجاجية الخطاب الفاعلة من خلال استغلال طاقات اللّغة الحجاجية ـ بحسب ديكرو ـ ضمن نسيج نصّي تتناغم ملفوظاته وتتآلف تراكيبه في شعرية طافحة؛ تحمل ملامح الرّفض والتّحدي وتستهدِف إيقاظ الوعي لأداء رسالة العصر.

الخاتمة

الخاتمة

تناولت الدّراسة الموسومة "خطاب الآخر في شعر أيمن العتّوم مقاربة تداولية" دراسةَ أفعالِ الكلام في خطاب الآخر وأبعادها التّداولية في ديوان "نبوءات الجائعين"، ثم عالجت حجاجية الصّورة البلاغية في خطاب الآخر، لتبحث أخيرا في حجاجية الأساليب الخبرية والإنشائية وأسلوب المفارقة، هذا الأخير باعتباره أحد أهم الآليات التّعبيرية في هذا الخطاب ، إذْ خلصت إلى النّتائج الآتية:

- تضمّنت الأفعال الكلامية بُعدا إنجازيا تحدّدُه سياقات النّص التي تتفاعل مع تركيبة الخطاب واستراتيجياته المتنوّعة وإحالة بعضها على السّياقات الخارجية، وما تحمله بعض الخطابات من إحالات صريحة على المقام، إذْ لا يمكن إدراك الأبعاد التّداولية إلا بمراعاة هذا التّعالق المتواشج في إطار انسجام الخطاب.
- تتضافر المقاصد الإنجازية لأفعال الكلام مع البعد الحجاجي للخطاب ضمن استراتيجية البناء المنطقي للخطاب، حيث تعمل الملفوظات فيه والأدوات الحجاجية على تحريك الذّهن لبناء الاستلزام الحواري في إطار كلّية النّص، إذْ لا يمكن الظّفر بالدّلالات بمعزل عن تعالق القول اللّاحق بالسّابق.
- يتحقّق البعد التّداولي للخطاب في بروز العلاقة بين أطراف العملية التّخاطبية التي تحيلها بعض الملفوظات الدّالة على مبدأ التّعاون والتّأدّب، لتحقيق المقاصد الخطابية.
- حملت الأفعال الكلامية قوّة إنجازية تختلف بحسب طبيعة الفعل الإنجازي (التّقريري، التّعبيري، التّوجيهي، الإلزامي) وطبيعةَ المخاطَب والموضوع، إذْ تنوّعت استراتيجيات تعديل القوّة الإنجازية بين التّلطيف حين يتعلّق الأمر بخطاب الآخر الذي تربطه بالباثّ علاقات تقارب وتواشج، أو التّقوية والتّعزيز ذات البعد السّلبي، حين يتعلّق بخطاب الأجنبي.
- تعدُّ الأفعال التّوجيهية أكثر الأفعال الإنجازية البارزة في الدّيوان لكون الدّلالة المستهدفَة من الموضوع ذات مقاصدَ توجيهية لجعل المخاطَب (ابن الوطن) يعمل على تعديل مواقفه في مواجهة عبث الآخر وتسلّطه، وإرغام الآخر المتسلّط (الحاكم العربي، أمريكا، اليهود) على التّراجع عن عبثه واستبداده.

- عمل الشّاعر على استغلال طاقة التّبادل الدّلالي بين الأسلوبين الخبري بأبعاده التّقريرية الحكمية، والأسلوب الإنشائي بابعاده التّوجيهية، ممّا جعل الخطاب منفتحا على أبعاد تداولية تتراوح بين الصّريح والمضمر، وهو ما يتطلّب كفاءة تداولية من السّامع أو المخاطَب؛ تعمل على بناء الاستدلال وفك شفرات الخطاب بمراعاة ملابسات الخطاب.
- تتداخل الأبعاد الإنجازية لأفعال الكلام، وهو ما أقر به التّداوليون في اللّغة العادية؛ إذْ تتعاظم هذه الخاصّية في الخطاب الشّعري، لاتّكائه على الأفعال الكلامية غير المباشرة، وقد حملت بعض الاخباريات التي تنقل عالَم الأنا والآخر إنجازية تعبيرية تكشف عن الحالة النّفسيّة للأنا من جراء أفعال المخاطَب المتعارضة مع عقيدة الأنا والتّشريعات البشرية.
- يأخذ التّصوير البلاغي حيّزا بارزا في الخطاب، ولا سيّما في وصف المخاطَب وتقرير حقيقته في الموضوع، إذْ يتّخذ التّمثيل مسارا تأثيريا؛ يستثمر البعد الإيحائي ليكشف مضمرات القول ذات البعد التّهكّمي غالبا.
- تعمل الاستعارة كآلية خطابية على تجاوز البعد التّوضيحي لتقرير حقيقة المخاطَب إلى الاضطلاع بالغاية التّأثيرية الحجاجيّة من خلال استغلال خاصّية القياس بين المستعار منه والمستعار له، إذ مارست على الذّهن عمليّة عقليّةً إدراكية منطقية لإفحام المخاطَب، وقد تجاوزت ذلك إلى القدرة على حمل المعرفة أحيانا.
- إنّ التّوجه إلى توظيف الكناية في الخطاب ينأى بالخطاب عن السّطحية المقيتة، فيرفع من شعرية الخطاب، ويرتقي به إلى الفنّية العالية تحقيقا للمقاصد الخطابية؛ التي تحتاج إلى أسلوب الانزياح لتناول موضوع الآخر بعيدا عن التّصريح الذي تتطلّبه أحيانا الحاجة التّداولية، والوعي بالطّاقة الحجاجية للكناية، لأنّها تقدّم الأحكام والحقائق مقترنة بالدّليل.

- تضمّن خطاب الآخر مساءلة الآخر عن أفعاله وفلسفته التي تلغي حقّ الأنا ووجودها، فاضطلعت الأساليب الإنشائية بوظيفة المساءلة، وإنْ كان المخاطِب لا ينتظر تصديقا؛ فإنّ الاستلزام الحواري يقتضي تصوّرا يعبّر عن إنجازية الرّفض والتّحدي.
- استخدم الشّاعر السّلالم الحجاجية في خطاب الآخر (ابن الوطن المستضْعَف المستكين) معتمدا على مبدأ التّدرّج في عرض التّوجيهات لحمل المخاطَب على قبولها وإنجازها عبر مراحل ضمن استراتيجية التّدرّج في الخطاب.
- عرف الخطاب توظيف الرّوابط الحجاجية التي تنقل الملفوظ من كونه بنية إخبارية إبلاغية إلى بنية حجاجية تعمل على إذعان المخاطَب أو إفحامه، وقد تجلى حذف بعض هذه الرّوابط لكن البعد التّداولي للخطابات يحيل إلى تضمّنها، فيجليها للذّهن.
- تتأخّر مدلولات الأساليب الإنشائية الطّلبية عن ملفوظاتها في الخطاب الشّعري؛ إذْ يتطلّب الاستلزام الحواري كفاءة تداولية تعمل على بناء الاستدلال، وقد مهّد المخاطِب لذلك بمراعاة بعض مبادئ الخطاب التي تناسب المقام، فتُعين على إظهار مقصديته ببعدها الحجاجي.
- تمّ بناء الخطاب الحجاجي للآخر الأجنبي على إنجازية الهدم والبناء؛ أيْ هدم إنجازية أفعال الآخر على الأرض والإنسان، والسّعي لإنجاز أفعال بديلة تُعبّر عن قناعة الأنا الشّاعرة ومعتقداتها في إطار الموضوع.
- اتّكأ الخطاب الحجاجي على استراتيجية المفارقة؛ لأنّ موضوع الخطاب يجسّد علاقة التّنافر بين الأنا والآخر، بين المركزي والهامشي.
- نوّع المخاطِب في خطابه للآخر باعتباره يمثّل الأنا الجمعي غالبا في استخدام ضروب المفارقة بحسب طبيعة الموضوع، إذْ تظهر المفارقة الموقفية مسافة التّباعد الاجتماعي والإنساني بين أطراف العملية التّواصلية.

- يميل خطاب الآخر الأجنبي إلى استراتيجية اللاتأدّب التي تعتمد على التّكثيف في توظيف ملفوظات القول؛ التي تميل إلى الذّم والاستهجان، والانتقاد والرّفض، فمالت أفعال الكلام إلى الإنجاز السّلبي.
- بنى الشّاعر خطابَه الإقناعي على استراتيجية المنطق لحمل الآخر على الإذعان، فاستخدَم استراتيجية السّببيّة؛ إذْ كان يثبت أفعال الآخر، ويقرر الواقع (العالَم بأشكاله المختلفة؛ الخارجي، معتقد المتكلم، رؤيته الشّخصية)، ثم يقدّم النّتائج التي يقتضيها ردُّ الفعل.
- إنّ العلاقات اللّغوية في الخطاب الموجّه إلى الآخر تعمل على توجيه إنجازية الفعل إلى مضامين ذات قصديّة تتجاوز البعد التّواصلي لتدفع المخاطَب إلى تعديل سلوكه في التّعامل مع الأنا سعيا لتقويض فلسفته المنتهجة معه، وقد تمّ ذلك من خلال المزاوجة بين التّأثير والإقناع؛ إذْ تتضافر الآليتان في نسيج نصّي يحقّق البعد الحجاجي للخطاب.
- عرفت الأفعال الكلامية في خطاب الأجنبي تنويعا بديعا؛ إذْ استخدمَ الشّاعر الأفعال الكلامية المباشرة في تقرير الواقع، مع إمكانية خروج إنجازيتها إلى دلالات غير مباشرة؛ يحدّدها سياق التّخاطب، كما استخدم الأفعال غيرالمباشرة؛ التي تستدعي كفاءة تواصليّةً لاستلزام البعد الحواري انطلاقا من تحقّق بعض مبادئ الخطاب كالتّعاون والقصدية.
- كشف الدّيوان عن تأثّر الشّاعر بالآخر إبداعيا، فانفتح على أساليب الآخر بما تحمله من ثراء وتنوّع وكسر للنّمطية التّعبيرية؛ حيث نوّع في أشكال التّعبير الشّعري بحسب الحالة الشّعورية، وابتكر له أسلوبه الخاص في الخطاب بعيدا عن الصّرامة في الانقياد لأساليب القدماء، خاصّة مَن عاشوا تجربة السّجن.
- أمّا الدّراسات السّابقة فقد ركّز بعضها على إبراز الانفتاح على الآخر، من خلال الاحتكاك المباشر بثقافة الآخر وحضارته وأدبه، ممّا أسهم في انفتاح الأفق الفكري والفنّي للشاعر العربي، فأقام معه علاقة مثاقفة وتحاور، كان لها تأثير مباشر في التّوجّه إلى تغيير النّظرة السّلبية الرّاسخة في الوعي الجمعي تجاه الآخر، كما تجسّد هذا التّأثر في الجانب الإبداعي من حيث الرؤية والتّشكيل الفنّي العربي.

- أمّا بعضها الآخر فسعى ـ من خلال نمادج من الشّعر العربي المعاصر ـ إلى إجلاء العلاقة مع الآخر خاصّة مغتصب الأرض، فعدّد جرائمَه، ووصفه بما يشكّل حقلا دلاليا حافلا بالرّموز؛ وذلك لتعدّد دوالّه وتنوّع أوصافه، لكنّها تشترك جميعا ـ رغم اختلاف المدارس الفنّية ـ في الموقف الموحّد، المتمثّل في الرّفض (الاحتلال، التّفاوض، التّطبيع)، الدّاعي إلى المقاومة وتحدّي هذا الكيان الدّخيل.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

ـ أولا: المصادر

أ ـ الدواوين

ـ أبو الأسود الدوؤلي، الديوان، نفائس المخطوطات، تح: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ط2، بغداد، مطبعة المعارف، 1964.

ـ أيمن العتّوم، نبوءات الجائعين. قصائد كُتبت في السّجن، ط3، بيروت، المؤسسة العربية للدّراسات والنّشر 2016.

ـ درويش محمود، الأعمال الأولى، الجزء 2، قصيدة مديح الظل العالي، ط1، بيروت، رياض الرّيس للكتب والنشر، 2005.

ـ قباني نزار، الأعمال الشعرية السياسية الكاملة، ج3، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان.

ـ المتنبي أبو الطيب، الدّيوان: شرح عبد الرحمن البرقوقي، المملكة المتحدة، مؤسسة هنداوي،2014.

ب ـ الكتب

1ـ الجاحظ عمرو بن بحر، البيان والتّبيين، تح: عبد السلام هارون، ط7، القاهرة، مكتبة الخانجي، مج1، 1998.

2ـ الجرجاني عبد القاهر، أسرار البلاغة، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، د ط، القاهرة، مطبعة المدني، 1991.

3ـ الجرجاني عبد القاهر، دلائل الإعجاز، قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر، ط5 القاهرة، مطبعة الخانجي، 2004م.

4ـ الزركشي بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح: يوسف عبد الرحمن المرعشلي وآخرون، ط1، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ج4، 1990.

5ـ سّكاكي أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ضبطه: نعيم زرزور، ط2، بيروت، دار الكتب العلمية، 1987.

6ـ العسكري أبو هلال، كتاب الصناعتين، تح: علي محمد البجاوي، ط2، لبنان، دار الفارابي، د ت.

7ـ القيرواني ابن رشيق، العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مج1، ط5، بيروت، لبنان، دار الجيل للنشر 1981.

ثانيا: المراجع

2ـ المراجع العربية

أـ الكتب

1- إبراهيم، عبد الفتاح رمضان، اشتغال التداولية في المجاز والكناية، جامعة المنوفية، مصر، مجلة كلية اللغة العربية، ع 35، ديسمبر 2020.

2ـ أبو العدوس، يوسف، الاستعارة في النّقد الأدبي الحديث. الأبعاد المعرفية والجمالية، ، ط1، عمان، الأهلية للنشر والتوزيع، 1997.

3ـ أدراوي، عياشي، الاستلزام الحواري في التّداول اللّساني، ط1، الجزائلا، منشورات الاختلاف، 2011.

4ـ أدونيس، علي أحمد سعيد، زمن الشعر، ط5، بيروت، دار الفكر للنشر والتوزيع، 1986.

5ـ أدونيس، علي أحمد سعيد، ها أنت أيها الوقت، ط1، بيروت، دار الآداب، 1983.

6ـ إسماعيل، عز الدين، الشعر العربي المعاصر. قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ط3، بيروت، دار العودة، 1981.

7ـ بهاوي، محمد، في فلسفة الغير، ط2، المغرب، دار إفريقيا الشرق، 2003م.

8ـ بوجادي، خليفة، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ط1، العلمة، بيت الحكمة للنشر والتّوزيع، 2006.

9ـ الجابري، محمد، الخطاب العربي المعاصر دراسة نقدية، ط5، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1994.

10ـ حنفي، حسن، حصار الزّمن الحاضر (إشكالات)، القاهرة، ط1، مركز الكتاب للنشر، 2004م.

11ـ الخمّاس، سالم سليمان، المعجم وعلم الدّلالة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، 1428هـ.

12ـ دريدي، سامية، الحجاج في الشّعرالعربي بنيته وأساليبه، ط2، إربد، عالم الكتب الحديث، 2011.

13ـ دريدي، سامية، الحجاج في الشعر العربي القديم–من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، د ط، الأردن، عالم الكتب الحديث 2008م.

14ـ السّليماني، أحمد ياسين، التجليات الفنّية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، ط1، دمشق، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2009م.

15ـ الشّهري، عبد الهادي بن ظاهر، استراتيجيات الخطاب. مقاربة لغوية تداولية، ط1، بنغازي، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004م.

16ـ الصرّاف، علي محمود حجي، في البراغماتية. الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، دراسة دلالية ومعجم سياقي، ط1، القاهرة، مكتبة الآداب، 2010.

17ـ صولة، عبد الله، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط2، بيروت، دار الفارابي، 2007.

18ـ ضيف، شوقي، الأدب العربي المعاصر في مصر، مكتبة الدراسات الأدبية، ط10، مصر، دار المعارف، مصر، 1992.

19ـ الطّايعي، أحمد، القراءة بالمماثلة في الشّعرية العربية القديمة، ط7، الرباط، منشورات زاوية، 2007.

20ـ طرابيشي، جورج، من النّهضة إلى الرّدة. تمزّقات الثقافة العربية في عصر العولمة، ط1، بيروت، دار الساقي، 2000.

21ـ الطّلبة، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2008.

22ـ الطّلبة، محمد سالم محمد الأمين، مستويات اللّغة في السّرد العربي المعاصر، ط1، بيروت، مؤسسة الانتشار العربي، 2008.

23ـ عبد الحق، صلاح إسماعيل، التّحليل اللّغوي عند مدرسة أكسفورد، ط1، بيروت، دار التّنوير للطّباعة والنّشر، 1993.

24ـ عبد العاطي، غريب علاّم، دراسات في البلاغة العربية، ط1، بنغازي، منشورات جامعة خان يونس، 1997.

25ـ عبد المطلب، محمد، كتاب الشّعر، ط1، مصر، الشّركة العالمية للنّشر لونجمان 2002.

26ـ العبد، محمد، المفارقة القرآنية، دراسة في بنية الدلالة، ط1، مصر، دار الفكر العربي مطبعة الأمانة، جزيرة بدران، 1994.

27ـ عتيق، عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ط1، بيروت، دار النّهضة العربية، 2009م.

28ـ عثمان، اعتدال، إضاءة النّص: قراءة في شعر أدونيس، محمود درويش، سعدي يوسف، د ط، بيروت، دار الحداثة، 1988.

29ـ عشير، عبد السلام، عندما نتواصل نغيّر. مقاربة تداولية معرفية لآليات التّواصل والحجاج، د ط، المغرب، دار أفريقيا الشّرق، 2006.

30ـ العلوي، حافظ إسماعيل: الحجاج والاستدلال الحجاجي. دراسات في البلاغة الجديدة، ط1، الأردن، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 2011.

31ـ فخري، صالح، المؤثرات الأجنبية في الشّعر العربي المعاصر، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1995م.

32ـ قلقيلة، عبد العزيز، اللاغة الاصطلاحية، ط3، القاهرة، دار الفكر العربي، 1992.

33ـ لاشين، عبد الفتاح، البيان في ضوء أساليب القرآن، د ط، القاهرة، دار الفكر العربي، 1998.

34ـ المرادي، حسين بن قاسم، الجنى الدّاني في حروف المعاني، تح: فخر الدين قباوة، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992.

35ـ مسعود، رشيد، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، ط1، بيروت، م1 (الاصطلاحات والمفاهيم)، 1986م.

36ـ مفتاح، محمد، تحليل الخطاب الشّعري. إستراتيجية التّناص، ط3، بيروت، المركز الثقافي العربي، 1992.

37ـ المنصوري، مبروك الشيباني: صناعة الآخر المسلم في الفكر الغربي المعاصر من الاستشراق إلى الإسلاموفوبيا، ط1، بيروت، مركز نماء للبحوث والدّراسات، 2014م.

38ـ المؤيد العلوي، يحي بن حمزة بن علي، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، د ط، القاهرة، دار الكتب الخديوية، مطبعة المقتطف ج1، 1333هـ.

39ـ الميلاد، زكي، نحن والعالم من أجل تجديد رؤيتنا للعالم، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، لبنان، 2013م.

40ـ النّاجح، عزّ الدين، العوامل الحجاجية في اللّغة العربية، مكتبة علاء الدّين للنشر والتّوزيع، ط1، تونس، 2011.

41ـ نخلة، أحمد، آفاق جديد.ة في البحث اللّغوي المعاصر، د ط، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، 2002.

42ـ الهاشمي، السّيد أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتحقيق: يوسف الصملي، د ط، بيروت، المكتبة العصرية، 1999.

43ـ يحي الشيخ، صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دار كتاب البحث، قسنطينة، ط1، 2005م.

ب ـ الأطروحات والرسائل الأكاديمية

1ـ بدة، فوزية، الأنا والآخر في الفكر العربي المعاصر. إدوارد سعيد أنموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة 8 ماي 1945 قالمة، 2020-2021، ص المقدمة ب.

2ـ بربار، عيسى، البعد التّداولي في العملية التّواصلية. شعر الأمير عبد القادر الجزائري أنموذجا، أطروحة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة وهران1، 2015-2016.

3ـ بنعيش، عبد العزيز: التواصل بين القصد والاستقصاء. مقاربة تداولية لفاعليتيْ التدليل والتّأويل، أطروحة دكتوراه جامعة فاس، 2003-2004، المغرب.

4ـ شيتر، رحيمة، تداولية النّص الشّعري، أطروحة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،2008-2009.

ج ـ المجلات والمقالات

1ـ إبراهيم محمد أحمد الشاذلي: المفارقة اللّفظية والمفارقة التّصويرية في شعر ابن سناء الملك (دراسة أسلوبية)، مصر، جامعة المنوفية، مجلة بحوث كلية الآداب، مج 32، ع 124، 2021، ص 04.

2ـ إبراهيم، نبيلة، المفارقة، مجلة فصول النّقدية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، م 04، ع 04/03، 1987.

3ـ بكيش، وسيلة، خطاب الهوية والآخر يقين الثبات وصراع التغيير، جامعة البليدة 2، مجلة المدونة، مخبر الدّراسات الأدبية والنّقدية، م07، ع01، جوان 2020.

4ـ بلخير، عمر، مدخل إلى دراسة بعض الظواهر التداولية في اللغة العربية (الخطاب المسرحي أنموذجا)، المجلة الجزائرية في الأنثربولوجيا والعلوم الاجتماعية إنسانيات، الجزائر، ع 14-15، ماي ديسمبر 2001.

5ـ بهناس، سعيد عادل، الأنا والآخر من الذات إلى التفاعل والحوار، جامعة زيان عاشور، الجلفة، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، مج06، ع 15،2013/12/02.

6- بوخشّة، خديجة، حجاجية التّمثيل في الشّعر الجزائري الحديث، جامعة بسكرة، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، م13، ع1، 2017/06/27.

7ـ بوخشّة، خديجة، أفعال الكلام في شعر رمضان حمود، جامعة مستغانم، مجلة حوليات التراث، ع 20، سبتمبر 2020.

8ـ بوزناشة، نور الدين، الزّايدي بودرامة: حجاجية التّشبيه عند عبد القاهر الجرجاني من خلال كتابه أسرار البلاغة، جامعة الوادي، مجلة المنهل، م08، ع01، 2022.

9- تهاني، سهل العتبي، تعديل القوة الإنجازية، جامعة البليدة 2، مجلة اللّغة العربية وآدابها، م 06، ع 01، 2018/05/20.

10ـ جبايلي، عمر، نظرية الحجاج اللّغوي عند ديكرو وأنسكومبر، جامعة المسيلة، مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب، ع 03، 2018م.

11ـ جوايلية نوال، حجاجية المجاز وفق نظرية المساءلة لميشال ماير، جامعة الوادي، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنّقدية واللغوية، م04، ع04، ديسمبر 2021.

12ـ ربابعة، موسى، المتوقع واللامتوقع. دراسة في جمالية التلقي، الأردن، جامعة اليرموك، مجلة أبحاث اليرموك سلسلة الآداب واللّغات، مج 15، ع 02، 1997م.

13ـ الرّيفي، هشام الريفي، الحجاج عند أرسطو، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، د ط، منوبة، تونس، مطبوعات جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، سلسلة آداب، مج01، د – ت.

14- زغدي، محمد الصّالح، تداولية أفعال الكلام في قصيدة لن أبكي للشاعرة فدوى طوقان، جامعة الوادي، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، م12، ع02، 2020.

15ـ زواغي، سكينة، المواقف السياسية لنزار قباني. دراسة سيميائية تأويلية لنماذج مختارة من شعره، جامعة عنابة، مجلة التواصل في اللّغات والآداب، مج 23، ع 52، ديسمبر 2017.

16– سعد الله، مكي، المختلف. مقاربة ابستيمولوجية في التّأصيل والمرجعية، المغرب، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والنشر، فة بحث عام، قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، 23يناير 2018.

17– سعدوني، يحي، أفعال الكلام. من الجملة الإنشائية إلى النّص الأدبي، جامعة البويرة، مجلة المعارف، م9، ع 16، 01-06-2014.

18ـ سعدية، نعيمة، صور الخبر والإنشاء في فتح الباري شرح صحيح البخاري، جامعة بسكرة، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ع 22، 2018.

19ـ العبد، محمد، تعديل القوة الإنجازية. دراسة في التّحليل التّداولي للخطاب، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مجلة النّقد الأدبي فصول، ع 65 خريف 2004،

20ـ عيكوس، الأخضر، الصّورة الكنائية في القصيدة الجاهلية، جامعة منتوري قسنطينة، مجلة الآداب، مج 04، ع 01، 1997م.

21ـ قاسم، سيزا، المفارقة في القص العربي المعاصر، مصر، مجلة النقد الأدبي فصول م2ج، ع2، يناير فبراير مارس 1982.

22ـ قطوس، بسام، سؤال الأنا والآخر في نماذج دالة من شعر محمود درويش، جامعة اليرموك، مجلة المنارة، المجلد 24، ع04، 2018م، ص 529.

23ـ لرقط الطاهر، لخضاري صباح، الآخر في رواية كلمة الله لأيمن العتّوم، جامعة الجلفة، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج 13، ع 02، أفريل 2021.

24ـ محفوظ، محمد سعيد، حجاجية الأسلوب الخبري، جامعة تيارت، مجلة فصل الخطاب، م07، ع 25، مارس 2019.

25ـ محمدي، يسية، الآليات البلاغية ودورها الحجاجي، جامعة الجلفة، مجلة مفاهيم للدراسات الفلسفية الإنسانية المعمّقة، ع 10، أكتوبر 2021.

26ـ موساوي، فريدة، الكفاءة التّداولية: قراءة في الأساس الاجتماعي للّغة، جامعة الوادي، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنّقدية واللغوية، م04، ع04، 2021/12/30.

27ـ ولي فتاح حيدر، يحي، الآخر في الشعر العربي الحديث. من نكسة حزيران إلى أخريات الألفية الثانية، جامعة بغداد، كلية التربية، مجلة الأستاذ، مج 01، ع 204، 2013م.

د ـ المعاجم

1ـ ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكريا (ت 395هـ): (الصّاحبي) باب معاني الكلام، تح: السيد أحمد صقر، د ط، القاهرة، مطبعة عيسى الباجي وشركاه، د ت.

2ـ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب المحيط، بيروت، دار الجيل، دار لسان العرب، مج1، 1988.

3ـ ببستاني بطرس، محيط المحيط، قاموس عصري مطول للغة العربية، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1، باب الهمزة،

4ـ صليبا جميل، المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ج2، باب الغين، 1982م.

هـ ـ المنصّات والمواقع الإلكترونية

1ـ سعد رفعت سرحت: معنى قول البلاغيين (لذاته/ جامع مانع) عند تعريف الخبر والإنشاء، منصّة أريد، 2023/04/29.

2 ـ المراجع الأجنبية المترجمة

1ـ أرسطو، طاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ج2، كتاب الصّداقة، الترجمة الفرنسية بارتلمى سانتهلير، الترجمة العربية أحمد لطفي السيد، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1924م.

2ـ آن ريبول، جاك موشلر: التداولية اليوم (علم جديد في التّواصل)، تر: سيف الدّين دغفوس، محمد الشّيباني، المنظّمة العربية للتّرجمة، ط1، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنّشر، يوليو 2003.

3ـ تيزفيتان، تودوروف، فتح أمريكا مسألة الآخر، تر: بشير السِباعي، ط1، القاهرة، سينا للنشر، 1992م.

4ـ جاك موشلر، آن ريبول: القاموس الموسوعي للتّداولية، تر: مجموعة من الأساتذة، إشراف: عز الدين المجدوب، د ط، تونس، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2010.

5ـ جان بول سارتر، الوجودية مذهب إنساني، تر: عبد المنعم الحفني، ط1، القاهرة، مطبعة الدار المصرية للطبع والنشر والتوزيع، 1946م، ص46.

6ـ جان بول سارتر، جلسة سرية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، د ط، مصر، دار النّشر المصرية، 2000م.

7ـ جورج، يول، التداولية، تر: قصي العتابي، ط1، بيروت، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010م.

8ـ جون، أوستين، نظرية أفعال الكلام العامّة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، تر: عبد القادر قينيني، د ط، الدّار البيضاء، أفريقيا الشّرق، 1991م.

9ـ جون، سيرل، العقل واللّغة والمجتمع (الفلسفة في العالم الواقعي)، تر: سعيد الغانمي، ط1، الجزائر، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف المركز الثقافي العربي، 1427هـ/200.

10ـ دي سي ميويك، المفارقة وصفاتها، تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1993.

11ـ زيبيله، كريمر، اللغة والفعل الكلامي والاتّصال، مواقف خاصة بالنظرية اللّغوية في القرن العشرين، تر: سعيد حسن بحيري، ط1، القاهرة، 2011.

12ـ سيغموند، فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثماني نجاتي، ط4، بيروت، دار الشروق، 1982

ترجمة

الله